المقامات العشر
لعبدالرحيم العباسي (٨٦٧-٩٦٣هـ)
دارسة وتحقيق

د. حسن بن أحمد النعمي
قسم الأدب ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقامات العشر : لعبدالرحيم العباسي (٨٦٧-٩٦٣هـ)
دراسة وتحقيق

د. حسن بن أحمد النعمي
قسم الأدب
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

هذا العمل جهد متواضع يقرب نتاج عبدالرحيم العباسي في هذا الفن النثري الهم ، من خلال تحقيق مقاماته العشر وتقريبها للقراء والنقاد عن طريق تبيين الموضوعات التي طرقها ، والأسلوب الذي انتهجه فيها ، وإثبات أنّ الفترة التي أشار إليها كثير من مؤرخي الأدب بالانحطاط والعقم لم تكن كذلك ، وإنما قدّمت كثيراً من النتاج الحريّ بالدرس والتحليل .وقد قسمت هذا البحث إلى قسمين الأول : " الدراسة " وفيه ثلاثة مباحث : أولها التعريف بالمؤلف ، وثانيها : الدراسة الموضوعية ، وثالثها : الأداء الفني . والقسم الثاني : التحقيق ، وقدمت له بمقدمة تحدثت فيها عن اسم الكتاب ونسبته إلى مؤلفه ، ووصف المخطوط ، والمنهج الذي اتبعته في تحقيقه.ومقامات عبدالرحيم العباسي جدير أن يحتفل بها ، وأن يلتفت إليها ، وأن تنشر على المتأدبين ،وأن تتناولها أيدي الدارسين بالتحليل والنقد ، ففيها كثير من مداخل السرد الأدبي ، لا سيما الجانب اللغوي ، حيث يمكن الوقوف على كثير من الظواهر اللغوية التي قد يتوصل الباحث من خلالها إلى بعض ملامح البناء اللغوي في القرن العاشر الهجري ، ولا سيما إن سلطت عليها بعض الأدوات النقدية الحديثة التي يمكن الوقوف عليه في هذه الدراسة الموجزة المرافقة للنص المحقق، إنها تحتاج إلى وقفة متأنية أرجو أن تتاح لي قريباً بأذن الله .

المقدمة:

لقد ألصق كثير من النقاد والمؤرخين بالقرون المتأخرة بدءاً من السابع إلَى الثالث عشر تهمة الانحطاط والتخلف، والإغراق في التقليد، وهي تهمة أسهمت في نفور كثير من الدارسين عن العناية بتراث تلك الفترة، وحالت دون الوقوف علَى كثير من النتاج الَّذي ظل حبيس الأرفف، وخزائن المكتبات ومحافظ المخطوطات.

وإذا كانت هذه التهمة تصدق علَى جانب من الأدب فإن تعميمها علَى جميعه لا يقبل من الناقد الذي يجب عليه أن يستقرئ الظواهر قبل إصدار أحكامه.

ومن هنا توجهت إلى محاولة القيام بإبراز عملٍ من الأعمال الأدبية التي حفل بها القرن العاشر الهجري، ولم تمتد إليها عناية المحققين من قبل، ذلك العمل هو "المقامات العشر" لعبدالرحيم العباسي أحد مشاهير الأدباء والبلاغيين في القرن العاشر الهجري.

وعلَى الرغم من شهرة العباسي من خلال كتابه المتداول: "معاهد التنصيص..." فقد سكتت المصادر الأدبية القديمة عن قيمة مقاماته هذه، أو حتى الإشارة إليها عند ترجمته، فأكثر من ترجموا له أشاروا إلَى أنه ألف شرحاً لمقامات الحريري[1].

وكذلك فجميع من كتب عن المقامة الأدبية في تأريخ الدراسات الأدبية المعاصرة لم يشر إلَى مقامات عبدالرحيم العباسي العشر، والشخص الوحيد الذي استطاع الوصول إلَى هذه المقامات وإدراجها ضمن دراسته لهذا الفن هو الدكتور خالد الجديع في كتابه: "المقامات المشرقية ٥٥٠-١٢٠٠هـ" فقد اطلع علَى النسخة المخطوطة وتحدث عنها ضمن ما درس من عشرات النصوص المقامية في القرون الستة التي درسها.

ولم يكن عبدالرحيم العباسي هو الوحيد من بين المقاميين الذين لم تشر إليهم الدراسات التي تناولت فن المقامة بل شاركه في هذا التجاهل كثيرون من كتاب المقامة. والسبب في ذلك هو أن كثيراً من تلك الدراسات اتجهت إلَى النتاج المحقق والمطبوع ولم تذهب إلَى خزائن المخطوطات لتنقب في نفائسها، وتستخرج مكنوناتها الثمينة. وأحسب هذا العمل جهداً متواضعاً يعرّف نتاج عبدالرحيم العباسي في هذا الفن النثري المهم، من

---

(١) انظر: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، لنجم الدين الغزي، تحقيق الدكتور جبرائيل سليمان جبور، مطبعة المرسلين، لبنان، ١٩٤٩م، ١٦٤/١، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ ٣٢٦/٨، وهدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا البغدادي، دار العلوم الحديثة، بيروت، د.ت، ٥٦٣/٥، وغيرها.

خلال تحقيق مقاماته العشر وتقريبها للقراء والنقاد عن طريق تبيين الموضوعات التي طرقها، والأسلوب الذي انتهجه فيها، وإثبات أنّ الفترة التي أشار إليها كثير من مؤرخي الأدب بالانحطاط والعقم لم تكن كذلك، وإنما قدّمت كثيراً من النتاج الحريّ بالدرس والتحليل.

وقد قسمت هذا البحث قسمين، الأول: "الدراسة" وفيه ثلاثة مباحث: أولها التعريف بالمؤلف، وثانيها: الدراسة الموضوعية، وثالثها: الأداء الفني.

والقسم الثاني: التحقيق، وقدمت له بمقدمة تحدثت فيها عن اسم الكتاب ونسبته إلَى مؤلفه، ووصف المخطوط، والمنهج الذي اتبعته في تحقيقه.

القسم الأول: الدراسة:

أولاً: التعريف بالمؤلف:

هو أبو الفتح بدر الدين عبدالرحيم بن عبدالرحمن بن أحمد بن حسين بن داود بن سالم بن المعالي بن الموفق بن أبي ذرّ العبادي بن الشهاب العباسي الحموي، ينحدر من أسرة عريقة اشتهرت بالعلم والقضاء، فوالده عبدالرحمن (٨٣١- ٨٩٣هـ) تولى قضاء حماة، ونظارة الجيش بدمشق، وأخوه محمد (٨٣٣- ٨٨٨هـ) تولى القضاء بدمشق سنة ٨٧٨هـ.

ولد عبدالرحيم في مدينة القاهرة يوم السبت الرابع عشر من رمضان سنة ٨٦٧هـ[1]. ونشأ في كنف والده، الذي ربّاه ونشأة تنشئة حسنة، حيث عهد به إلَى حلق العلم في صغره، فحفظ القرآن الكريم علَى يد الإمام شمس الدين النشّائي المالكي (ت ٩٣٧هـ) ، وتعلم النحو وعلوم اللغة علَى يد أبي عبدالله محيي الدين محمد بن سليمان الكافيجي (٧٨٨- ٨٧٩هـ) حيث درس علَى يديه الكافية في النحو. ودرس الحديث علَى يد عدد كبير من العلماء في مصر من أمثال يحيى بن محمد الأقصرائي (٧٩٧-٨٨٠هـ) وعثمان بن محمد الديمي (٨٢١- ٨٨٩هـ)، وشمس الدين محمد بن قاسم الغزي (٨٥٩-٩٠٨هـ) ومحمد بن عبدالرحمن الصديقي البكري الشافعي (٨٠٧-٨٩١هـ). وشمس الدين محمد بن قاسم الغزي (٨٥٩- ٩١٨هـ) وغيرهم. وقرأ فنون الأدب والبلاغة وصناعة الشعر علَى يد محب الدين محمد بن الشحنة المصري (...-٩٥١هـ).

---

(١) أشار السخاوي إلَى أنه ولد سنة ٨٦٦هـ (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين السخاوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ٤ / ١٧٨، وتابعه في هذا كل من عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ٥ / ٢٠٥، ويوسف سركيس في معجم المطبوعات العربية والمعربة ٢ / ١٢٦٧. وهذا ليس بصحيح، والمثبت في المتن أنه ولد سنة ٨٦٧ هـ من خط عبدالرحيم العباسي نفسه.

وبالوقوف عَلَى أسماء العلماء الذين تلمذ لهم والذين عددهم السخاوي وغيره[1] نلمح أنه قد حصل ثقافة واسعة، مما كان له أكبر الأثر في تكوين شخصيته العلمية، التي أهَّلَته للتصدي للتأليف فيما بعد في فنونٍ كثيرة.

سافر عبدالرحيم العباسي في عهد السلطان الغوري من مصر إِلَى القسطنطينية سنة ٩٠٦هـ وذلك مع رسول الغوري إِلَى السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦-٩١٨هـ)، وقد بقي في تلك الرحلة فترة من الزمن، وفيها التقى بالسلطان بايزيد وأهداه أحد مؤلفاته، وكافأه السلطان عَلَى ذلك، كما عرض عليه التدريس في القسطنطينية، ولكنه فضَّل الرجوع إِلَى القاهرة. ولما انقرضت دولة المماليك سنة ٩٢٣هـ عاد عبدالرحيم العباسي إِلَى القسطنطينية، فأقام بها إِلَى أن توفي فيها سنة ٩٦٣هـ عن عمر بلغ ستًّا وتسعين سنة[2].

أثنى عليه جلُّ من ترجموا له، وأشاروا إِلَى أنَّه كان ذا خلقٍ عظيم، ووجه بسّام، وكان لطيف المحاورة، متواضعاً، كريم النفس، وذا حافظة قوية، وخطٍّ حسنٍ وجميل، ويحفظ كثيراً من الشعر العربي، ومؤلفه القيّم معاهد التنصيص خير شاهد عَلَى تلك الإحاطة بشعر العرب[3].

ولعبد الرحيم العباسي مؤلفات كثيرة، أكثرها ما زال مخطوطاً، وسأشير إليها إشارات سريعة، وهي:

١- الإرشاد في فقه الشافعية، وهو في شرح أصول فقه الإمام الشافعي، نسبه إليه عدد من الذين ترجموا له، ومنهم نجم الدين الغزي[4]، وإسماعيل البغدادي[5].

٢- أنس الأرواح بعرس الأفراح، وهو عبارة عن رسالة في مديح السلطان سليمان خان بايزيد، وبعض أركان الدولة العثمانية. ومنه نسخة مخطوطة بمكتبة الحرم المكي الشريف برقم ٤٧ أدب، في ٢٠ ورقة، ومنه صورة في معهد المخطوطات برقم ١٠١٩ أدب.

٣- أنفع الوسائل إِلَى أبدع الرسائل، وهو كتاب لطيف في كيفية تعليم إنشاء مقدمات

---

(١) انظر: الضوء اللامع، للسخاوي ٤/ ١٧٨، والكواكب السائرة، للغزي ٢/ ١٦١.

(٢) انظر: الشقائق النعمانية، لطاشكبري زادة: ٢٤٦، وكشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ٤٧٧.

(٣) انظر: الشقائق النعمانية لطاشكبري زادة: ٢٤٧، وريحانة الألبا، للخفاجي ٢/ ٦٠، وشذرات الذهب، لابن العماد ٤/ ٣٣٥، وغيرها.

(٤) انظر: الكواكب السائرة، ٢/ ١٦٤.

(٥) انظر: هدية العارفين، ٥/ ٥٦٣.

الرسائل الإخوانية، وهو مطبوع، وقد حققه الدكتور/ عبدالرازق حويزي، واعتمد في تحقيقه عَلَى نسخة فريدة بدار الكتب المصرية برقم ٣٩١٢ أدب، وطبع في مكتبة الآداب، بالقاهرة سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

٤- تاريخ قضاة دمشق، وقد ذكر السخاوي أنَّ العباسي لم يكمله[١].

٥- حاشية عَلَى الغيث المُسْجَم شرح لامية العجم، للصفدي، وقد نسبه إليه عدد كبير من المؤرخين منهم نجم الدين الغزي[٢]، وحاجي خليفة[٣]، وإسماعيل باشا البغدادي[٤].

٦- شرح ألفية ابن مالك، وقد نسبه إليه السخاوي[٥].

٧- شرح مقامات الحريري، وقد نسبه إليه كثير من المؤرخين[٦].

٨- شعر عبدالرحيم العباسي (٨٦٧-٩٦٣هـ)، وقد قام بجمعه وتحقيقه ودراسته الدكتور/ عبدالرازق حويزي، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، وطبع في مكتبة الآداب، بالقاهرة. وجاء الديوان وما رافقه من دراسة في ١٣٤ صفحة، واشتمل عَلَى حصيلة شعرية جاءت في (٣٣٤) بيتاً، تضمها ثنتان وثمانون قصيدة ومقطعة ونتفة، وجمعها من مصادر كثيرة، ما بين مطبوع ومخطوط[٧].

٩- فيض الباري بشرح صحيح البخاري، ألفه سنة ٩٠٦هـ، وأهداه إِلَى السلطان بايزيد، ويقع في أربعة مجلدات، ومنه نسختان في دار الكتب المصرية، إحداهما برقم (م ١٠٦حديث)، والثانية برقم (٢٣٢٣ حديث)، وقد نسبه إليه كثير من المؤرخين[٨].

١٠- معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص، وهو أهم كتاب أثر عنه، وطارت شهرته

---

(١) الضوء اللامع، ٤/ ١٧٨.

(٢) انظر: الكواكب السائرة، ٢/ ١٦٤.

(٣) انظر: كشف الظنون، ١٥٣٧.

(٤) انظر: هدية العارفين، ٥/ ٥٦٣.

(٥) الضوء اللامع، ٤/ ١٧٩.

(٦) انظر: الكواكب السائرة، للغزي ١/ ١٦٤، وشذرات الذهب، لابن العماد ٨/ ٣٢٦، وهدية العارفين، للبغدادي ٥/ ٥٦٣.

(٧) انظر أهم المصادر التي اعتمد عليها الدكتور/ عبدالرازق حويزي في جمعه لشعر عبدالرحيم العباسي في: شعر عبدالرحيم العباسي (٨٦٧-٩٦٣هـ): ٣١-٣٣.

(٨) انظر: الكواكب السائرة، للغزي ٢/ ١٦٤، وريحانة الألبا، للخفاجي ٢/ ٦١، وكشف الظنون، لحاجي خليفة ١/ ٥٥١ وفيه اسمه "شرح الجامع الصحيح"، وهدية العارفين، للبغدادي ٥/ ٥٦٣ وسماه "شرح الجامع الصحيح للبخاري"، وتابعه في ذلك الزركلي في الأعلام ٣/ ٣٤٥، وعمر كحاله في معجم المؤلفين ٥/ ٢٠٥.

به، وعرف به لدى الأدباء والبلاغيين، وقد حققه محمد محيي الدين عبدالحميد، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م، وطبع في المكتبة التجارية الكبرى، بالقاهرة، في أربعة أجزاء، في مجلدين. وقد تناول العباسي في كتابه هذا شواهد الخطيب القزويني في كتابه "تلخيص المفتاح" بالشرح المستفيض، وترجم لقائليها، ووضع في كل فنٍّ نظائره الأدبية، ومزج فيه الجد بالهزل[١].

١١- المقامات العشر، وهو موضوع هذا البحث.

١٢- منح ربّ البرية في فتح رودس الأبيّة، والكتاب يتحدث عن مرويات العباسي لذلك الفتح المبين عَلَى أيدي العثمانيين، حيث شارك فيه، ومدح القادة العثمانيين الذين فتحوا "رودس"، والكتاب منشور في حوليات كلية الآداب، بجامعة الكويت، الحولية الثامنة عشرة "الرسالة الثانية والعشرون بعد المائة، سنة ١٤١٧هـ/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧/ ١٩٩٨م، بتحقيق الدكتور/ فيصل بن عبدالله الكندري، وقد حقق الكتاب عَلَى نسخة واحدة فريدة، كتبت بخط العباسي نفسه، توجد في مكتبة قصر طوب قابي، برقم (١٥٩٩)، وتقع في ٦٩ ورقة[٢]. ولم يشر إلَى هذا الكتاب أحد من المؤرخين سوى نجم الدين الغزي بإشارة غير صريحة[٣].

١٣- المواعد الوفية بشرح شواهد الخزرجية، والكتاب يتناول بالشرح شواهد الخزرجية في العروض، وضمن الكتاب مختارات شعرية كثيرة، والكتاب توجد منه نسخة فريدة في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم (١٧٠٧ أدب) في ٨٤ ورقة، وقد نسبه إليه بعض المؤرخين[٤].

١٤- نثر الدر الثمين في عرس مولانا جعفر الأمين، وقد نسبه إليه إسماعيل باشا البغدادي[٥].

١٥- نظم الوشاح عَلَى تلخيص المفتاح، وهو مختصر لكتابه معاهد التنصيص، وتوجد منه

---

(١) انظر: التصور الأدبي عند عبد الرحيم العباسي من خلال كتابه معاهد التنصيص، للدكتور محمد بركات حمدي، دار الفكر، عمان ١٩٨٤م: ٩. والإسعاف في شرح شواهد القاضي والكشاف لخضر الموصلي، تحقيقاً وموازنة مع كتاب معاهد التنصيص للعباسي، الدكتور/ عبدالرحمن الداغري ١/ ٣٥.

(٢) انظر: منح رب البرية في فتح رودس الأبية، للعباسي، تحقيق الدكتور/ فيصل الكندري: ٥٤-٥٥.

(٣) انظر: الكواكب السائرة، ٢/ ١٦٣.

(٤) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٦٤، وهدية العارفين، للبغدادي ٥/ ٥٦٣.

(٥) انظر: هدية العارفين، ٥/ ٥٦٣.

نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة برقم (١٦١ بلاغة، تيمور)[١].

هذه لمحات عن حياة عبدالرحيم العباسي وآثاره، وهي حياة حافلة بالعطاء والإنجاز[٢].

ثانياً: الدراسة الموضوعية:

سار عبدالرحيم العباسي في اختيار العدد لمقاماته موافقاً نهج عدد من المقاميين أمثال الحسين بن سليمان بن ريان والقواس الحلبي إذ كتب كل واحد منهم عشر مقامات، وهو

---

(١) نسبه إليه حاجي خليفة في كشف الظنون ١٩٦٤، وإسماعيل البغدادي في هدية العارفين ٥ / ٥٦٣، والزركلي في الأعلام ٣ / ٣٤٥، وعمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ٥ / ٢٠٥.

(٢) للاطلاع علَى مزيد من التفاصل عن حياة عبدالرحيم العباسي وآثاره، ينظر:

أ- معاهد التنصيص، لعبدالرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار عالم الكتب، بيروت - لبنان، ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م، نسخة مصورة عن طبعة مصر: ٤ / ٢٧٤.

ب- الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، لنجم الدين الغزي، تحقيق: جبرائيل جبور، ١٩٤٩، ٢/ ١٦١-١٦٢.

ج- ريحانة الألبا، للشهاب الخفاجي، تحقيق عبدالفتاح الحلو، طبعة عيسى الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٧٦م، ١/ ١٤٠، ٢/ ٦٠-٦٦.

د- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، ٨ / ٣٢٥-٣٢٦.

هـ- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي، ٤ / ١٧٨.

و- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، لطاشكبري زادة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م: ١/ ٢٤٦-٢٤٧.

ز- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، طبعة دار الفكر، ١٩٤٨م: ٤٧٧، ٥٥١، ١٥٣٧، ١٩١٩، ١٩٦٤.

ح- هدية العارفين، لإسماعيل باشا البغدادي، ٥ / ٥٦٣.

ط- معجم المطبوعات العربية والمعربة، ليوسف سركس، مطبعة سركس، مصر، ١٩٢٨م: ٢/ ١٢٦٧.

ي- تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان (الترجمة العربية) ٨ / ٥٠-٥١.

ك- الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م، ٣/ ٣٤٥.

ل- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت ٥ / ٢٠٥-٢٠٦

م- التصور الأدبي عند عبدالرحيم العباسي من خلال كتابه معاهد التنصيص.

ن- شعر عبدالرحيم العباسي، دراسة وتحقيق الدكتور/ عبدالرازق حويزي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ: ٩-٢٨.

س- منح رب البرية في فتح رودس الأبية، لعبدالرحيم العباسي، تحقيق الدكتور فيصل الكندري حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ١٤١٧-١٤١٨هـ/ ١٩٩٧-١٩٩٨م: ٤٩-٥٢.

ع- الإسعاف في شرح شواهد القاضي والكشاف لخضر بن عطاء الله الموصلي، تحقيقاً وموازنة مع كتاب معاهد التنصيص، لعبدالرحيم العباسي، تحقيق ودراسة الدكتور عبدالرحمن الداغري، رسالة دكتوراه مقدمة إلَى قسم الأدب بكلية اللغة العربية بالرياض، عام ١٤٢٤هـ/ ١٤٢٥هـ (غير منشور)، ١/ ٢٨-٤٢.

عدد يعد قليلاً إذا قيس بصنيع كثير من المقاميين الذين تجاوزت مقامات بعضهم ستين مقامة كابن ماري النصراني وناصيف اليازجي[1]. أو من كتب نحو خمسين مقامة أمثال بديع الزمان الهمذاني والحريري.

والعباسي كان في الأصل قد عزم عَلَى صنع مقامة واحدة فقط يقدمها هدية لسعدي جلبي[2] (٠٠٠ – ٩٤٥هـ)[3]، حيث يقول: "أعملتُ الفكر في عمل مقامة، ولم أشعر بأنها ذات اعوجاج واستقامة، غير أني تجاسرت بعرضها، وما في سمائها وأرضها، عَلَى حضرة فرد الوقت، مُقْدِماً إما عَلَى الرضا أو المقت، أعني حضرة عين الأعيان... مولانا سعدي"، ولكن العباسي بعد أن رأى إعجاب سعدي جلبي بها أغراه هذا النجاح في صنع مقاماتٍ أخرى إِلَى أن أوصلها عشراً، فيقول: "فحين وقع نظره الكريم عليها، وصرف وجه تأمله إليها، أظهر بها إعجاباً، وجعل نداءها بستر حلمه مجاباً، فكان ذلك إما لإصابة السهم الغرض، أو جبراً لخاطر الفقير ونصراً له عَلَى من في قلبه مرض، وبرز أمر الله تعالى أن ينشأ لها أتراب، فحينئذٍ أمن القلب مما به استراب، وعمل عشراً كاملة..."[4].

ومقامات العباسي العشر لا تكاد تخرج عن موضوعين رئيسين من موضوعات المقامة التي اعتاد مؤلفوها الكتابة فيها، وهذان الموضوعان هما الكدية والقصّ، ولا يعني ذلك عدم دخول موضوعات أخرى ضمن سرد المقامة ولكنّ هذين الموضوعين هما اللذان غلبا عليها، فالحكم في التصنيف هنا يعود إِلَى العنصر البارز في المقامة بالدرجة الأولى.

وبتأمل مقامات العباسي نجد أنه لم يفرد من مقاماته العشر لموضوع الكدية سوى مقامته الأولى التي كتبها في الوهلة الأولى لتجريب حظه في هذا الفن النثري، وكأنه بهذا الصنيع يريد – حين جعلها في صدر مقاماته – أن يشير إِلَى أنّ لحمة المقامات وسداها هي الكدية، وأنه لا

---

(١) انظر: المقامات المشرقية (٥٥٠ – ١٢٠٠هـ) للدكتور/ خالد الجديع، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م: ٥١.

(٢) هو سعد الدين عيسى بن أمير خان الحنفي، المعروف بسعدي جلبي، تولى القسطنطينية لمدة طويلة. له اهتمام بجمع الكتب واقتنائها، وله رسائل وتعليقات، كتب رسائل مفيدة عَلَى تفسير البيضاوي، وله شرح مختصر مفيد للهداية، وقد بنى داراً كبيرة للقراء في القسطنطينية قرب داره، وكان عبد الرحيم العباسي خليلاً له، ولكل منهما عناية بالآخر ومودة. انظر ترجمته في: الكواكب السائرة ٢/٢٣٦، وشذرات الذهب ٨/٢٦٢، والأعلام ٣/٨٨ – ٨٩.

(٣) المقامات العشر ٤/أ.

(٤) المصدر السابق: الورقة نفسها.

بد قبل أن ينطلق بتلك المقامات إِلَى آفاق أخرى من القصّ أن يجرب خوض غمارها[1].

وتلك المقامة تسير عَلَى نمط مقامات الكدية المعروفة لدى المقاميين المتقدمين، حيث يتحول الاستجداء عند بعض الشحاذين إِلَى كدية هي ألصق بالعجز والكسل منها بالحاجة والعوز، والكدية عند أهلها ليست مجرد سؤال واستجداء، بل تطورت وأخذت معنى الاحتيال للمال بأي وسيلة ممكنة.

وهو يبدأ مقامته الأولى متبعاً نهج المقاميين الذين طرقوا مقامة الكدية بالحديث عن تغرّب الراوي عن وطنه، وهذا التغرب ركن من أركان المقامة منذ بديع الزمان، فيقول: "ساقني القدر المحتوم، والغيب المكتوم من أرض الأراك والبشام، إِلَى أن حللت الشام، فأقمتُ بها مدة مديدة، وأنا كل يوم في نزهة جديدة..."[2].

ثم ينتقل الراوي إِلَى الحديث عن وصف النقلة التي تمهد للدخول في الحكاية، فيقول: "فأقمتُ بها آمن السرب، صافي الشرب، لا أخاف مغيراً، ولا أشكو مضيراً، إِلَى أن هجم الشتاء بيبس هوائه، وتراكم أنوائه، فكنت ألازم السكون، ولا أخرج من الوكون... إِلَى أن دعتني حاجة أكيدة، وضرورة شديدة إِلَى الخروج من الدور، وأن أسعى لتحصيلها وأدور..."[3].

ولما خرج من بيته رأى شحاذاً عَلَى قارعة الطريق، والعباسي هنا يدخل على الحدث عنصر المفاجأة كعادة المقاميين، حيث يقول: "أبصرتُ بإنسان، أحسبه من بني ساسان وهو ملقىً عَلَى قارعة الطريق..."[4].

وهو في ذكره لذلك الشحاذ أنه من بني ساسان تقليد لما رامه المقاميون في هذا الباب حيث نسبوا الكدية إليهم، وألصقوها بهم، ولنقاد المقامات تعليلات كثيرة، وتأويلات مختلفة في سر هذه النسبة، وجلها أساطير لا تثبت بدليل، فمن ذلك مثلاً: أنَّ ساسان المراد هنا هو ساسان بن أردشير، وأنه كان تطلَّع للملك ، ولا يُشَكُّ أنه هو الملك بعد أبيه، لكنَّ أباه فوض أمر الحكم إِلَى ابنته، فشق ذلك عَلَى ساسان فتزهّد وخرج عن طريقة الملوك، واتخذ غنماً يرعاها في البرية، فاستشنع الناس فعله، وعُيّر بذلك.

وقيل بل ساسان هنا هو رجل فقير بصير في استعطاء الناس والاحتيال عليهم، فنسب

---

(١) انظر: المقامات المشرقية، د. خالد الجديع: ١٠٠-١٠١.

(٢) المقامات العشر: ق ٤/أ.

(٣) المصدر السابق: الورقة نفسها.

(٤) المصدر السابق ق ٤/أ - ٤/ب.

المكدون والشحاذون إليه، وقد ذكر الدكتور مصطفى الشكعة روايات أخرى غير هاتين الروايتين تفسّر تلك النسبة[1].

ثم بعد ذلك يدخل الراوي عناصر التشويق والشفقة عَلَى ذلك الشحاذ واصفاً حاله بأنه "ملقىً عَلَى قارعة الطريق، مبعدٌ عن العشير والفريق، والرعدة تهزّه، وتُكثر اضطرابه وتؤزّه، وعليه أسمالٌ لا تواريه، ودموعه تسابق القطر وتجاريه، وقد ازرقَّ من البرد جسمه"[2] ثم يشفق عليه الراوي فيعاتبه عَلَى خروجه في هذا اليوم الماطر، ويلومه عَلَى تعريض نفسه للمخاطر، فأجابه الشحاذ بأنه ما خرج إلا لضرورة شديدة، وحاجة ماسة قائلاً: "والله ما خرجتُ في هذا اليوم العصيب إلا لأحصل وأصيب... وخلفي صبية صغار في أسر الذل والصغار، قد وقذهم الجوع، ومنعهم الهجوع، وقد أرسلوا بي وانتظروا، وسواي ما لمحوا ولا نظروا، فكفَّ عني غرب لسانك، وكفكف عليَّ بإحسانك، وأوفِ من الخصاصة ولو بقصاصة..."[3].

فيندم الراوي عند ذلك عَلَى تعجله في اللوم، ويواسيه بما يتيسر معه من مال. وهنا تدخل اللازمة الحكائية في مقامات الكدية وهي شك الراوي في البطل وإحساسه بأنَّ هناك شيئاً ما غير طبيعي، فيكمن الراوي لينظر ماذا يفعل ذلك الشحاذ، فيقول: "ثم ثنيت عنه عناني، وجعلته نصب عياني، وجلست بحيث أراه ولا يراني... والصدقات تردُ عليه تترى، وتفدُ شفعاً ووترا... وهو يزيد في رعدته، ويظهر أثر شدته..."[4].

ولما دنا وقت الأصيل رأى الراوي ذلك الشحاذ يستجمع قواه، ويلملم ما حصله، ويعدّل ما التوى منه، ثم يغتنم خلو الطريق فيقوم وكأن شيئاً لم يكن، فيزداد ارتياب الراوي فيه أكثر من ذي قبل، ويتبع خُطى الشحّاذ إلى أن دخل قصراً كبيراً، ويغلق الباب، فانتظر الراوي برهة أمامه، ثم دفعه الفضول إِلَى أن يطرق الباب ليسبر ما وراءه من خبر، فيخرج عليه شاب حسن الثياب، ويدخله إِلَى القصر، ويكرم وفادته، وبعد الإكرام يسأل الراوي عن ذلك الشحاذ، فيخبره ذلك الشاب حسن الثياب بأنه هو الشحاذ نفسه، وأن ما صنعه في ذلك الطريق هو عمله الذي يقوم به كل يوم.

---

(١) انظر: بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية، للدكتور مصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م: ٣١٢.

(٢) المقامات العشر ٤/ ب.

(٣) المصدر السابق: الورقة نفسها.

(٤) المصدر السابق: الورقة نفسها.

ويتعجب الراوي، فيرد عليه ذلك الشحاذ بأن ما رآه ليس سوى شيء يسير من حرفته، ويطلب منه أن يذهب صباح الغد إِلَى المسجد الجامع ليرى ما هو أعظم من طرائق الحيلة وفنون الكدية والاستجداء.

ويدخل الراوي عَلَى حكايته الأولى حكاية جديدة، وكدية أخرى فريدة تدور أحداثها داخل المسجد أطرافها وشخوصها الخطيب والشحاذ وأمه وجماعة المسجد، فيقول الراوي: "فقُدِّر جلوسي عند المنبر، وقد حضر من عقٍّ ومن برّ، فعندما برز الخطيب، وصعد وصوب نظره في الناس إذا بشخص أكتع ذي عرج، يُخال إذا مشى أنه ينحطّ من درج محجوب العين اليمنى... وعليه أخلاق لا يلبسها من له خلاق، فوقف وقوف متهافت، وسلّم بصوتٍ خافت، وقال يا معشر هذا الجمع..." [1]. ثم راح يتحدث عن عثوره عَلَى لقطة ثمينة ساقها إليه الحظ، وطلب من الناس أنهم متى ما رأوا صاحب تلك اللقطة فليدلوه عليه، علَّه يحصل عَلَى هدية جزاء الحفاظ عَلَى اللقطة الثمينة. وعند ذلك تحصل جلبة في المسجد، إذ تدخل عجوز تلطم خديها، وتزعم أن اللقطة سقطت منها، وتقوم بوصفٍ دقيق لها، وحينها يأمر الخطيب بإعطائها تلك الصّرة الثمينة، ويطلب منها أن تَهبَ لذلك الفقير الذي عثر عليها شيئًا منها، ولكنها تأبى وترفض أشد الرفض زاعمة أنها أمانة عندها.

ويكمل الراوي القصة ذاكراً أن الخطيب تأثر بذلك المشهد فخاطب الناس بقوله: "يا معشر الأنجاب، إن هذا لشيء عجاب، مبتلىً فقير، ليس له فتيل ولا نقير يظفر بمثل هذا الثمين، ويكون فيه بوصف القوي الأمين، ويرده بدون جزاء وهو معطل الأجزاء، إن هذا ليدل عَلَى كرم الأرومة، وطيب الجرثومة، وقد تعين إسعاده وإسعافه، ووجب إكرامه وإنصافه، فبدأ الخطيب وبدر، وانثالت عليه البِدَر، فلا يُدرى قدر ما حصل، ولا ما إليه وصل، وقام يخطر بعرجة، وقد تبدل كربة بفرجة، والناس يتعجبون من شرف قنسه، وكرم جنسه، وبالخير عليه يثنون..." [2].

وعندما تفرق الناس ذهب الراوي – بصفته أحد الشخوص في القصة – إلى قصر الشحاذ ليخبره بما رأى في الجامع من أمر عجيب، فإذا بالشحاذ يبادره بسرد تفاصيل القصة التي حدثت، فيتعجَّب الراوي أشد العجب، وحينها يكشف له الشحاذ السر في أنَّه هو ذلك

---

(١) المصدر السابق ق ٥ / أ.

(٢) المصدر السابق: ق ٥ / ب.

الرجل الذي وجد تلك اللقطة، فيقول: "أرأيت ذلك الفقير المبتلى، وما به من أنواع الابتلا، وشاهدت لعابه السائل، وشقه المائل، وعينه المطموسة، وصورته التي هي في غمرات الأوصاب مغموسة؟ فإنه لمحدثك وجليسك، ومحاضرك وأنيسك، وقد عافاه الله... وأما العجوز الواردة، فهي الوالدة، وأما الضالة المنشودة فهي هذه المشهودة، وأخرج تلك اللقطة بعينها، وجوهرها ولجينها، وعرض علي ما استجداه..." (١).

ثم يعرض ذلك الشحاذ المكدي شيئاً من المال عَلَى الراوي، فيعتذر الراوي عن أخذ شيء منه، ويعجب الراوي، فيطلب منه الشحاذ ألا يعجب، فهذا الفن فيه طرائق متشعبة، ومصائد وحبائل لا يخيب صيدها، ولا يضعف أيدها.

والجديد في هذه المقامة لدى عبدالرحيم العباسي بالإضافة إِلَى طولها وجودة حيلتها، هو اشتمالها عَلَى أكثر من حيلة، الحيلة الأولى خداع المارة في الطريق، والثانية الاحتيال عَلَى جماعة المسجد، وهذا ما لم نعهده فيما سبق من المقامات، وهو أمر يحسب للعباسي لا سيما أنَّه أراد التجريب في هذا الباب، ولم يكن هو السبيل الذي يريد الكتابة فيه، وإنما أراد إظهار أنَّه قادر عَلَى الكتابة في موضوع المقامات الأول والرئيس في ثقافة وذهن القارئ العربي.

أما نمط الخطاب في مقامات العباسي الرئيس فهو القصّ، إذ جاءت مقاماته التسع الأخرى تحمل طوابع قصصية، والمراد بالقص في فنِّ المقامات القصّ من حيث هو موضوع لا من حيث هو شكل، "فالقص من حيث هو موضوع مجال من مجالات المقامة استهوى كثيراً من المقامين، مشكلاً ألواناً وخطوطاً مختلفة"(٢).

ومقامات العباسي القصصية بدءاً من الثانية إِلَى العاشرة تختلف في مستواها من حيث البساطة والسذاجة والتعقيد والإجادة، والحبكة والصراع، وحسن إدارة الحوار داخل المقامة.

فالمقامة الثانية مثلاً نجد أنها حكاية نكاد نعرف نهايتها بمجرد سماع بدايتها، فالعباسي يبدأ مقامته متحدثاً عن رجل فقير معدم ليس له أي حرفة، وبينما هو يسير في أحد الأيام إذ رأى مجموعة من النساء، فأعجب بهن، ووقع نظره عَلَى واحدة منهن، فهام بها، فتبعها إِلَى

---

(١) المصدر السابق: ق ٥ / ب – ٦ / ب.

(٢) المقامات المشرقية، د. خالد الجديع: ١١٦.

أن عرف دارها، ثم عاد إلَى منزله حزيناً، وفي الصباح قصد أحد أصدقائه، فلما جاءه قص عليه قصته، وما لقيه من عشق تلك الحسناء، ثم طلب من صاحبه مالاً وملابس ومركباً عَلَى سبيل الإعارة عَلَى أن يعيدها بعد شهر، فأعطاه صديقه ما طلب، فذهب وطرق باب تلك الفتاة الحسناء، قاصداً خطبتها، فوافق أهلها، وتم الزواج، وبعد فترة نفد المال الذي معه، فأخذ يفكر في طريقة لجلب ما يستر به فقره أمام زوجته وأهلها، وما يسد به الدين الذي عليه.

وتحدث الفرجة في الحدث فيلمح في البيت لوحاً أحمر مصنوعاً من المرمر، فقرر قلعه وبيعه، والعيش بثمنه، ولما نزعه وجد تحته سلماً، فأوقد المصباح ونزل من السلم، فكانت المفاجأة التي تحدث عنها قائلاً: "ونزل وقد أحسَّ فوزاً ورباحاً، وإذا بسبعة أزيار من النحاس مغروسة في ذلك الأساس، مسدودة الأفواه بأسود الرصاص، ولم يظهر بها ثقب ولا خصاص، فاحتال في فتح أحدها وهو عَلَى غاية الرهب، فوجده مملوءاً بالذهب، فكاد يطير فرحاً، وازداد نشاطاً ومرحاً، وأخذ منه ما أراد، وقد أعشب من سعده المراد، وأعاد تلك البلاطة إلَى مكانها، وبالغ في إحكامها..." [1]. وصار يتردد عَلَى ذلك المكان لسنوات، ثم لما هم بالسفر أخبر زوجته بكل ما حدث وأراها مكان المال، وتنتهي الحكاية بعد ذلك بأنهما عاشا في سعادة إلَى أن فرق بينهما الموت.

والمتأمل للمقامات التالية يجد أنها تسير في اتجاه تصاعدي من ناحية الحبكة القصصية من حيث عمق الصراع، وجودة الحبكة، فالمقامة الرابعة تحكي قصة رجل من تجار البصرة، كان له ولد قد أحسن تربيته وتنشئته، وقُدِّر لهذا الولد أن يلتقي ببعض من قدم من الهند، فأعجب الابن بتلك البلاد وبصفاتها، فرغب في السفر إليها، فحاول أبوه أن يثني عزمه، ولكنه لم يستطع بعد كل المحاولات والإغراءات، ويسافر الولد إلَى الهند، وفي الطريق يتعرض المركب إلَى أهوال، يقول العباسي: "وكان من قدر الله المحتوم، وسرّ غيبه المكتوم أن هبت عليهم رياح عواصف، لا يقدر عَلَى وصفها واصف، فألجأتهم إلَى جبل المغناطيس قهراً، وقد أوسعوا ذعراً وبهراً، فما كان إلا أن تفرقت ألواح المركب بجذب المغناطيس للحديد، وغرق ما فيها من أحرار وعبيد، وخرج هو عَلَى لوح من تلك الألواح، فساقته إلَى جانب الجبل

---

(١) المقامات العشر ق ٧ / أ.

تلك الأرياح..." [1]، وغرقت السفينة ومات أكثر من فيها، ونجّاه الله إلَى مدينة قريبة، حيث ينقذه أهلها، فيكتشف الشاب أنه لا يعرف لغة أولئك الأقوام، ولكن الله يسّر له شيخاً مهيباً يجيد اللغة العربية أقبل عليه إقبال الشفيق، ومن عجيب الصدف أنَّ ذلك الشيخ كان عَلَى معرفة وصلة بالتاجر البصري والد ذلك الشاب.

وفي تلك المدينة عاش، وتعرف عَلَى أهلها، وخطب بنت أحد أعيانها، وتم له الزواج منها، وبعد أن عاش مع زوجته مدة جاءها الأجل فماتت، وكان قانون تلك البلدة يقضي بدفن الرجل مع زوجته، والمرأة مع زوجها إذا توفي أحدهما، كما يقضي بدفن كل ما يمتلكانه من مال معهما علماً أنه لم يعلم بهذا القانون إلا بعد زواجه، وعن طريق الصدفة – أيضاً–[2].

وفعلاً تم ذلك، إذ سيق معها وهو حي، ووضع في أماكن الموتى مع زوجته، وأغلق عليه، فقعد بين الموتى، وكاد أن يموت جوعاً بعد نفاد ما معه من زادٍ قليل أُنزل معه، وفي تلك اللحظة أنزل أحد الأزواج مع زوجته الميتة، فلما رأى زاده وطعامه طمع به، فقتله، واستولى عَلَى طعامه، واستمر عَلَى تلك الحالة، يقتل الأحياء الذين ينزلون مع الأموات، ليستولي عَلَى زادهم وطعامهم. وتدخل الحكاية مفاجأة تزيدها إغراباً وعجباً وهي أنه "من قدر الله وقضائه، وحكمه في العالم وإمضائه، أن مات ملك ذلك الإقليم وحل بروحه العذاب الأليم، وأدلي في تابوت مصفح بالذهب مرصع بالجواهر، ذي منظر رائع، ورونق باهر، مغطى بمثقلات الديباج المذهبة... وأنزلت زوجته في نهاية التجمل والزينة والنفائس والأعلاق الثمينة، وأنزل معها من الأسباب العظيمة والنعم الجسيمة... ثم أطبقوا عليها فم الناووس، وأسلموها بعد النعيم إِلَى البوس، فجعلت تندب بديع شبابها..." [3].

فأبصرها ذلك الرجل، فهمَّ بقتلها، لما رأى معها طعاماً وفيراً، لكنه أشفق عليها بعد أن رأى حالها وجمالها، وبعد حوار طويل معها تمّ الاتفاق بينهما عَلَى التعاون وتحدّي الصعاب داخل تلك المقبرة إِلَى أن تحين فرصة للخروج، فكانا كلما دخل عليهما أحد قتلاه، وأخذا طعامه.

وتدور الأيام وبينا هما في تلك الحالة العصيبة، والعيشة الرتيبة "إذ رأيا في صدور الناووس

---

(١) المصدر السابق ق ١٠/ أ.

(٢) انظر المصدر السابق ق ١٠/ ب.

(٣) المصدر السابق: ق ١١/ ب.

سراجين يقدان... فعلما أنه وحش... فقاما يتبعانه، ويخوفانه ويروعانه إلَى أن وصل إلَى شق منه دخل، وخرج منه هارباً ولم يخل، فجاءا إليه فتأملاه..." [1]. وبعد خروجهما – وهما لا يكادان يصدقان ما حدث – ذهبا إلَى الساحل بعد أن أخذا كثيراً من الأموال من المقبرة، والتقيا بأهل سفينة كانت متوجهة إلَى ساحل عمان، ولما وصلا إلَى عمان انتقلا منها إلَى البصرة، ثم "قدم علَى أهله قدوم الغيث بعد الإمحال، وكانوا يعدّون سلامته من المحال، وتزايد شكرهم لله عز وجل وثناؤهم، وانقضى عنهم كربهم وعناؤهم، ونقلوا تلك النفائس والأعلاق، وجعلوا دونها الأقفال والأغلاق، وعملوا له عرساً حافلاً..." [2].

فهذه المقامة أكثر قرباً من النهج القصصي والبناء الدرامي للأحداث من سابقتها، علَى الرغم من دوران كثير من أحداثها حول أمور غريبة وأساطير عجيبة تكررت بعد ذلك في المقامة السابعة، الفارق هو أن أحداث المقامة الرابعة حدثت في الهند والمقامة السابعة وقعت أحداثها في بلاد الروم، وتلك الأساطير تشير إلَى أن الرجل يدفن مع زوجته إذا ماتت قبله وتدفن هي معه إذا مات قبلها. ولكن العباسي غير من طريقة عرض الحكاية في المقامتين، وغيّر كذلك من موقف البطل داخل المقامة، فالبطل في المقامة الرابعة عندما كان يقتل كلّ من يدخل إلَى المقبرة يفعل ذلك تقرباً إلَى الله، يقول العباسي: "فعاش علَى ذلك مدة وأشهراً عدة، لا يعوزه مأكل بها ولا مشرب، وهو بقتلهم إلَى الله تعالى يتقرب." [3]. وفي المقامة السابعة كان البطل داخل المقبرة يقتل من يدخل عليه اضطراراً من أجل البقاء فقط، وهو يعلم أن فعله هذا غير مقبول، يقول العباسي: "فإن كان الحيّ رجلاً قمتُ إليه وقتلته وأعدمته من الحياة واغتلته، وإن كانت امرأة تولّت هي قتلها، واغتيالها وختلها، غيرةً مني ومنها أن يكون معنا من يوتر شفعنا وطمعاً فيما يكون معهما من القوت، وإن كان ذلك الفعل هو المبغوض الممقوت..." [4].

وبما أنّ الحديث قد أتى إلَى المقامة السابعة فأود أن أشير إلَى أمر مهم وهو أنّ الدكتور خالد الجديع عندما استعرض مقامات العباسي القصصية توقف في استعراضه عند المقامة السادسة ولم يعرّج علَى المقامات الأربع الأخيرة – وبحكم دراسته المسحية فهو غير

---

(١) المصدر السابق: ١٢/ أ.

(٢) المصدر السابق: الورقة نفسها.

(٣) المصدر السابق: ١١/ ب.

(٤) المصدر السابق: ١٧/ أ.

ملزم باستعراضها جميعاً –، ولكنه حكم بعد المقامة السادسة عَلَى أن مقامات العباسي القصصية لا تحمل قيماً أخلاقية، إذ قال: "وهكذا تسير بقية مقامات العباسي عَلَى هذا النمط، تروي القصص الغريبة العجيبة، ولعلك لحظت أنَّ مقامات العباسي لا تحتفي بأية قيمة أخلاقية، ولا يهدف كاتبها إِلَى توصيل أي معنى إنساني نبيل، وإنما الهدف هو الإتيان بالغرائب"[1].

وهذا الحكم يمكن قبوله عَلَى بعض المقامات ومنها المقامة الرابعة، لكنّ المقامات الأربع الأخرى التي لم يعرض الدكتور خالد الجديع أحداثها ولا أفكارها حفلت بكثير من المعاني الأخلاقية، فالمقامة السابعة عَلَى سبيل المثال التي أشبهت المقامة الرابعة في بعض أحداثها، تحول الحدث الدرامي في نهاية الحكاية إِلَى خروج ذلك الرجل من المقبرة وانتقاله إِلَى بلاد الروم، وتدور الأحداث وتنعقد بينه وبين البطل في المقامة – وهو قباث بن رزين اللخمي – صحبة، ثم يعجب ذلك الرومي باللخمي فيدعوه لمناظرة بطارقة الروم، لما رأى أن الروم يحتقرون العرب، "قال، فلما دخلت عَلَى الملك استدناني وقرّبني ومنّاني، وقال ناظر هؤلاء البطارقة بما أوتيته من العلم، فإنا لا نعاملك إلا بالحلم. فقلت إني لا أرضى لنفسي إلا مناظرة البطرك الكبير صاحب الرأي والتدبير. فلما حضر التفتُّ إليه وسلّمت عليه، ثم قلت له: يا شيخ كيف أنت؟! فقال: في عافية ونعمة غير خافية. فقلت: كيف حال ولدك وحشاشة كبدك؟ فتضاحك البطارقة، وقالوا: زعم البطريق – يعنون صاحبي – أن هذا له عقل وفهم، وقد وفر له من الأدب السهم، وهو لا يعلم بجهله المركب، وعقله الذي عدل به عن الصواب ونكب، أنَّ الله قد صان البطرك عن الأولاد، ووفر سهمه من طارف العلم والتلاد. فقلت لهم: كأنكم ترفعون البطرك عن نسبة الولد إليه، وأن يكون ذلك وصمةً عليه. فقالوا: إنَّا لنرفعه عن ذلك إذ الله عنه رفعه، وأجلَّ قدره عنه وما وضعه. فقلت: واعجباً! أتجلون عبداً من عبيد الله عن الأولاد، ولا تجلّون الله الذي خلق العباد والبلاد؟

قال: فنخر البطرك نخرةً أزعجتني وأخافتني وروعتني، ثم قال: أيها الملك أخرج هذا الساعة عن بلدك لئلا يفسد عليك أهله، ولا تعط في ذلك تهاوناً ولا مهلة...."[2].

فالراوي هنا قدّم لنا في نهاية المقامة معنى نبيلاً، وقيمة مهمة في عناصر الإقناع، ومدخلاً

---

(١) المقامات المشرقية: ١٢٧.

(٢) المقامات العشر ١٨/ أ.

مهماً من المداخل لإبراز المغالطات في الفكر النصراني، من خلال المقارنة بين زعم البطارقة الأنفة من اتخاذ الولد، بينما هم لا يستنكفون من إلصاق الولد بربهم، عن طريق الحوار والمفارقة وليس الوعظ والحديث المباشر.

وتحمل المقامة العاشرة أرقى القيم الأخلاقية من خلال تعزيز قيمة الوفاء حين يقوم البطل بمكافأة من أسدى له معروفاً يوما ما بطريقة خفية حتى لا يجرح مشاعره، ويحاول التخفي منه حتى يزول عنه أثر الوعثاء والسفر، لأنه لا يريد رؤيته عَلَى حالٍ من الضعف، وختم المقامة بقوله: "يا أخي إنّي لم أُعرض عنك حين رأيتك لجفوة فلا تُعدها عليَّ هفوةً، ولكنّي ما أحببتُ أن أراك إلا عَلَى حالتك المعهودة وهيئتك الحسنة المشهودة، فأرسلتُ وراك من عرف مثواك، والمكان الذي آواك ووجّهت إليك الوالدة ففعلت ما فعلت، وقد التهبت نارُ أشواقي إليك واشتعلتْ، وصبرت نفسي عن لقائك إِلَى أن عُدْتَ إِلَى سموك وارتقائك، وهذه الدار بما فيها من قوادمها وخوافيها وتلك الأموال والأعلاق التي وضعت عليها الأغلاق ملكٌ لك... ولا أقول إني وفيتُ بعض حقوقك ولا خرجت بهذا البرّ من عقوقك لأنك ابتدأت بالجميل: وكنت الكفيل لدفع ضرّي والحميل، فأيُّ فعلٍ لفعلك يوازي؟ وأي جزاءٍ له يجازي؟ ولكني أكِلُ جزاءك إِلَى من يعلم السِّر والنجوى، ويكشف الضر والبلوى...."[1].

فمعاني الوفاء وردّ الجميل التي ختمت بها المقامة العاشرة من خلال النص السابق غير خافية، ولا يمكن تجاهلها، وروعتها أنها تأتي موحىً بها من خلال الأثر ، ولا تعتمد عَلَى الوعظ والتذكير الخطابي، عَلَى أنه لم يفت الراوي أن يعلق في ختام المقامة وبعد انتهاء الحوار بين البطل والتاجر، حيث يقول: "فلم يُسمع بأعجب من خبرهما، ولا أغرب من سَمرِهما، ولعمري إنهما لأحقُّ بقولِ من أنشد وهدى إِلَى فعل المعروف وأرشد:

قل لبني الدنيا: ألا هكذا فليفعل الناسُ مع الناسِ"[2]

ثالثاً: الأداء الفني:

بتأمل الأداء الفني في المقامات العشر لعبدالرحيم العباسي نلمح عدداً من السِّمات في بناء المقامة لديه، ومن أبرز هذه السِّمات تداخل الأجناس الأدبية في مقاماته، فبناء المقامة عنده يستوعب كثيراً من الأجناس الأدبية، وبخاصة الشعر، إذ لا نكاد نقرأ مقامة من مقاماته

---

(١) المصدر السابق: ق ٢٣/ أ.

(٢) المصدر السابق: الورقة نفسها.

العشر دون أن نجد فيها شعراً، سواء أكان ذلك عَلَى شكل شذور متفرقة داخل المقامة أم خاتمة تعضد النتيجة التي أراد الوصول إليها.

ولا غرابة في ذلك، فالمقامة ذات صلة واضحة بسائر الأجناس الأخرى، فهي تنفتح عَلَى أجناس السرد الذاتي، وتحتضن مقاصد الخطابة والشعر، ولما كانت أجناس القول وفنون الكتابة في كل ثقافة تؤلف نظاماً أدبياً نسميه أدب تلك الثقافة، فإن دراسة أي جنس من الأجناس ليست في الحقيقة إلا دراسة عنصر من عناصر ذلك النظام، وهي تقتضي من الباحث أن ينظر في مختلف العلاقات التي تربطه بسائر العناصر، وتفسر نشأته، وتطوره، وخصائص مضمونه وشكله.

وقد استنتج دارسو المقامات أنَّ هذا الجنس الأدبي جاء تتويجاً لتفاعل بين أجناس عديدة، فالمقامات في رأيهم نقطة التقاء صناعتي النظم والنثر، ويُعد السجع، وهو عماد الكتابة في المقامة، حلقة وصل بينهما، فهو أحد أنواع الكتابة النثرية في الخطبة والرسالة والوصية، وفي غيرها من الأجناس النثرية، ولكنه قريب من الشعر، بموازناته الصوتية، كما أنَّ سائر المحسنات البديعية تقرّب المقامة من الشعر.

يقول الدكتور/ صالح بن رمضان: "ويعتبر النقاد أن التداخل بين بلاغة الشعر القائمة عَلَى الصورة وعَلَى موسيقى الوزن والقافية وبلاغة الكتابة القصصية في المقامة يعكس رغبة الكتاب في الجمع بين هاتين الصناعتين في جنس أدبي واحد"[1].

وقد برع عبدالرحيم العباسي في هذا من جانبين اثنين، ومن خلال مستويين مختلفين، أولهما كثرة إدراج الشعر ضمن سياق النص المقامي، وثانيهما الكتابة النثرية بلغة شاعرة من خلال الإفادة من الصوت الشعري المتمثل في أقرب أدوات النثر منه وهو السجع والتوازن في فواصل الكلام ومقاطعه، وسأعرض هنا لهذين الجانبين كتدليل عَلَى هذا التداخل في صناعة بناء المقامة، من خلال نص واحد ففي المقامة الثانية يرد السياق في حديث العباسي عن قيمة المال عند عامة الناس قائلاً: "ومن خلا إناؤه طال عناؤه، ومن جفّت أنداؤه قلَّ أُودَّاؤُهُ، ومن فرغ وطابه لا يسمع خطابه، ومن ذهب ماله قبح جماله، ومن أقفر ناديه أعرض مناديه، فالدرهم والدينار بهما يُدفع الشَّنار، ويرفع المنار، وتُقضى الأوطار، وتمنع الأخطار:

---

(١) الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، مشروع قراءة شعرية، للدكتور/ صالح بن رمضان، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٧م: ٩٠.

لـيس سـوى الـدرهم مـن صـاحبِ ... فكـم عليـه – الـدهرَ – مـن ناحـبِ
فالحـازمُ الـرأي الَّـذِيْ لـم يـزلْ ... لـهُ – مـدى الأيـام – بالـساحبِ
فهـوَ بـه يـصبحُ رحْـب الفِنـا ... ومـنْ عليـه اليـسْرُ بالواجـب
وهـو لـدى النـاس رفيـع الـذُّرَا ... بـادي الـسنا، ذو الـسنن اللاحـبِ
ووجـهُ مـن يفقـدهُ لا يُـرى ... إلاَّ بلـون الأغبـرِ الـشاحبِ[1]

إنَّ هذين المساقين في خطاب المقامة لتأكيد معنى واحد جاء من خلال سياقين: الأول منهما في عرف النقاد ومحددي الأجناس الأدبية نثر، ولكن رأينا كيف أنه لم يكن مجرداً من موسيقية الشعر وبلاغته المتخيلة، فالموازنات الصوتية من خلال التوازن هنا ارتقى به ليكون قريباً من الشعر "ومن جفت أنداؤه قلَّ أوداؤُهُ، ومن فرغ وطابه لا يسمع خطابه..."، النثر هنا يقتحم عَلَى الشعر أبوابه، فلو قارنّا بين بلاغة تلك الأسطر الثلاثة في التدليل المعنوي والأداء الفني التصويري والموسيقي لقيمة المال عند مالكيه، وتأثر من فقده وخلت منه يده، وبين ما ورد من المعاني نفسها في الأبيات الخمسة، في نظري أن قدرة عبدالرحيم العباسي عَلَى الوصول بالمعاني في الأسطر النثرية إِلَى مرحلة عليا من الإبداع والتخييل وتكامل الأدوات الفنية منها في الشعر الذي أكد به تلك المعاني، فهو وإن حاول عضد النثر بالشعر إلا أنَّ سطوة النثر وجماله قد فضحا مستوى تعبير الشعر عن تلك المعاني المقصودة.

إن العباسي في تلك الجمل المتوازنة في الأسطر الثلاثة النثرية يحاول – بعد كل جملة – أن ينتقل إِلَى الشعر ولكنه يتريث إذ فضاء النص لم يستكمل بعد، فيستهويه النثر، فلا يصل إِلَى الشعر إلا وقد استنفد قواه التصويرية واللغوية فكان الشعر أقل تمثيلاً للمعنى عما سبق من خلال النثر، فالعباسي أفرغ شاعريته في النثر قبل أن يصل إِلَى الشعر، فكان شعراً حقيقياً وإن كان نثراً في ظاهره، ولو خلا من القوافي المتصلة بتفاعيل الخليل الموزونة المعبّر عنها بنظام البيت، فهذا التداخل بين الأجناس من خلال نص المقامة لدى العباسي وغيره هو تمثيل لنظام ما يسمى بالحوار بين الأجناس داخل السياق، وأظنّ أن دارسي التوازن والسجع قد جنوا جناية كبرى عليهما عندما أوهمونا بأنهما قيدان ثقيلان عَلَى النص، ولو أنهم عدُّوهما مثلا مرحلة من مراحل تطور الأجناس الأدبية في اقتراب بعضها من بعض، وأن هناك أدباء استطاعوا تمثيل هذا التقارب في مرحلةٍ ما، لكان في ذلك خير كثير،

---

(١) المقامات العشر: ٦/أ.

وإنصاف لا ينكر.

ورغم أنّ هذه الأشعار – وهي كثيرة في مقامات العباسي – ظلت تعطي صورة كونها امتداداً للنثر: تفصيل الوصف / استكمال رسم الصورة / المساهمة في الإيقاع الموسيقي، فإن حرص المقطوعة على إيرادها متوازية مع النثر، وبطريقة تناوبية جعلها تخرج من إطار النموذج (المساعد) أو النموذج (الاستشهاد) إلى أن تشكل مع الكلمات النثرية المعبَّر بها خطاباً معرفيًا، فتكون أداة بنائية في المقامة.

وضمّن العباسي مقاماته أجناساً أخرى مهمة كالمثل والحكمة، و هما الجنسان الأكثر وجازة بين أجناس الأدب، فكان حضورهما اللافت في المقامة عند العباسي وغيره مشهداً آخر مهماً علَى حاجة الأجناس بعضها إلَى بعض في تمثيل نظام اللغة والتصور التعبيري الذي لا يضع حدوداً فاصلة بين الأجناس.

وهذا اللون من التداخل هو ما يعرف في المصطلح الأدبي القديم بـ"التضمين"، وفي المصطلح الأدبي المعاصر بـ"الشاهد الأدبي"، وهو: مقطع من نص يؤخذ من سياقه الأصلي ويدرج في سياقٍ آخر بطريقة ما، لتحقيق وظيفة ما، فهو نقطة تقاطع بين نصين مختلفين[1].

ففي المقدمة يقول: "ليقلّ همّك، فربّ أخ لك لم تلده أمك..."[2]، ويقول: "وأنى لجهينة هذه الأخبار، وقريب العهد بهذا الاختبار... وهو يظهر رغبة في المودة وابتغاء، ويسرّ حسواً في ارتغاء، ويتلون تلوّن الغول..."[3].

وكانت القصة أكثر الأجناس الأدبية ظهوراً في بناء مقامات عبدالرحيم العباسي، وقد جعل بعض الباحثين العباسي أنموذجاً لطغيان هذا الجنس علَى نمط المقامة، يقول الدكتور خالد الجديع: "فإنّ القصة المقامية لم تنحسر مقابل هذا المد المتنوع من الأجناس الأدبية، بل ظل كثير من المقامات يحمل الطابع القصصي، وربما حلق الخيال القصصي بعيداً نحو الأساطير والأعاجيب والغرائب، ولعل أبرز رواد هذا الاتجاه هم ابن ريان وعبدالرحيم العباسي والقواس الحلبي"[4].

ولا يمكن أن أغفل هنا الخلاف الكبير بين النقاد حول قصصية المقامة بين منكرٍ أشد

---

(١) انظر: الشواهد في العربية، لمحمد اليعلاوي، منشورات كلية الآداب، منّوبة، تونس، ١٩٩٠م، ٣٦-٣٧.

(٢) المقامات العشر: ق ٢/ أ.

(٣) المصدر السابق ق ٢/ ب.

(٤) المقامات المشرقية: ٤٢٨.

الإنكار العلاقة بينهما، وبين من يرى أن المقامة قصة بكل ما تحمل من عناصر[1].

وإذا كان الإنكار ونفي العلاقة ربما يتوجه لكثير من المقاميين فإني أرى أنّ مقامات عبدالرحيم العباسي تحمل كثيراً من ملامح القص، وتشتمل علَى عناصر بناء القصة بأكملها المتمثلة في الراوي والزمان والمكان والحدث والشخصيات والحوار والسرد.

فالمتأمل للراوي في المقامات العشر يجد أنه غير محدد الاسم، متغيّر من مقامة لأخرى، ففي المقامة الأول يقول العباسي: "قال بعضهم: ساقني القدر المحتوم، والغيب المكتوم من أرض الأراك والبشام..."[2]، وفي الثانية يشير العباسي إلَى الراوي بقوله: "حُكي أنّ بعض بني الآمال، أصبح صفر اليدين من المال، لا يملك بنت ليله..."[3]. وفي الثالثة يقول: "روي أنه كان بدار السلام بغداد تاجرٌ..."[4]، وفي الرابعة: "حكي"[5]، وفي الخامسة "روي"[6]، وفي السادسة: حدّث بعضهم قال..."[7] وهذه المقامة هي أول مقامة يتغير فيها نمط السرد ولو قليلاً ، ففي آخرها يقول: "وقال الراوي: فلما فرغ من قوله، وما قاساه من قسوة ذلك الظالم[8]. والمقامة السابعة يظهر لنا أول مرة اسم الراوي فيبدأ العباسي المقامة بقوله: "إنّ من عجيب الأسمار وغريب ما يتسامر به السُّمار ما حكاه قباث بن رزين اللّخمي عن نفسه، وما وقع له في أسره وحبسه..."[9].

ويعود في المقامة الثامنة إلَى أسلوبه السابق من إغفال اسم الراوي فيقول: "ذُكر أنه كان..."[10]، وفي التاسعة يقرب الراوي قليلاً فيقول: "قال لي بعضهم..."[11] وقريب منه يأتي

---

(١) لاطلاع أوسع علَى هذا الخلاف انظر: فن المقامات في الأدب العربي، للدكتور عبدالملك مرتاض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٨م: ٤٧٣ – ٤٧٩. والمنامات الأيوبية: روافد التلقي – الرؤية الفكرية – البنية السردية، للدكتور خالد الجديع، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مجلة الحكمة – جامعة مؤتة، الأردن، المجلد ٣، العدد ٣، جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، تموز ٢٠٠٧م: ٤٦–٤٧.

(٢) المقامات العشر ق ٤ / أ.

(٣) المصدر السابق ٦ / أ.

(٤) المصدر السابق ٧ / أ.

(٥) المصدر السابق ق ٩/ب.

(٦) المصدر السابق ١٢/ أ.

(٧) المصدر السابق ق ١٤/ أ.

(٨) المصدر السابق: ق ١٥/أ.

(٩) المصدر السابق ق ١٥/ أ

(١٠) المصدر السابق ق ١٨/ أ.

(١١) المصدر السابق ق ١٩/ ب.

السياق مبهماً الراوي في المقامة العاشرة حيث يقول: "حدّثني رجلٌ من أعيان البصرة، قد حباه الله توفيقه ونصره..."[1].

والراوي عنده يروي المقامة دون الظهور داخلها أو المشاركة في أحداثها في أكثر مقاماته، وأحياناً يذكّر به عبدالرحيم العباسي، لئلا يطول الفاصل عَلَى القارئ، فيشير إليه بدون أدنى محاولة لتقريبه كما ظهر قبل قليل عند الإشارة إِلَى ذلك في المقامة السادسة[2].

ومن المقامات القليلة التي شارك الراوي في بعض أحداثها المقامة الأولى، فالراوي يرى أحد الشحاذين، وعليه من دلائل الحرمان والفقر ما عليه، في ليلة شاتية، وجميع المعطيات والأدلة تشير إِلَى ضعفه، وذلته، وتوحي بصدقه، فتبرز لنا فراسة الراوي، فيشك في الشحاذ، وتنتهي المقامة بتصديق حدسه وفراسته، بعد متابعته والدخول إِلَى داره، وسماع قصته وأخباره، يقول العباسي مصوراً بعض ما قام به الراوي: "فأكلتُ معه أكل من أرهقه الحياء، وأوثقه الاستحياء، لعلمي بوخامة تلك المرابع، ولم يكن معنا ثالث ولا رابع، وحين استوفينا ما قُدّر وقُضي، وأُعجب بموافقتي ورضي، سألتُه أن يُريني من حيله، وعجائب عمله، ما أوثره عنه وأنقله، وأتعقله منه وأعقله، فقال: صلِّ غداً في المسجد الجامع، وتأمل ما يقع من المعامع، فإنك تشهد من العجب ما لم يأتِ مثله في رجب، فبكرتُ بكور الغراب..."[3]. ونلحظ هنا محاولة الراوي وصمه لما فعله البطل بـ"وخامة" وهو هنا يحاول أن يقف موقفاً أخلاقياً من تلك الحيل والطريقة التي احتال بها ذلك المكدي. وتكرر هذا الموقف من الراوي في هذه المقامة، وذلك في آخرها، حيث حاول أن يكون بعيداً عن مشاركة البطل في ما جناه من أموال عن طريق الخداع بعد أن انثالت عَلَى المكدي الأموال والنفائس من جماعة المسجد، فقال: "وأخرج تلك اللُّقطة بعينها، وجوهرها ولُجينها، وعَرَض عليَّ ما استجداه، وما ظفرتْ به يداه، فإذا هو يفوق الحصر والإحصاء، ويعجز العد والاستقصاء، وعرض لي منه بنصيب، فآليت ألا أنال منه ولا أصيب، وعجبت من هذا التغريب والترتيب الغريب، فقال لي: لا تعجب لما رأيت..."[4].

والزمان والمكان بكونهما ركنين في بناء القصة قد أولاهما عبدالرحيم العباسي داخل مقاماته عناية لا بأس بها، ولاسيما الزمان الخارجي، فهناك مقامات ربط العباسي أحداثها

---

(١) المصدر السابق ق ٢٠ / ب.

(٢) المصدر السابق ق ١٥ / أ.

(٣) المصدر السابق ق ٥ / أ.

(٤) المصدر السابق ق ٥ / ب – ٦ / أ.

بوقائع زمانية، فالمقامة الخامسة أوحى وصف الراوي ما مر به البطل من نقلاتٍ مفاجئة من حياته، بأن أشار إلَى أنه وصل إلَى بغداد والحاكم آنذاك أبو جعفر المنصور، فيقول: "ثم إنه أفاق بعض الإفاقة وهو علَى غاية من الفاقة، فأشير إليه بقصد بغداد دار السلام، فرآه من سديد الكلام، فوجّه إليها مسراه، وواصل نحوها سُراه، وكان إذ ذاك في ريعان الشباب... وجباه الملوك في إثرها تعفّر، بدولةٍ بانيها الخليفة المنصور أبي جعفر..."[1].

والمقامة السابعة صرّح البطل – حينما روى بنفسه للراوي – بزمن وقوع الأحداث التي كوّنت سرد المقامة قائلاً: "ما حاكاه قباث بن رزين اللخمي عن نفسه، وما وقع له في أسره وحبسه، قال: أُسرتُ في خلافة معاوية عند كلاب الروم العاوية..."[2].

وأكثر مقاماته وقعت في زمن محايد لا يمكن تلمس معالمه أو الإفادة منه في لملمة شيء من الأحداث أو الاحتفاظ ببعض المؤثرات التاريخية التي يحملها الحدّ الزمني المهم لفهم أي حدث، بل إنّ هناك أحداثاً في بعض مقامات عبدالرحيم العباسي حدثت في زمن خرافي مرافق لحدث خرافي، لا يمكن أن يكون محدوداً في الزمن العادي، ولكنه لا يسيطر علَى كل أجزاء المقامة وإنما تحمله بعض مواقفها الزمنية، وأحداثها الجزئية، ومن ذلك مثلاً المقامتان الرابعة والسابعة اللتان تتحدثان عن أحداث خرافية تحدث داخل المقبرة، ويحكي فيها البطل ما حصل له من وقائع تروي خرافة متخيلة، لا يمكن أن تقع زمانياً، وإنما هي متخيّل ذهني من قبل الراوي، وقبل ذلك في ذهن عبدالرحيم العباسي، والزمن لا يمكن له أن يستوعبها أو يؤطرها.

أما المكان فقد كان أكثر بروزاً في سائر مقامات عبدالرحيم العباسي، وبروز المكان في مقاماته أخذ أشكالاً عدة، وليس بالضرورة أن يكون عنوان المقامة محدداً المكان حتى يقال إن المقامات قد تحدد المكان فيها، فقد أشار أحد الباحثين إلَى أن العباسي لم يضع أسماء ألبتة لمقاماته[3]، وإن كان هذا صحيحاً في ظاهر الأمر، لكنّ العباسي قد أشار في كل مقامة إلَى مكان حدوثها، فالمقامة الأولى دارت أحداثها في بلاد الشام، وهذا يظهر من أول سطر في المقامة، يقول العباسي: "قال بعضهم: ساقني القدر المحتوم، والغيب المكتوم، من

---

(١) المصدر السابق ق ١٣/ ب.

(٢) المصدر السابق ق ١٥/ أ.

(٣) انظر: المقامات المشرقية، للدكتور/ خالد الجديع: ٤٥٣.

أرض الأراك والبشام إلَى أن حللتُ بالشام، فأقمتُ بها مدة مديدة..."[1]. ويرافق هذا الشكل سائر المقامات، فالثالثة جاء فيها: "روي أنه كان بدار السلام بغداد تاجر..."[2]، وفي المقامة الرابعة يقول: "حكي أنه كان رجل من تجار البصرة، قد وضع الزمان عنه إصره..."[3]. والخامسة يبدأها بقوله: "روي أنه كان بحمص الشام شابٌ كثير الوقار والاحتشام..."[4].

وبعد المقامة الخامسة نلمح ظاهرة جديدة تمثلت في تهميشات المؤلف بجوار أول سطر من كل مقامة بذكر المكان الذي حدثت فيه، فالمقامة السادسة التي بدأها العباسي بقوله: "حدَّث بعضهم قال: كان في جواري بواسط شابٌ حسنٌ ذو بلاغةٍ ولسن..."[5]، كان التهميش بـ "الواسطية"، فهل هذا هو عنوانها عند كتابتها، أو أنه استدراك من المؤلف بعد ذلك احتفاءً بالعنوان المكاني، ومسايرة لكثير من المقاميين الذين احتفوا بعنونة مقاماتهم سواء مكانياً أو زمانياً أو بوصلها بحدث من أحداثها عن طريق العنونة به[6].

وقد حاول العباسي في كثير من مقاماته وصف المكان بتفصيلاته، محاولاً إعطاء المكان حضوره الفاعل في تقريب المشهد، ودعم متابعة الأحداث، فمن ذلك وصف العباسي لرحلة البطل في المقامة العاشرة قائلاً: "وكان من قضاء الله المحتوم، وسرٍّ غيبه المكتوم أن قوى في عقله الرصين السفر إلَى الهند أو الصين لنفوذ الأقدار وما يجري به الفلك المدار، فشحن الفُلك بأنواع التجارة، وفارق وطنه ووجاره، وركب ثبج البحر الزخَّار بعد أن استجار واستخار، واستمر به السير والريحُ رُخاء، والوقت رَخاء، والأمواج تحمل الفلك وتضعه، والهواء يخفضه ويرفعه إلَى أن قربوا من برّ مدنِ الهند المعهودة، وأجلِّ أقاليمه المشهودة..."[7]، وعندما دخل البطل المدينة الهندية المقصودة كان للمكان حضوره، فأخذ الراوي يصفه بكل تفصيلاته، مصوراً أثره علَى نفسية البطل، فقال: "فأخذ يتخلل سكك المدينة، ويتعجب من محاسنها المستبينة، ووضوح قدمها، ورسوخ قدمها، وبهجتها وانفراجها، وسموّ قللها

---

(١) المقامات العشر: ق ٤ / أ.

(٢) المصدر السابق ق ٧ / أ.

(٣) المصدر السابق ق ٩ / ب.

(٤) المصدر السابق ق ١٢ / ب.

(٥) المصدر السابق ق ١٤ / أ.

(٦) وكذلك فعل العباسي في المقامات التالية: فالمقامة الثامنة سمّاها "البغدادية"، المقامات العشر، ق ١٨ / أ، والمقامة التاسعة (المصدر السابق ق ١٩ / ب)، سمّاها "القسطنطينية".

(٧) المصدر السابق ق ٢١ / أ.

وأبراجها، ورونق رياضها، وتذلل الهموم لفرجها وارتياضها، واتساع جنباتها وأفنائها... وإيناع حدائقها المجددات، وإحرام حجيج الأنس من ذلك الميقات..."[1].

ولا أريد الاسترسال كثيراً في بيان ما قام به تنوع المكان من وظائف مهمة في مقامات العباسي من قيادتها إلَى النجاح، وتغيير المشاهد الذي يضفي حيوية عَلَى المقامة، ويشي بحركية واضحة، فمقامته الأولى –مثلاً– تعددت فيها اللقطات المتصلة بالمكان من منزل الراوي إلَى الشارع الذي قضى فيه الشحاذ سحابة يومه، إلَى قصره ثم بعد ذلك المسجد، ثم العودة إلَى قصر الشحاذ المحتال مرة أخرى[2].

والحدث في مقامات العباسي كثيراً ما كان منبع الإثارة فيها، والمسيطر عَلَى روحها، ولم تكن مقاماته سائرة عَلَى نهج واحدٍ في أحداثها، وطريقة عرضها، وتفاعل الشخوص فيها، فالحدث وإن جاء في أكثر المقامات ممكن الوقوع كما هو الحال في المقامتين الأولى والعاشرة مثلاً، فإنه قد جاء – أي الحدث – في بعضها محض خيال، أراد العباسي إقناعنا به من خلال حشد الدلائل عليه كما هو الحال في بعض أحداث المقامتين الرابعة والسابعة، حيث يذكر أنَّ البطل يعيش داخل مقبرة فترة طويلة من الزمن – غير واضحة المعالم – تنفيذاً لاعتقاد أهل البلاد التي حلَّ بها – في الرابعة " الهند" وفي السابعة "بلاد الروم" – وهو أن يدفن الحيّ مع قرينه وشريكه في عش الزوجية بعد وفاته، وتتوالى الأحداث الصغيرة داخل الحدث الكبير إلَى أن يجد البطل مخرجاً من تلك المقبرة، وإن كانت طريقة الخروج من المقبرة في المقامة السابعة يمكن وقوعها عقلاً بخلاف المقامة الرابعة، التي يقول فيها: "فبينا هم كذلك إذ رأيا في صدور الناووس سراجين يقِدَان، فجلسا من الخوف يرعدان ثم سمعا صوت عظام تقضم، وتفض عرى التئامها وتفصم، فعلما أنه وحش توصل إلَى هذا السرداب، وأيقنا من الفرج بالاقتراب، فقاما يتبعانه ويخوفانه ويروعانه إلَى أن وصل إلَى شقٍ منه دخل، وخرج منه هارباً ولم يخل، فجاءا إليه فتأملاه، وتحقق ما ترجّياه من الخلاص وأملاه..."[3]، فالعباسي أراد إنهاء الحدث هنا بطريقة غير مقنعة، أهم شيء لديه هو إخراج البطل وزوجة الملك من القبر بأي طريقة.

---

(١) المصدر السابق: الورقة نفسها.

(٢) انظر: المصدر السابق ق ٤ / أ – ٦ / أ.

(٣) انظر المقامات العشر "المقامة الرابعة" ق ١٢/ أ.

وهناك مقامات بُني الحدث فيها عَلَى محض الصدفة كما هو الحال في المقامة السادسة التي يخرج فيها البطل من منزله ليلة ولادة زوجته ويغادر المدينة هارباً بعد أن لم يستطع أن يقدم لزوجته طعاماً يخفف عنها ألم الولادة والبرد والجوع، حيث مال به السير إِلَى زقاق طويل في صدره باب مفتوح، فلما دخله وجد رجلاً يصنع طعاماً، تعرف عليه ثم توالت الأحداث بشكل مفاجئ إِلَى أن جاء رجل يحمل كيساً فيه أموال، وحدث نزاع بين الرجلين (الطباخ وحامل الكيس) أدى إِلَى قتل أحدهما، ثم اغتنم البطل الفرصة وسرق الكيس، وجاءه السعد، وحل بساحته الغنى[1].

وأحياناً لا يستطيع العباسي متابعة الحدث في المقامة، أو إتمام روح الإثارة المتوقعة، فيأتي الحدث بارداً، ولا سيما في إنهاء الحكاية بطريقة غير متوقعة، بل وعفوية كما هو الحال في المقامة الثانية، حيث كان المتوقع أن يثير عثور الرجل عَلَى المال في قصر والد زوجته شكوكها، ويدعوها للوقوف منه موقفاً عدائياً بعد أن خدعها لسنواتٍ طويلة، يأتي الحدث وإتمام المقامة بشكل غير متوقع، إذ ترضى الزوجة، وتوافق عَلَى ما حدث – وهذه طريقة العباسي إذ يحاول دائماً أن يختم مقامته بانتصار الخير، وحدوث ما يقود إِلَى الرضا والنجاح –، فيقول في ختام تلك المقامة: "وفتحا ما كان هناك من الأزيار، فإذا هي مملوءة من الذهب الوافي العيار، ووجد في بعضها رقعة مختومة، تدل عَلَى حكمة مكتومة، ففتحاها، فإذا هي محتوية عَلَى عدة تلك النقود، وفيها اسم أبيها المفقود، فتزايد الفرح، وتزايل الترح، وزادا ارتياحاً وانتعاشاً، وارتفقا بذلك مدة ما عاشا، إِلَى أن فرّق بينهما الموت، وعمهما الفقد والفوت"[2].

وإن كان العباسي هنا قد أخفق – في نظري – في إتمام الإثارة، فإنه قد نجح في المقامة العاشرة عَلَى الرغم من استدعائه للحدث الرئيس فيها من حكاية مشهورة أوردها الجاحظ في "البخلاء"، ولكن العباسي نجح هنا في تغيير بنية الحدث من خلال التغيير غير المتوقع للنهاية والخاتمة.

فقد أورد الجاحظ في البخلاء قصة التاجر المروزي الذي كان يحج كل عام، ويمر في طريقه بالعراق عَلَى تاجرٍ عراقي، فكان هذا العراقي يكرمه ويستضيفه في طريقي الذهاب

---

(١) انظر: المصدر السابق ق ١٤/ ب – ١٥/ أ.

(٢) المصدر السابق ق ٧/ أ.

والعودة، وكان المروزي كثيرا ما يقول له إنه يتمنى منه أن يزور خراسان ولو مرة واحدة ليرد له الجميل، ويشكره عَلَى معروفه المتكرر، وتدور الأحداث فيسافر العراقي يوماً إِلَى مرو، وكان مما هون عليه الذهاب مكان صديقه التاجر هناك، ولكن لما دخل العراقي مرو وبعد وصوله إِلَى صديقه أنكر هذا الأخير معرفته، وحاول العراقي بشتى الوسائل التعريف بنفسه، فنزع العمامة والقلنسوة والجبة ظناً منه أن هذه الملابس قد غيّرت شكله، ولكن تبين له أن هذا المروزي لا يريد أصلاً – لبخله – أن يعرفه، يقول الجاحظ: "وعلم المروزي أنه لم يبقَ شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل. قال: لو خرجت من جلدك لم أعرفك"[1].

هذا الحدث استغله عبدالرحيم العباسي في بناء الحكاية، التي تدور أحداثها حول تاجر من أعيان البصرة حسن الأخلاق عزم عَلَى السفر إِلَى الهند، فشحن سفينته بأنواع التجارة، وركب البحر، ولما كان في منتصف الطريق هاجت عليهم الريح فأغرقت سفينتهم، وتعلق هو بلوح خشبي من ألواح السفينة قاده إِلَى الشاطئ فقيراً لا يملك فتيلاً ولا نقيراً فدخل إِلَى المدينة الواقعة عَلَى ذلك الشاطئ، وهو يفكر في حاله وما إليه استحال، فإذا به أمام دار جميلة، وعَلَى بابها رجل نبيل تدل ملامحه عَلَى علو همته وكريم طبعه فتعرف عليه، وسأله عن حاله فقص عليه التاجر البصري القصة، فتألم الرجل الهندي لحاله، وواساه بما حضر لديه من المال، وأفرد له داراً متصلة بداره، وعاش في كنفه مدة طويلة، ثم إنه تشوق للعودة إِلَى وطنه ففجأه التاجر الهندي بالسماح له بالعودة وإكرامه بأن أعطاه سفينة كاملة محملة بالبضائع والعبيد هدية له، فعاد البصري إِلَى البصرة والتقى بأهله بعد أن أيسوا من عودته.

ودارت الأيام عَلَى التاجر الهندي حيث غضب عليه ملك قطره، وسلب منه كل أملاكه وأمواله، فعاد فقيراً بعد غنى، فخرج من المدينة خائفاً يترقب، وما زال يتنقل من مكان إِلَى مكان إِلَى أن دخل البصرة، فلما دخلها أيقن بالفرج لمكان صديقه التاجر البصري، وتدور الأحداث التي تصف مشهد اللقاء بين الرجلين، "فأوقع الله بصره عليه وهو جالس في حانوتٍ رحْب الفناء، عالي البناء، مملوءٍ من الأمتعة الثمينة... وفي خدمته غلمان... فتراءى له فلم يعره طرفاً وأراه نكراً لا عرفاً، فقال: لعله ما حقق معرفتي ولا أثبت صفتي، فتراءى له من غير ذلك الجانب وهو يحيد عنه ويجانب، فقال: لعل بعد العهد بالائتلاف أوجب هذا الصد والإخلاف،

---

(1) البخلاء، للجاحظ، ضبطه وشرحه وصححه أحمد العوامري وعلي الجارم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م: ٥٣ – ٤٥.

فوقف أمامه راجياً ذمامه، فتشاغل عنه بغيره، وأيأسهُ من برّه وخيره، فولى عنه ورجع بعد أن حوقل واسترجع نادماً عَلَى وضع الجميل في غير محلّه..."[1].

إن هذا الموضع من المقامة هو الذي تتقاطع فيه مع قصة الجاحظ في بخلائه، والجاحظ أنهى قصته بلوم التاجر العراقي نفسه عَلَى وضعه الجميل في غير موضعه مع التاجر المروزي. ولكن هل تنتهي الحكاية هنا عند عبد الرحيم العباسي؟ لقد استطاع العباسي أن يغير من نمط الحدث هنا في مقاماته، وينجح في توظيف الحوار بين النصوص ، حيث أخذ التاجر الهندي يتحدث مع نفسه عن سبب صنيع هذا التاجر البصري معه، وقاده الطريق وهو يفكر إِلَى مسجد، فدخله، وبينما هو غارق في تفكيره دخلت عليه المسجد امرأة، طالبة منه – إن كان يحسن القراءة – أن يأتي إِلَى منزلها ليقرأ القرآن في دارهم ليفوز بأجري الدنيا والآخرة. فلما قرأ في منزلهم أكرموه غاية الإكرام، وقدموا له لذيذ الشراب والطعام، وأعطته المرأة داراً يسكنها حتى يفرج الله حاله، ثم عرضت عليه في اليوم التالي الزواج بابنتها، لما رأت عليه من الخير والصلاح، فأخبرها أنه لا يملك مالاً يقدمه مهراً لابنتها، فقالت له: المال موجود، ودفعت ألف دينار وثياباً فاخرة، ثم تم الزواج، وأعطته المرأة بعد ذلك بضائع كثيرة يتاجر بها، فشكر هذا الصنيع منها، قال العباسي واصفاً ما آل إليه من بضائع وأموال حصلها من تلك المرأة وابنتها: "وعينوا له حواصل نقلت تلك الأموال إليها، ثم وضعوا وثيق الأقفال عليها، وسلموه مفاتيح تلك الأقفال، فكانت له كالغنائم والأنفال، وعمل دفتراً لذلك المال وحسبه بالتفصيل والإجمال، فإذا هو يزيد عَلَى ما ذهب إليه من أمواله المنهوبة، فرأى ذلك نعماً من الله موهوبة، ودخل إلى داره فرحاً... وعندما فرغ من العشاء، وصلى فرض العشاء إذا هو ببابٍ صغير فتح من جانب الدار، ودخل منه رجل جليل المقدار، فقام إليه حرمه متعجلين وهرولوا نحوه معظمين ومبجلين، فحقق النظر فيه، وإذا به ضيفه الذي أظهر له تجافيه، فقام إليه مقبلاً، وعانقه مقبّلاً..."[2].

إن ذلك المشهد تغيير لسياق حكاية الجاحظ في بخلائه، فهنا العباسي جعل التاجر البصري يجازي التاجر الهندي بإكرامٍ أكثر من إكرامه، ويرد له جميل فعله بوفاء عجيب، حتى وإن أظهر له عدم معرفته به لمّا جاءه في السوق أول وهلة، وقد علل له التاجر البصري

---

(١) المقامات العشر: ق ٢٢/ب.

(٢) المصدر السابق ٢٣/أ.

السبب الذي دعاه لإنكار معرفته لما دخل عليه السوق بتعليل عجيب، حيث قال: "يا أخي، إني لم أعرض عنك حين رأيتك لجفوة، فلا تعدّها علي هفوة، ولكني ما أحببت أن أراك إلاّ علَى حالتك المعهودة، وهيئتك الحسنة المشهودة، فأرسلت وراكَ من عرف مثواك والمكان الذي آواك، ووجهت إليك الوالدة ففعلت ما فعلت، وقد التهبت نار أشواقي إليك واشتعلت، وصبرت نفسي عن لقائك إلَى أن عُدْتَ إلَى سُمُوّك وارتقائك، وهذه الدارُ بما فيها من قوادمها إلَى خوافيها وتلك الأموالُ والأعلاقُ التي وُضِعَتْ عليها الأغلاقُ ملكٌ لك... ولا أقولُ إنّي وفيتُ بعض حقوقك ولا خرجت بهذا البِرّ من عقوقك لأنَّكَ ابتدأت بالجميل... فأيّ فعلٍ لفعلك يوازي؟ وأيّ جزاءٍ لهُ يجازي؟"[1].

فالعباسي هنا عزز من قيمة الوفاء ورد الجميل، منطلقاً من حكاية وضعت أصلاً في رسم قيمة تتضمن معاني تخالف المعاني التي طرقها،حيث حول العباسي المشهد من بخل إلَى كرم، ومن نكران للجميل إلَى وفاءٍ ، وقدم نصاً جديداً أفاد فيه من الحوار مع نص الجاحظ .

وقد نجح العباسي في المقامة العاشرة في رسم شخصية البطل، وحاول فيها كذلك أن يقوم بتوزيع البطولة عل أكثر من شخصية، حيث ظهرت شخصية التاجر الهندي بكل معالمها، سواء الشكلية أو من خلال تحريك الأحداث، وإبراز انفعالاته النفسية وحديثه الداخلي المتمثل في الحوار الذاتي، حيث اتضح ذلك مثلاً حينما وصل التاجر الهندي إلَى البصرة ولم يلق الحفاوة والاستقبال اللذين كان يتوقعهما من صديقه البصري، حدث نفسه بأحاديث وصفها العباسي قائلاً: "حوقل واسترجع نادماً علَى وضع الجميل في غير محلِّهِ، سادماً علَى إخصابه ربع سعادته بعد محْله، ثم يقول في نفسه: لعلَّهُ اشتبه عليَّ وخيَّلَهُ الفكر الفاسد إليَّ. ثم يرجع إلَى حِسِّهِ ويقول: إنَّهُ هو وإعراضه بعكس الطالع إلَى خوافيه"[2].

ويأتي الحوار في مقامات عبد الرحيم العباسي ضمن دائرة السرد، وليس مفصولاً عنها، فيكون الحوار – كما هو الحال في مقامته الأولى – بحضور الراوي، فيظهر كثيراً: فقال، وقلت، أو حكى، وما شابه ذلك، وأغلب الحوارات في مقاماته قصيرة، تظهر في فقرات يسيرة ثم يتوقف الحوار لتعود القيادة للراوي أو السارد، مثلما جاء في المقامة السابعة التي دارت أحداثها في بلاد الروم بين الرجل المسلم وبطارقة النصارى[3]. فالحوار في تلك

---

(١) المصدر السابق: الورقة نفسها.

(٢) المصدر السابق ٢٢/ب.

(٣) النظر: المصدر السابق ق ١٧/أ – ١٨/أ.

المقامة وفي غيرها من المقامات ارتقى بالأحداث، وصعد من العمل الدرامي في كثير منها، كما أنه كشف عن بعض مغاليق الشخصية فيها، وكان ذا أثر في فك بعض الطلاسم التي لم يستطع الراوي معرفتها أو الإحاطة بها، ومن ذلك قول الراوي في المقامة الأولى مخاطباً البطل: "يُريني من حيلِه، وعجائب عمله، ما أوثرهُ عنه وأنقله، وأتعقله منه وأعقله"[1]، فكان الرد من المكدي (البطل) عَلَى الراوي: "فقال: صلِّ غداً في المسجد الجامع، وتأمل ما يقع من المعامع"[2].

وبعد فالعباسي قدم مقاماته في أسلوب قصصي جذاب قائم عَلَى أدوات القص من حبكة وأحداث وشخصيات وحسن عرض وجمال تناول، ومفاجآت جاءت في أثناء عرضها، وقد نهج في مقاماته أسلوب السجع وبعض المحسنات، كما هو الشأن في سائر المقامات، ولكنه استطاع ببراعته وتمكنه من فنه النفاذ مما وقع فيه كثيرون من تكلف وصنعة لا يقبلها الذوق الرفيع، واستطاع – كذلك – السيطرة عَلَى توزيع ألوان البديع في ثنايا النص ببراعة واقتدار.

وقيمة مقامات العباسي تبدو أيضاً في تجديده في البناء الدرامي للمقامة، وعدم وقوعه في أسر الصنعة التي سار عليها كثير من المقاميين المتقدمين، وخروجه من نطاق الكدية التي أراد إظهار قدرته عليها، فبدأ بها مقاماته، ثم تركها في المقامات التسع التالية.

وتمكن العباسي من الولوج إِلَى مجتمع المقامة التي يتناولها، فاستطاعت المقامة أن تلج بنا مجتمع الناس، وجعلتنا نشاهد حركتهم وتفاعل بعضهم مع بعض في الشارع والمسجد والأسواق والأندية، والشخوص المختلفة من شحاذين وخطباء وتجار وملوك وعمال مقابر وملاحين وطهاة وغيرهم.

وصورت مقاماته كذلك حواراتهم ومجادلاتهم ودواخل ذواتهم وما يعتلج فيها من آمالٍ وأمانٍ وصراعات نفسية، وما يتردد فيها من طموح ووجل وخوف وإقدام، وإحساس بفقر أو بطَر، وحقدٍ أو حسد، وانتقام ومكافأة ووفاء.

وبهذا فمقامات عبد الرحيم العباسي جدير أن يحتفل بها، وأن يلتفت إليها، وأن تنشر عَلَى المتأدبين، وأن تتناولها أيدي الدارسين بالتحليل والنقد، ففيها كثير من مداخل السرد الأدبي، لا سيما الجانب اللغوي، حيث يمكن الوقوف على كثير من الظواهر اللغوية التي قد يتوصل

---

(١) المصدر السابق ق ٥ /أ.

(٢) المصدر السابق: الورقة نفسها.

الباحث من خلالها إلى بعض ملامح البناء اللغوي في القرن العاشر الهجري، ولا سيما إن سلِّطت عليها بعض الأدوات النقدية الحديثة التي يمكن أن تضع بين أيدينا معجم تلك الفترة وما وصلت إليه المفردة من تطور دلالي وبناءٍ تداولي، وهو ما لا يمكن الوقوف عليه في هذه الدراسة الموجزة المرافقة للنص المحقق، إنها تحتاج إلى وقفة متأنية أرجو أن تتاح لي قريباً بإذن الله.

* * *

القسم الثاني: التحقيق.

مقدمة التحقيق:

أ- اسم الكتاب:

ورد في آخر المخطوط قول عبد الرحيم العباسي: "وليكن هذا آخر المقامات العشر لا برحتْ بثناء من أُنْشِئَتْ باسْمِهِ الشريفِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ".[1] وقد وردت تسمية أخرى للكتاب في ورقة خارجية كتبت بخط مغاير للمخطوطة جاء فيها: "هذه العشر مقامات تأليف الشيخ عبد الرحيم العباسي غفر الله له..."[2]، وكذلك جاءت صيغة ثالثة مقاربة للصيغة السابقة – العشر مقامات – في مقدمة المقامات، إذ قال العباسي: " وبعدُ، فهذه عشرُ مقاماتٍ أنشأها الفقير عبدالرحيم العباسي، برسم سيدنا ومولانا شيخ الإسلام..."[3].

وقد مِلت إِلَى الأخذ بتسمية الكتاب "المقامات العشر" دون أن أنظر إِلَى الصيغة الأخرى "العشر مقامات"، لأن هذه الأخيرة كتبت في الورقة الأولى بخطٍّ غير خط المؤلف، وأما صيغة المقدمة "فهذه عشرُ مقاماتٍ" فقد أراد العباسي بها – في نظري – أن ينصّ عَلَى العدد فقدّمه.

وقد وافقت فيما ارتضيته من هذه التسمية فهرسَ مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس، حيث رُقمت فيه المخطوطة بهذه التسمية: "المقامات العشر"، وكذلك صنع الدكتور خالد الجديع – وهو الوحيد الذي درس هذه المقامات ضمن ما درس من مقامات مشرقية – إذ ارتضى التسمية نفسها "المقامات العشر"، وأخذ بما ذهب إليه العباسي ونص عليه في خاتمة مقاماته، حيث قال عند أول ورود لاسم الكتاب في دراسته: "أما الشيخ عبدالرحيم العباسي فلا يفرد لموضوع الكدية من مقاماته العشر سوى مقامة واحدة..."[4].

وعند أول إحالة في دراسته أشار بقوله في الهامش: "المقامات العشر – مخطوطة – الورقة ٤"[5]، ولما أراد توثيق الكتاب في ثبت المصادر والمراجع أثبته بقوله: "١٥- المقامات

---

(١) المقامات العشر ق ٢٣ /أ.

(٢) المصدر السابق ق ١/أ.

(٣) المصدر السابق ق ٣ /ب.

(٤) المقامات المشرقية، د. خالد الجديع: ١٠٠.

(٥) المصدر السابق: ١٠١.

العشر، عبد الرحيم العباسي، المكتبة الوطنية بباريس"[1].

ب- نسبته إلى مؤلفه:

لم يشر أحد ممن ترجم لعبد الرحيم العباسي إلَى أن له كتاباً مؤلفاً باسم "المقامات العشر"، علَى حين أن بعض من ترجموا له أشاروا إلَى أن له شرحاً علَى مقامات الحريري[2]، ولكن بالتمعن في المخطوط الموجود بين أيدينا، الموسوم بـ "المقامات العشر"، نجد بوناً شاسعاً بينه وبين مقامات الحريري سواء من حيث العدد أو المضمون، فمقامات الحريري خمسون وهذه عشر، ومضمون مقامات الحريري يختلف اختلافاً بيّناً عن هذه المقامات العشر، ولم يأت في أثناء مقامات العباسي أي إشارة إلَى الحريري ومقاماته من قريب أو من بعيد.

وبتأمل المخطوط الموجود بين أيدينا نجد أن هناك عدداً من الأدلة تثبت صحة نسبة هذه المقامات إلى عبد الرحيم العباسي، أبرزها إشارته في مقدمة المخطوط - الذي كتبه بخط يده - إلَى أن هذا الكتاب من تأليفه، حيث قال: "فهذه عشرُ مقاماتٍ أنشأها الفقير عبدالرحيم العباسي، برسم سيدنا ومولانا شيخ الإسلام، مفتي الأنام، نخبة الدهر، مجتهد العصر، سعدي جلبي، أمتع الله الوجود بوجوده"[3].

وهناك أدلة علَى أن هذا المخطوط قد كتبه عبد الرحيم العباسي بخطه، أهمها أنه كتب بخطه عدداً من مؤلفاته، وأشار إلَى ذلك في خواتيمها، ومنها كتابه "أنفع الوسائل إلَى أبدع الرسائل"، الذي حققه الدكتور عبد الرازق حويزي.

وتوجد منه نسخ كثيرة مخطوطة، إحداها نسخة محفوظة في دار الكتب المصرية برقم (٣٩١٢ أدب)[4]، كتبت بخط العباسي كما ورد في آخرها، وهو الخط نفسه الذي كتبت به مخطوطة "المقامات العشر" الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس. وفي كتاب "الأعلام" للزركلي أنموذج من خط عبد الرحيم العباسي الذي كتبت به مخطوطة "أنفع الوسائل"

---

(١) المصدر السابق: ٦٩٦.

(٢) انظر: هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل البغدادي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، مصورة من طبعة وكالة المعارف الحلبية، باسطنبول، تركيا، ١٩٥١م، ٥٦٣/١، ومعجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ببيروت، د.ت، ٥٠٢/٥.

(٣) المقامات العشر، لعبد الرحيم العباسي ق ٣ /ب.

(٤) وانظر: فهرس دار الكتب ٢٨/٣ "أنفع الوسائل".

المحفوظة بدار الكتب المصرية[1]. لمن أراد الاطلاع والمقارنة.

وإذا كان دارسو العربية، ومؤلفو كتب التراجم قد اتفقوا عَلَى صحة نسبة كتاب "معاهد التنصيص عَلَى شواهد التلخيص" إلى عبد الرحيم العباسي، فإن هذا الكتاب يحمل من الدلائل ما يؤكد صحة نسبة "المقامات العشر" إليه، ولعل أبرزها تلك المقدمة التي قدم بها كتاب "معاهد التنصيص" فهي تسير عَلَى الأسلوب نفسه الذي قدم به "المقامات العشر"، ولم يكن إهداء الكتاب بعيداً عن ذلك التوافق، حيث أهدى الكتابين لشخص واحد – كان له فضل كبير عليه – هو سعدي جلبي.

ففي مقدمة كتاب معاهد التنصيص يقول متحدثاً عن أثر سعدي جلبي عَلَى الحياة الثقافية في القسطنطينية: "وكان من أعظم خبايا السعد، وعطايا الجد، أن شملته العناية، وحفته الرعاية،بنظر فرد الدهر، وواحد العصر،وبكر عطارد... العالم العلامة، والحبر الفهامة، سيدنا ومولانا سعدي قاضي القضاة بتخت الملك قسطنطينية العظمى، فهو مولى تنخفض همم الأقوال عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه، ويقصر جهد الوصف عن أيسر فواضله ومساعيه... مجمع الأدباء وحلبة الشعراء، ذو همة مقصورة عَلَى مجدٍ يشيّده، وإنعامٍ يجدده..."[2].

وفي مقدمة كتاب "المقامات العشر" يقول: "وبعد، فهذه عشر مقامات أنشأها الفقير عبد الرحيم العباسي، برسم سيدنا ومولانا شيخ الإسلام، مفتي الأنام، نخبة الدهر، مجتهد العصر، سعدي جلبي، أمتع الله الوجود بوجوده، وأفاض عَلَى العالمين بركة فضله وجوده"[3].

وقال في مقدمة كتاب "معاهد التنصيص" موضحاً احتفاء سعدي جلبي بالكتاب: "وكان من جملة دواعي السعد، وبواعث الجد، أن شمل هذا التأليف نظره الشريف، حين وصل إِلَى حضرة مجده المنيف، فأظهر به إعجاباً رفع من مقامه، ونصب فوق متن المجرة خوافق أعلامه، جرياً عَلَى عادته النفيسة في جبر القلوب، وستر العيوب، فحين طرق السمع، خبر استحسانه لذلك الجمع، أحبَّ الفقير أن يخدم حضرته العلية، وسدّته السنية بنسخة منه..."[4].

ولما قدم كتابه "المقامات العشر" أعاد المعاني نفسها التي تشير إِلَى احتفاء سعدي جلبي

---

(١) انظر: الأعلام للزركلي ٣/ ٢٤٥.

(٢) معاهد التنصيص عَلَى شواهد التلخيص، لعبد الرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ١/ ٤.

(٣) المقامات العشر: ق ٢/ب.

(٤) معاهد التنصيص ١/ ٦.

مرة أخرى بكتابٍ آخر من تأليفه، فقال عنه: "... أعملتُ الفكر في عمل مقامة، ولم أشعر بأنها ذاتُ اعوجاجٍ واستقامة، غير أني تجاسرتُ بعرضها، وما في سمائها وأرضها، عَلَى حضرة فرد الوقت، مُقْدماً إمّا عَلَى الرضا أو المقت، أعني حضرة عين الأعيان، مالكِ أزمَّة المعاني والبديع والبيان، ذي المفاخر والمناقب والفكر الصائب، والذهن الثاقب... مولانا سعدي، لابرحت آيات فضله بألسن الأكوان متلوَّة... فحين وقع نظره الكريم عليها، وصرف وجه تأملهِ إليها، أظهر بها إعجاباً، وجعلَ نداءها بستر حلمه مجاباً، فكان ذلك إما لإصابة السهم الغرض، أو جبراً لخاطر الفقير ونصراً له عَلَى من في قلبه مرض، وبرز أمر الله تعالى أن ينشأ لها أتراب، فحينئذٍ أمن القلبُ مما به استراب، وعمل عشراً كاملةً"[1].

إن علاقة التوافق والمشابهة بين هذه النصوص لا تحتاج إِلَى تحليل، فأدنى نظر سيرى أنها تخرج من مشكاة واحدة، وتحمل طوابع وخصائص أسلوبية وتاريخية مشتركة تدل عَلَى أنّ ثبوتية "معاهد التنصيص" لعبد الرحيم العباسي دليل قاطع – في نظري – عَلَى نسبة "المقامات العشر" إليه.

ج– وصف النسخة المخطوطة:

بعد محاولات مضنية لم أستطع الوصول إلا إِلَى نسخة واحدة من هذا الكتاب، فقد فتشت كثيراً من فهارس المخطوطات المصورة من مكتبات العالم، وسألت عدداً كبيراً من المهتمين بالمخطوطات، وبفن المقامات، وبتراث عبد الرحيم العباسي، ولكن لم أعثر سوى عَلَى نسخة واحدة موجودة في المكتبة الوطنية بباريس برقم (٥٠٤٥). وقد وجدت عدداً لا بأس به من الإشارات إِلَى نسخ من مقامات فتحت لي باب الأمل بوجود الكتاب هنا أو هناك ولكن بعد المراسلة والتدقيق والتأمل والتفحص تبين لي أن الكتاب المشار إليه إما أنه دخل خطأً في تصنيف المقامات، ولكن موضوعه لا يمت لفن المقامة الأدبي بصلة، أو أنه لمؤلف آخر غير عبد الرحيم العباسي، وهناك أكثر من مؤلف باسم "المقامات العشر"، ولا يعرف مؤلفه، وهناك مؤلفات أخرى باسم "المقامات" تبين لي بعد طول ترقب وبعد التدقيق أنها لا علاقة لها بمقامات العباسي[2].

---

(١) المقامات العشر، ق ٤/أ.

(٢) فمن ذلك مثلاً النسخة الموجودة في مكتبة رئيس الكتاب في تركيا تحت رقم ٦٣٤، أو المقامات الموجودة بمكتبة فينا الملكية تحت رقم (N.F.٦٦) باسم مقامات العباس، وغير ذلك مما أطلق عليه المتصوفة اسم "مقامات" وهو يحكي أخبار المتصوفة وأحوالهم.

أما النسخة الفريدة التي بين يدي، فهي محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس – كما أشرت سابقاً – برقم (٥٠٤٥)[١]، ومنها مصور بالميكروفيلم في المكتبة نفسها برقم (R.C.٨٤٦٣). وعدد أوراقها (٢٣) ثلاث وعشرون ورقة، في كل ورقة ثلاثة وثلاثون سطراً، وكتبت بخط النسخ، والغلاف الخارجي كتب بخط آخر يخلط بين النسخ والفارسي، وجاء في طرة الغلاف: "هذه العشر مقامات تأليف الشيخ عبد الرحيم العباسي غفر الله له... آمين". وأول المخطوطة: " بسم الله الرحمن الرحيم مما يعمي ويصم بالله، أما بعد حمد الله تعالى ذي الكبرياء والجلال..."[٢].

وآخر المخطوطة: "وليكن هذا آخر المقامات العشر لا برحتْ بثناء من أُنْشِئَتْ باسْمِهِ الشريفِ طيبة النشر...

آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ حتى أُضِيفَ إليها ألفَ آمينا

والحمد لله وحده وصلى الله عَلَى من لا نبي بعده وعَلَى آله وصحبه وسلّم"[٣].

وهي نسخة كاملة وواضحة، وسليمة من العيوب، وفي الورقة الأولى والأخيرة من المخطوطة ختم المكتبة الوطنية في باريس باللغة الفرنسية، وفي الورقة الأولى كتب تملك المكتبة للمخطوطة، بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٨٩١م، ونصه: "بمنة من الله دخل بملك أفقر العباد وأضعفهم نقولا يوسف سيوفي[٤]، نيسان ٦٨"[٥].

د– منهج التحقيق:

أوجز منهجي في تحقيق نص هذا الكتاب في الآتي:

---

(١) ذكرها الدكتور خالد الجديع أكثر من مرة في كتابه "المقامات المشرقية" برقم (٤٠٤٥)، وهو خطأ طباعي فيما أظن. انظر: المقامات المشرقية، للدكتور خالد الجديع: ٣٩، ٦٩٦.

(٢) المقامات العشر: ق ٢ / أ.

(٣) المصدر السابق ق ٢٣/أ.

(٤) آلت هذه المخطوطة إلى المكتبة الوطنية في باريس في ١٨٩١/١٠/١٤م، إهداءً أو شراءً من نقولا يوسف السيوفي، وهو مترجم يجيد الفرنسية، من دمشق، عمل مترجماً في القنصلية الفرنسية في دمشق، وصحب الأمير عبد القادر الجزائري في رحلة له إلى باريس وإستانبول، ثم استوطن بيروت عام ١٨٦٠م، وعين قنصلاً لفرنسا في حلب والموصل وبغداد، ولما تقاعد عاد إلى لبنان وأقام في بعبدا إلى أن توفي عام ١٣١٩هـ الموافق عام ١٩٠١م، وكانت ولادته عام ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م. وله مقالات بالفرنسية نشرت في المجلة الآسيوية في باريس. (الإعلام: ٨ / ٤٦). ولمزيد من المعلومات عنه ينظر معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف إليان سركيس: ص ١٠٨٧، ومعجم المؤلفين: ١١٦/١٣.

(٥) المقامات العشر ١/ب.

١- حاولت إخراج نص المقامات العشر كما أراده عبد الرحيم العباسي، وبذلت الوسع في ذلك.

٢- كتبت النص وفاق قواعد الإملاء، ولم أساير المؤلف في طريقته الكتابية التي هي طريقة العصر الذي كان فيه، ومن ذلك مثلاً:

لجوؤه إلَى حذف الهمزة إذا جاءت في آخر الكلام مثل: الوزرا، والثلاثا، وهو يثبتها إذا جاء بعدها إضافة مثل: أعداء الدين، واعتداء الأمين وأحياناً لا يثبتها... وقد أصلحت ذلك، أما إذا كان تسهيل الهمزة يهدف إلَى تحقيق منهجه في التزام السجع، ومراعاة تناسب رؤوس الجمل والعبارات، وإضفاء الجمال عَلَى مقاطع الكلام فقد تركته دون تعديل.

وكذلك قلبه الهمزة ياء إذا جاءت في وسط الكلمة مثل: أعدايهم، طاير، وعايب. ومثله وضع نقطتين تحت الألف المقصورة مثل:

القي بدلاً من ألقى، اعتدي بدلاً من اعتدى. وجري بدلاً من جرى. وكذلك كتابته الهاء بتاء مربوطة، والعكس كتابته لكلمات تنتهي بتاء مربوطة بالهاء، وغير ذلك مما هو شائع في كتابة القرن العاشر الهجري الذي عاش فيه العباسي. ولم أشأ أن أشير إلَى تلك الكلمات المعدَّلة في الهوامش، لكثرتها، وخوفاً من إثقال الهوامش بها.

٣- أدخلت في النص بعض التهميشات التي وردت مرافقة للمقامات الأربع الأخيرة، وتدل عَلَى المكان الذي حدثت فيه.

٤- استعنت ببعض الرموز والإشارات المتعارف عليها بين المحققين، لا سيما القوسين المعكوفين لإضافة كلمة من المحقق داخل النص الأصلي لا يستقيم السياق أو يكتمل المعنى إلا بها.

وكذلك أثبتُّ أرقام أوراق المخطوط في الهامش الأيسر من النص المحقق لأنه يدل عَلَى مواضع بداية الورقات ونهايتها، وهو ترقيم يصاحب النص المحقق سواء أطبع الكتاب مستقلاً أو ضمن أبحاث أخرى في مجلة علمية محكمة. مما يسهل الإحالة إلَى الورقة الأصلية في هذه الحالة.

٥- عزوت النصوص الشعرية الواردة في المخطوط إلَى أصحابها، علماً أنّ أكثر الشعر الوارد في المقامات من نظم المؤلف نفسه، وكتبت أبيات الشعر عَلَى هيئاتها المألوفة في الكتابة من حيث الفصل بين الشطرين، وقد كتب المؤلف كثيراً من الأبيات بطريقة توحي

أنها نثر، إذ كان يورد الشعر ضمن سياق الحديث دون فصله عن النثر. عَلَى أنه كثيراً ما يشير إليه مقدماً بقوله: "شعر". وما كتبه العباسي من شعر بطريقة كتابة الشعر المعهودة في أول السطر، فإنه لا يشير إليه بقوله: "شعر".

٦- شرحت عدداً من الكلمات الغامضة، محاولاً تقريب النص إِلَى القارئ، عَلَى أنّ هناك عدداً من الكلمات كانت غامضة في ذاتها، ولكن السياق يشرحها ويقربها -فيما أظن- فتركتها دون شرح.

٧- قمت بتخريج الأمثال الواردة، وعرفت بالأعلام غير المشهورين وهم قلة.

* * *

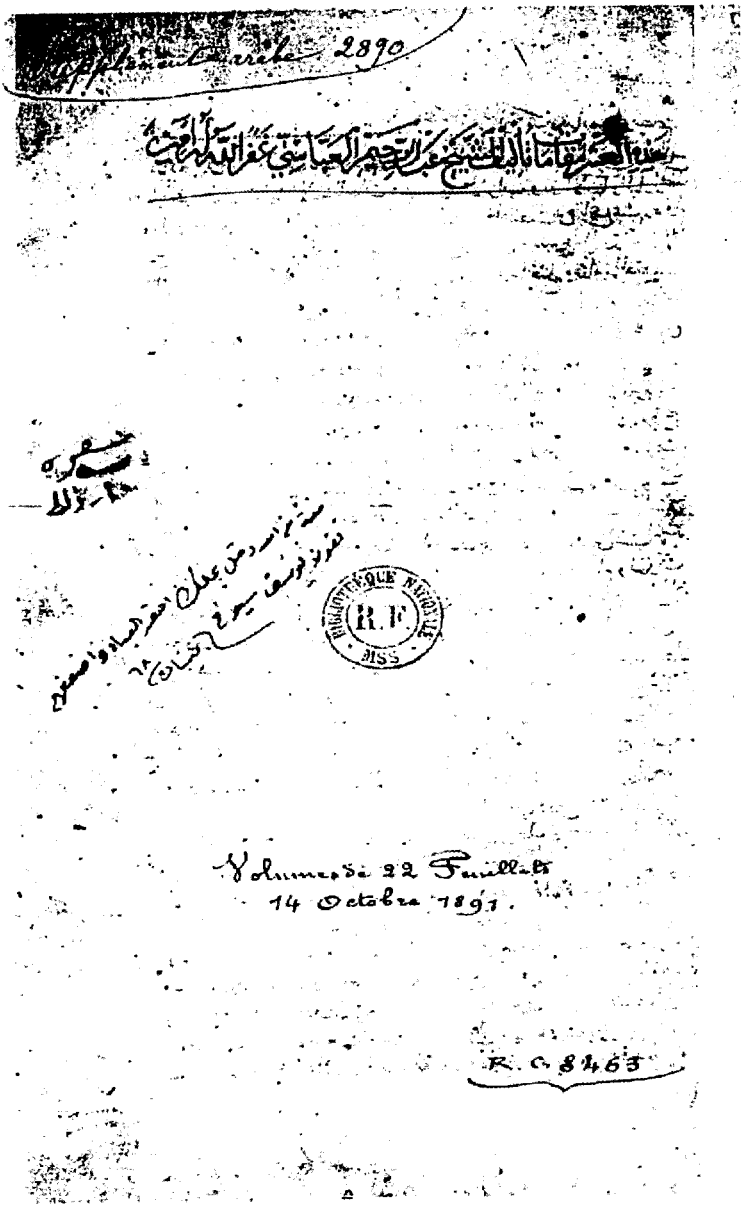

صورة صفحة غلاف المخطوط

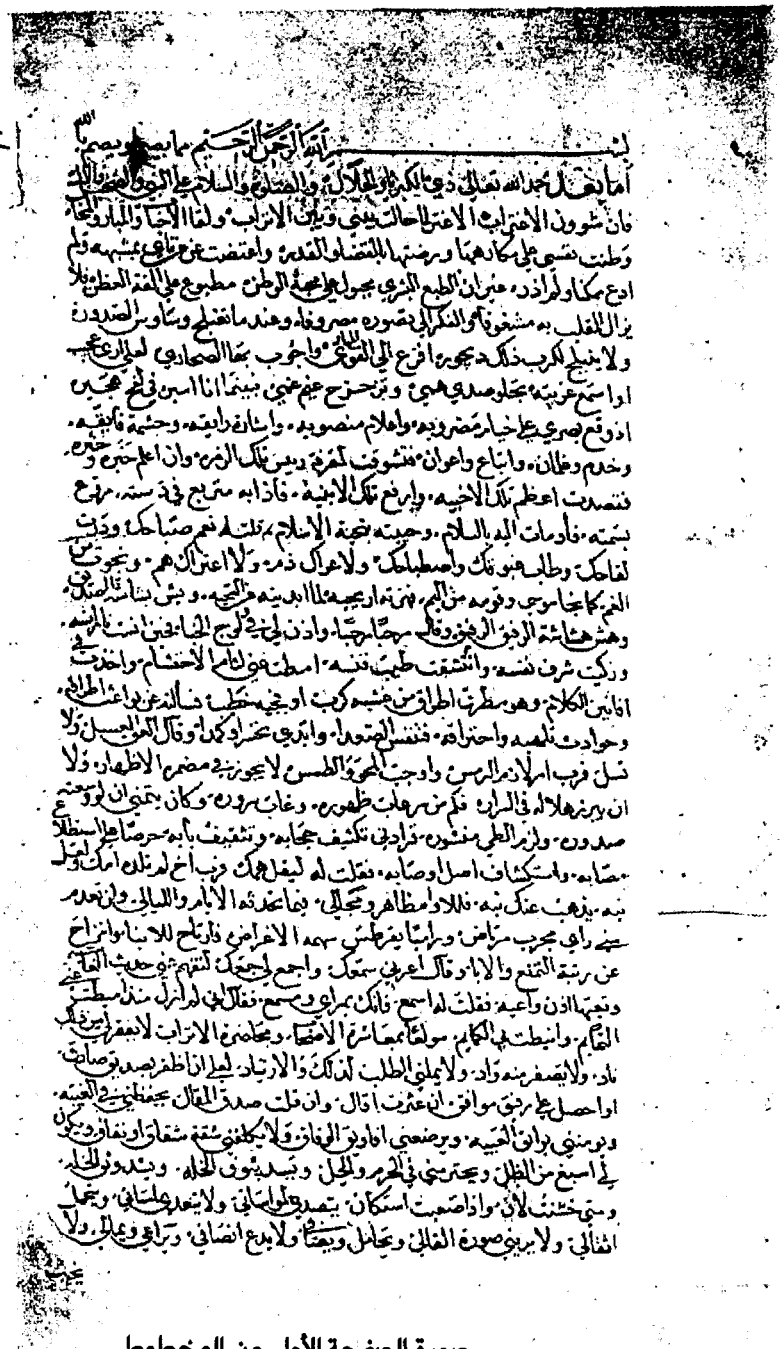

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

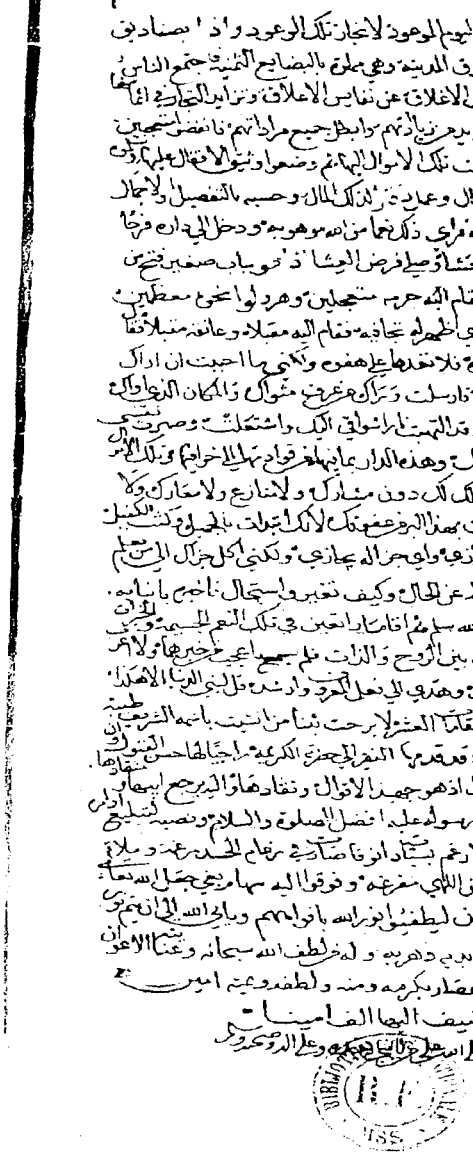

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

النّصُّ المُحَقّقُ:

هَذِه العَشْرُ مَقَامَاتٍ [١/ب]

تَألِيفُ الشّيْخِ عَبْدِ الرّحِيمِ العَبّاسِيّ غَفَرَ اللهُ لَهُ... آمين.

[أ/٢]

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ مِمَّا يُعْمِي ويُصِمُّ باللهِ

أَمَّا بَعْدُ حَمْدِ اللهِ تَعالَى ذِي الكِبْرِيَاءِ والجَلالِ، والصَّلاةِ والسَّلامِ عَلَى النَّبِيِّ والصَّحْبِ والآلِ، فَإِنَّ شُؤونَ الاغْتِرَابِ[١] لمَّا حَالَتْ بيني وبينَ الأتْرَابِ، ولِقاءِ الأحبابِ والمبارِّ والمحابِّ، وطَنْتُ نفْسِي عَلَى مَكارِهِهَا، ورُضْتُها بالقَضاءِ والقَدَرِ، واعتضْتُ عَمَّن نَأى بمُشْبِهِهِ ولم أدعْ مُمكِناً ولم أذرْ، غيرَ أنَّ الطَّبْعَ البَشَرِيَّ مَجْبُولٌ عَلَى مَحَبَّةِ الوَطَنِ، مَطْبُوعٌ عَلَى أُلْفَةِ العَطَنِ[٢]، فَلا يَزَالُ القَلْبُ بِهِ مَشْغُوفاً، والفِكْرُ إِلَى تَصَوُّرِهِ مَصْرُوفاً، وَعِندَمَا تَعْتَلِجُ وَسَاوِسُ الصُّدُورِ، وَلا يَنْبَلِجُ لكَرَبِ ذلكَ دَيْجُورٌ، أَفْزَعُ إِلَى القُوْدِ[٣] المَهَارِي[٤]، وَأَجُوبُ بِها الصَّحَارِي، لَعلِّي أَرَى عَجِيبَةً، أَوْ أَسْمَعُ غَرِيبَةً، تَجْلُوْ صَدَى هَمِّي وَتُزَحْزِحُ غَيْمَ غَمِّي، فَبَيْنَما أنا أَسِيْرُ في لَفْحِ هَجِيرٍ إِذْ وَقَعَ بَصَرِي عَلَى خِيامٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَعلامٍ مَنْصُوبَةٍ، وإِشارَةٍ رائِقَةٍ، وَحِشْمَةٍ فَائِقَةٍ، وَخَدَمٍ وغِلْمَانٍ، وَأَتْباعٍ وَأَعْوَانٍ، فَتَشَوَّقْتُ لِمَعْرِفَةِ رَئِيْسِ تِلْكَ الزُّمْرَةِ، وأنْ أَعْلَمَ خَبَرَهُ وَخُبرَهُ، فَقَصَدتُ أَعْظَمَ تِلكَ الأَخْبِيَةِ، وَأَرْفَعَ تلكَ الأَبْنِيَةِ، فإذا بِهِ مُتَرَبِّعٌ في دَسْتِهِ[٥]، مُرَوِّعٌ بِسَمْتِهِ، فَأَوْمَأْتُ إليهِ بالسَّلامِ، وحَيَّيْتُهُ بتحيَّةِ الإسْلامِ، قُلْتُ لهُ نَعِمَ صَبَاحُكَ، وَدَرَّتْ لَقَاحُكَ، وَطابَ غَبُوقُكَ واصْطِبَاحُكَ، ولا عَرَاكَ ذَمٌّ، وَلا اعْتَرَاكَ هَمٌّ، وَنَجَوتَ من الغَمِّ كَما نَجَا مُوسَى وَقَوْمُهُ من اليمِّ، فهزَّتْهُ أَرِيَحِيَّةٌ لِمَا أَبْدَيْتُهُ مِن التَّحِيَّةِ، وَبَشَّ بَشَاشَةَ الصَّدِيقِ، وهَشَّ هَشَاشَةَ الرَّفِيْقِ الرَّقِيقِ، وقالَ: مَرْحَباً مَرْحَباً، وَآذِنَ لِي في وُلُوجِ الخِبَاءِ، فَحِينَ آنَسْتُ نَارَ أُنْسِهِ، وَذَكَيْتُ شَرَفَ نَفْسِهِ، وَانْتَشَقْتُ طِيْبَ قَنْسِهِ[٦]، أَمَطْتُ عنِّي لِثَامَ الاحْتِشَامِ، وَآخَذْتُ في أَفَانِينِ الكَلامِ، وَهُوَ مَطْرِقٌ إِطْرَاقَ مَنْ غَشِيَهُ كَرْبٌ أَوْ فَجَأَهُ خَطْبٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ بَوَاعِثِ إِطْرَاقِهِ، وحَوادِثِ تَلَهُّبِهِ وَاحْتِراقِهِ، فَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ، وَأَبْدَى تَحَسُّراً وَكَمَدَاً، وَقَالَ: الْعَقِ العَسَلَ وَلا تَسَلْ، فرُبَّ أَمرٍ لازَمَ الرَّمْسَ[٧]، وَأَوْجَبَ

---

(١) في الأصل: الاغتراب الأغتر، وهو سهو.

(٢) العطن: مَبرَك الإبل حول الحوض. لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف، مصر، د.ت: (عطن).

(٣) القود: الإبل، وكذلك يطلق عَلَى الخيل التي تقاد. اللسان (قود).

(٤) المهاريّ: الإبل، نسبة إِلَى مَهْرة بن حيدان، قبيلة كبيرة اشتهرت بالعناية بالإبل. لسان العرب (مهر).

(٥) الدست: المجلس. اللسان (دَسْت).

(٦) قنسه: القَنْس والقِنس: الأصل. اللسان (قنس).

(٧) الرَّمس: الطمس، ويطلق أيضاً على القبر. اللسان (رَمَسَ).

المَحْوَ والطَّمْسَ، لا يَجُوزُ في مُضْمَرِهِ الإظْهَارُ، وَلا أنْ يَبْرُزَ هِلالُهُ في السِّرَارُ[1]، فَكَمْ مِن سِرٍّ عابَ ظُهُوْرُهُ، وَغَابَ سُرُوْرُهُ، وكانَ يَتَمنّى أنْ لَوْ وَسِعَتْهُ صُدُوْرُهُ، وَلَزِمَ الطَّيَّ مَنْشُوْرُهُ، فَزَادَني تَكْثِيْفُ حِجَابِهِ، وَتَثْقِيْفُ بابِهِ حِرْصاً عَلَى استِطْلاعِ مُصَابِهِ، واسْتِكْشَافِ أصْلِ أوْصَابِهِ، فَقُلْتُ لهُ: لِيَقِلَّ هَمُّكَ، فَرُبَّ أخٍ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ[2]، وَلَعَلَّ نَبَهَ يُذْهِبُ عنكَ نَبَهَ[3]، فَلِلأوَاءِ مَظَاهِرُ وَمَجَالِي، فِيْمَا تُحْدِثُهُ الأيَّامُ واللَّيالِي، وَلَنْ تُعْدَمَ مِنّي رَأيَ مُجَرِّبٍ مُرْتاضٍ، وَرَامِياً يُقَرْطِسُ سَهْمَهُ الأغْرَاضَ[4]، فَارْتَاحَ للأنْبَاءِ، وانْزَاحَ عنْ رُتْبَةِ التَّمنُّعِ والإباءِ، وقَالَ: أعِرْنِيْ سَمْعَكَ، واجْمَعْ لي جَمْعَكَ لِتَفْهَمَ عنّي حَدِيْثَ الغَاشِيَةِ، وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ. فقُلْتُ لهُ: أسْمَعْ فَإنَّكَ بِمَرْأىً وَمَسْمَعٍ، فَقَالَ: إنِّي لمْ أزَلْ مُنْذُ أُمِيْطَتْ عَنّيْ التَّمَائِم، وَأُنِيْطَتْ بِي الكَمَائِم[5]، مُوْلَعاً بِمُعَاشَرَةِ الأصْحَابِ، ومُحَاضَرَةِ الأتْرَابِ، لا يُقْفِرُ لي مِن ذلِكَ نَادٍ، وَلا يَصْفَرُّ[6] مِنْهُ وَادٍ، وَلا يَمَلُّنِي الطَّلَبُ لذلكَ وَالارْتِيَاد، لَعَلِّي أنْ أظْفَرَ بِصَدِيقٍ صَادِقٍ، أوْ أحْصُلَ عَلَى رَفِيقٍ مُوَافِقٍ، إنْ عَثَرْتُ أقَالَ، وَإنْ قُلْتُ صَدَّقَ المَقَالَ، يَحْفَظُنِي في الغَيْبَةِ، وَيُؤَمِّنُنِيْ بَوَائِقَ العَيْبَةِ[7]، وَيُرْضِعُنِيْ أفَاوِيْقَ[8] الوِفَاقِ، وَلا يُكَلِّفُنِيْ شُقَّةَ شِقاقٍ أوْ نِفَاقٍ، وَيَكُوْنُ لِيْ أسْبَغَ مِنَ الظِّلِّ، وَيَحْتَرِمُنِي في الحَرَمِ والحِلِّ، وَيَسُدُّ بُثُوْقَ الخَلَّةِ[9]، وَيَشُدُّ وَثْقَ الخُلَّةِ[10]، وَمَتَى خَشُنْتُ لانَ، وَإذا صَعُبْتُ استَكَانَ، يَتَصَدَّى لِمُوَاسَاتِي، وَلاَ يَتَعَدَّى لِمَسَاتِي، وَيَتَحَمَّلُ أثْقَالِي،

وَلا يُرِيْنِي صُوْرَةَ القَالِيْ، وَيُجَامِلُ وَيُصَافِي، وَلا يَدَعُ إنْصَافِي، وَيُرَاعِيْ وَيُمَالِيْ، وَلا / يُخَيِّبُ آمَالِي. [٢/ب]

شعر:

---

(١) السرار: سرار الشهر: آخر ليلة منه، واستسرّ القمر إذا خفي. اللسان (سرر).

(٢) هذا مثلٌ يُعنى بالصديق. انظر: مجمع الأمثال، للميداني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م: ٣١/٢ و٥٠/٢.

(٣) نبه: النَّبه الضالة لا يدرى متى ضلت، ونبه الثانية: من النباهة ضد الخمول. وقد جاء في اللسان: "تبه ينبه إذ صار نبيهاً، والنباهة ضد الخمول، وهو نَبَهٌ". اللسان (نبه).

(٤) الأغراض: جمع غرض، وهو الهدف الَّذِيْ ينصب فيرمى فيه. اللسان (غرض).

(٥) الكمائم: القلانس التي تغطي الرأس، والمفرد كُمّة، وكُمّا اليدين: ما يغطيانهما. اللسان (كمم).

(٦) يَصفَرُ: يَخلُوْ. اللسان (صفر).

(٧) العَيْبة: العَيبُ. اللسان (عيب).

(٨) أفاويق: الأفاويق هو ما اجتمع من الماء في السحاب، فهو يمطر ساعة بعد ساعة. اللسان (فَوقَ).

(٩) البثوق: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه. اللسان (بثق).

(١٠) الخَلّة: الفرجة بين الشيئين، والثقبة الصغيرة، وكل ثلمة فيه خَلّة. الخُلّة: الصداقة. اللسان (خلل).

وَإِذَا نَادَيْتُ لَبَّى مُسْرِعاً وَإِذا قُلْتُ: اسْتَوى، قالَ: اسْتَوَى[1]

فَلَمْ أَزَلْ أَبْذُلُ في الارْتِيَادِ جُهْدِيْ، وَأَسْتَنْفِدُ فِيهِ سَعْيِيْ وَكَدِّيْ، وَأَتَعَلَّلُ بِعَسَى وَلَعَلَّ، وَأَمْتَطِيْ مِنْهُمَا مَطَايَا الأَمَلْ، وَبُرْدُ الشَّبَابِ بُرْدٌ[2] قَشِيبٌ، وَرَبْعُ الصِّبَا خَصِيبٌ، أَجُوْبُ بِهِ المَغَارِبَ وَالمَشَارِقَ، وَأَرْقُبُ بِهِ كُلَّ غارِبٍ وَشَارِقٍ، إِلَى أَنْ ابْيَضَّتِ المَفَارِقُ، وَلَمْ أَظْفَرْ مِنْهُ بِنَسْمَةٍ، وَلَمْ أَعْثُرْ مِنْهُ عَلَى سَمَّةٍ[3]، وَكُلَّمَا اشْتَدَّ مِنِّي الطَّلَبُ، جَدَّ فِي الهَرَبِ، فَهَا أَنَا مُزَلْزَلُ الأَرْجَاءِ، مُذَبْذَبٌ بَيْنَ اليأسِ وَالرَّجَاءِ.

شِعْرٌ:

كَأَنَّمَا أَنَا مِنْ حِلٍّ وَمُرْتَحَلٍ مُوَكَّلٌ بِفَضَاءِ الأَرْضِ أَذْرَعُهُ[4]

فَقُلْتُ: لَعَمْرِي لَقَدْ تَطَلَّبْتُ الأَبْلَقَ العَقُوْقَ، وَمَا هُوَ أَعَزُّ مِن بَيْضِ الأَنُوْقِ[5]، وَلَقَدْ فَنِيَ العُمُرُ مِنِّي فِي التَّجَارِبِ، وَالابْتِلاءِ بِالمُسَالِمِ وَالمُحَارِبِ، وَلَمْ أَظْفَرْ بِمُرَادٍ، وَلا أَخْصَبَ لِي مِن ذلِكَ وَادٍ[6]، فكم من صاحب ظننتُ أنه خِلٌّ وَدُودٌ[7]، فإذا هو خَلٌّ وَدُود، واعتقدتُ أَنَّهُ صَدِيْقٌ حَمِيمٌ، فَإِذَا هُوَ صَدِيْدٌ حَمِيمٌ، وَخِلْتُ أَنَّهُ مُعِينٌ رَحِيْمٌ، فَإِذا هُوَ لَعِينٌ رَجِيْمٌ، وَحَسِبْتُ أَنَّ لَفْظَهُ شَهْدٌ يَنْفَعُ، فَإِذا هُوَ سُمٌّ مُنْقَعٌ[8]، وَأَنَّ خُلُقَهُ عَذْبٌ مُجَاجٌ، فَإِذا هُوَ مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَكَمْ مِن جارٍ مُكاشِرٍ يَثِبُ

---

(١) من البحر الرمَل.

(٢) في الأصل: وبرد.

(٣) سَمّة: مطلب، ومنه قيل: أصابَ سَمّ حاجته أي مطلبه، وقد يراد به: السُّمة: واحدة الودع الَّذِيْ يخرج من البحر. اللسان (سمم).

(٤) البيت من البحر البسيط:

أخذه الشاعر من قول ابن زريق البغدادي:

كأنّما هوَ في حِلٍّ ومُرتحلٍ مُوَكَّل بِفَضاء اللهِ يَذرَعُهُ

انظر: مصارع العشاق، لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي، عناية كرم البستاني، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ٢/ ٨٤، و الوافي بالوفيات، لصلاح الدين لصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠م، ٢١/ ١١١ – ١١٧، والأنساب، للسمعاني، تحقيق عبد الله البارودي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ٣/ ١٥٠.

(٥) إشارة إِلَى مثل مشهور، إذ يقال: طلب الأبلق العقوق، وقد تمثل معاوية بيتاً غدا مثلاً حيث قال:

طلبَ الأبلقَ العقوق فلمّا لم يجدْهُ أرادَ بيضَ الأنوقِ

انظر مجمع الأمثال ٢/ ٢٨٤، وانظر المثل: أعزّ من بيض الأنوق، في المصدر السابق ٢/ ٣٩٠.

(٦) في الأصل: مراد، والصواب ما أثبتُه.

(٧) في الجملة الأولى: خِلّ: صاحب، وفي الثانية: خَلّ، وفي الأولى: وَدود، من المودّة، وفي الثانية: وَدود" وهو الحشرة المعروفة.

(٨) منقع: أي قاتل. اللسان (نقع).

كَعُقَابِ مُكَابِرٍ، وَكَمْ مِن حَبِيبٍ مُؤَانِسٍ يُرَى كَحُبَابٍ[1] مُوالِسٍ[2]، وَلَعَمْرِي لَقَدْ قَلَّ الإنْصَافُ، وَكَثُرَ بِفَقْدِهِ الإرْجَافُ، وَكَمْ مِمَّنْ اغْتَرَّ فِي المُعَاشَرَةِ بِالمُكَاشَرَةِ، وَضَلَّ فِي التَّوَسُّمِ بِكَثْرَةِ التَّبَسُّمِ، وإذا حَقَّقَ المَنَاطَ بِكَثْرَةِ الاخْتِلاطِ، فَمَا ثَمَّ إلاَّ كَنِيفٌ مُبَيَّضٌ، أوْ رَوْثٌ مُفَضَّضٌ[3]، أوْ دِفْلَى[4] يَرُوقُ مَنْظَرُ وَرْدِها، وَيَسُوءُ مَخْبَرُ وِرْدِها، وَأنّى لِجُهَيْنَةَ هذِهِ الأخبَارُ[5] وَقَرِيبُ العَهْدِ بِهذا الاخْتِبَارِ، فَخُذْ مِنِّي، وَارْوِ عَنِّي، مَا يُسَرِّي عَنْكَ بَعْضَ هذَا الظَّنْكِ، وَتَرَى أنَّكَ مُشَارِكٌ فِي هذَا الابْتِلا، وَأنَّ ذلِكَ شَائِعٌ بَيْنَ المَلا، فَإنِّي صَاحَبْتُ مَنْ لَمْ أخْتَبِرْ أخْلاقَهُ، وَمَحَضْتُ لَهُ صِدْقَ الصَّدَاقَةِ، وَكُنْتُ لَهُ رِدْءاً فِي المُهِمَّاتِ، وَوِزْراً فِي المُلِمَّاتِ، لا أغِبُّ[6] لَهُ زِيارَةً، وَلا أُوْجِبُ ازْوِرَارَه، وَلا أُظْهِرُ عَارَه، ولا آشِنُّ عَلَى سَرْحِهِ[7] غَارَةً، وَأُقِيلُ عِثَارَه، وأُقِيمُ بِالظَّنِّ الجَمِيلِ أعْذَارَه، وَهُوَ يُظْهِرُ رَغْبَةً فِي المَوَدَّةِ وَابْتِغَاءَ، وَيُسِرُّ حَسْواً فِي ارْتِغَاءِ[8]، وَيَتَلَوَّنُ تَلَوُّنَ الغُولِ[9]، وَيَكْفُرُ النِّعْمَةَ وَلا كُفْرَ المَغْوُلِ، لا يَسْتَمِرُّ عَلَى حَالَةٍ، ولا يَخْلُوْ عَن تَغَيُّرٍ واسْتِحالَةٍ، إنْ حَمَدْتُ صَبَاحَهُ، ذَمَمْتُ مَسَاءَهُ، أوْ أبْدَى لي حُسْنَى أعْقَبَهَا بِمَسَاءَة.

وأقَمْتُ عَلَى ذلِكَ مُدَّةً، وَسِنِينَ عِدَّةً، لا أُطِيعُ فِيهِ النَّصِيحَ، وَلا أُصْغِيْ إلَى مُلِحٍّ وَلا مَلِيحٍ، وَأُحِيلُ مَا عَنْهُ يُشَاعُ مِن مَشْنُوْءِ الطِّبَاعِ، عَلَى نَوْعِ الحَسَدِ والبَغْضَاءِ، وَعَدَمِ المُسَامَحَةِ والإغْضَاءِ، وَكَانَ يُظْهِرُ خِلافَ مَا يُبْطِنُ، وَيُسِرُّ غَيْرَ ما يُعْلِنُ، وَيَتَبَيَّنُ ذلِكَ عِنْدَ غَفْلَتِهِ عَنِ التَّحَفُّظِ وَنِسْيانِهِ، وَيَظْهَرُ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَقَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَكَانَ يَتَسَتَّرُ بِمَفْخَرِ العِظامِيِّ[10]، وَلا

---

(١) حُباب: حباب الماء ما فوقه من فقاقيع، ويطلق أيضاً عَلَى الطلّ الَّذِيْ يصبح عَلَى أوراق الشجر. اللسان (حبب).

(٢) مُوالس: متفلت، والرجل الموالس: الَّذِيْ لا يوثق به. اللسان (ملس).

(٣) مفضض: المفضض، ومنه الفضيض وهو ماء الكرش بعد عصره. اللسان (فضض).

(٤) دفلى: الدفلى شجر مُر أخضر حسَن المنظر يكون في الأودية. اللسان (دفل).

(٥) هنا استدعاء للمثل المشهور "عند جهينة الخبر اليقين" مع تعديل له وخروج به عن مقصوده، انظر المثل وقصته في مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٣١٩ – ٣٢٠.

(٦) غَبَّ الرجُل في الزيارة: زار في الحين بعد الحين، ومنه قولهم: (زُر غباً تزدد حباً). اللسان (غبب).

(٧) سَرْحِه: السرح الماشية (تسمية بالمصدر) و لا يسمى سرحاً إلا ما يغدى به و يراح. اللسان (سرح).

(٨) الارتغاء: شرب الرغوة من اللبن، وهنا إشارة إلَى المثل المشهور: "يُسِرّ حسواً في ارتغاء". وهو يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره. انظر مجمع الأمثال للميداني ٣/ ٥٢٥.

(٩) الغول: بالضم هي السعلاة، والعرب تقول: تغوّلت الغول: تخيلت وتلونت، وللعرب فيها مزاعم. اللسان (غَوَل).

(١٠) العظامي: الذي يعتمد عَلَى الآخرين. اللسان (عَظَمَ).

يَستَطيعُ ادّعَاءَ العِصَامِيّ[1]، لأنَّ الحِسَّ يَأباهُ، وَقَليلٌ مَن يُشابِهُ آباهُ[2]، وَلَئِنْ كانَ الفَرْعُ يَنْزِعُ إلَى الأَصْلِ، فَكَثِيْراً مَا يَقَعُ بَيْنَهُمَا الفَرْقُ والفَصْلُ، فالنَّارُ مَعَ اضْطِرامِهَا تُخلِّفُ الرَّمَاد، وَصَافِي الشَّرابِ يُنْبِئُ عَنْ عَكَرٍ بَاد، والظَّوَاهِرُ لَهَا أَحْكام، تَفْعَلُ فِي العُقُوْلِ مَا تَشَاءُ مِنْ نَقْضٍ وَإِبْرام، فإذَا انْكَشَفَتِ السَّرَائِرُ، وَظَهَرَتِ الضَّمَائِرُ، تَبَيَّنَ خَطَأُ ذلِكَ الفَهْم، وَوَهَنَ ذلِكَ الوَهْمُ، وَيَرْجِعُ العَقْلُ إلَى مُقْتَضَاه، وَيَرَى الحَقَائِقَ بِنُورِ اللهِ، وَسَلَامَةُ الباطِنِ تَسْتُرُ خَلَلَ المَبَاطِنِ، وَلَمْ أَكُنْ أَخَلْ أَنَّ صُحْبَتَهُ عَلَى دَخَلٍ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ يَجِبُ هَجْرُهُ، وَلا يُسْمَعُ هُجْرُهُ[3]، وأنَّ الفِرَارَ مِنْهُ إلَى نَائِيْ البِلادِ مِمَّا يُستَصْوَبُ وَيُستَجَاد، وَلَقَدْ كُنْتُ أُعَرِّضُ لَهُ بِتَرْكِ هذِهِ الأَخْلاقِ، وَأَنَّها مِن أَوْصافِ مَن لا لَهُ خَلَاقٌ، فَيَنْبُو سَمْعُهُ عَنِ النَّصِيْحَةِ، وَلا يَخْشَى عاراً وَلا فَضِيْحَة، وَيَصِيْرُ كَالمُتَشَاغِلِ عَنْهُ وَاللَّاهِ، وَيَقُوْلُ: لا تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللهِ، فَيَنْقَطِعُ عَنْهُ الجَدَلُ، وَيُؤْيِسُ مِن العَطْفِ والبَدَلِ، / وَتَمَادَتْ[4] بِي فِي صُحْبَتِهِ الأَيَّامُ، وأنا أَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاءَ في ذلِكَ الظَّلَامِ، إلَى أَنْ عَثَرَ بِي الدَّهْرُ العَثُورُ، وَكِدتُّ أَنْ لا أَنْهَضَ وَلا أَثُوْرَ، مِن دُيُونٍ تَرَاكَمَ سَحَابُهَا، وَتَوَاتَرَ سَحُّها وَرَبَابُها[5]، وَتَزايَدَ اضْطِرَامُ شُجُونِها والتِهابُهَا، وَكِفَالاتٌ تَكَفَّلْتُ بانْتِقاصِ الأَحْوَالِ، وَضِيقِ المَجَالِ، واتِّسَاعِ دَائِرَةِ الأَهْوَالِ، وَغَالِبُهَا هُوَ مُوَطَّدٌ أَوَاخِيهِ[6]، وَمُشَيَّدٌ مَبَانِيهِ، والسَّاهِي بِرأيِهِ القائِلِ فِيهِ، فَلَمْ يَرُعْنِي إلَّا صَدُّهُ وإعْراضُهُ، وانْحِلالُ مُبْرَمِ ما كانَ يُبْدِيهِ وانْتِقاضُهُ، وعَقَارِبُ إيذائِهِ تَدِبُّ إليَّ دَبِيْبَ النَّمْلِ، وَمُتَفَرِّقُ مُوبِقاتِهِ عِنْدِي يَجْتَمِعُ مِنها الشَّمْلُ، يُشَمِّرُ في مَسَاءَتِي الذَّيْلَ، وَيَقُولُ لِجَوَادِ [١/٣]

---

(١) العصامي: الذي يعتمد علَى نفسه، وهو إشارة إلَى المثل: كن عصامياً ولا تكن عظامياً، وعصام المنسوب إليه هنا هو عصام بن شهير الجرمي، حاجب النعمان بن المنذر، وفيه قيل:

نفسُ عصامٍ سوّدتْ عصاما .....

انظر: اللسان (عصم).

(٢) إشارة إلَى قول رؤبة:

بأبهِ اقتدى عديٌّ في الكرَمْ
ومَنْ يشابهْ أَبَهُ فما ظَلَمْ

انظر: ديوان رؤبة بن العجاج (ضمن مجموع أشعار العرب)، تحقيق وليم بن الورد، منشورات دار الآفاق الحديثة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، ملحق الديوان ١٨٢.

(٣) هُجْره: فُحشه. اللسان (هُجْر).

(٤) في الأصل: وتماديت، والصواب ما أثبتُّه.

(٥) الرَّبابُ: السحاب الأبيض. اللسان (رَبَب).

(٦) الأواخي والآخِيَّةُ: الآخية والحرمة والذمة، ويقال له عنده آخيّة ترعى، والأخية: الطُّنُب. اللسان (أخا).

مَكْرِهِ: أَهْلَكَ واللَّيْلَ[1]، وَيُمَزِّقُ بِأَنْيابِ نَوائِبِهِ أَدِيمِي، وَلا يَرْعَى حُقُوقَ حَدِيثِي وَلاَ قَدِيمِي، يَخْتَلِقُ الكَذِبَ ويُفَوِّفُهُ[2]، وَيَبْتَدِعُ الزُّوْرَ وَيُزَخْرِفُهُ، وإذا لِيمَ عَلَى ذلِكَ يَحْلِفُ بالأَيْمانِ المُحْرَجَةِ عَلَيهِ، وَيُقَرِّرُ بِزَخارِفِ أَقْوالِهِ كَذِبَ ما نُسِبَ إِلَيهِ، وَكُنْتُ حِينَ فُوِّقَتْ[3] إِلَيَّ سِهَامُهُ، وسَحَّ عليَّ وَبْلُ مَكْرِهِ وَرِهَامُهُ، أَعْتَقِدُ أَنَّ ذلِكَ مِنْهُ يَخُصُّنِي عَلَى الانفِرَادِ، وَيَعلَّقُ بِي كمَا يَعلَّقُ الشَّرَرُ بثَوبِ الحدَّادِ، إِمَّا لجُرْمٍ اجْتَرَمْتُهُ وَلا أَدْرِيهِ، أَوْ لِقَوْلٍ بَلَغَهُ بالتَّزْوِيرِ وَالتَّمْوِيهِ، أَوْ هُوَ طالِعُ الحَظِّ المَعْكُوسِ، والجَدِّ المَنْكُوسِ. وَلَمْ أَزَلْ في ذلِكَ التَّقْرِيبِ وَالإِبْعَادِ، والفِكرُ يَذْهَبُ بِي فِي كُلِّ وادٍ، إِلَى أَنْ تَبَيَّنَ أَنَّ ذلِكَ مِنْهُ بِطَرِيْقِ العُمُومِ، وَأَنَّ ظِلَّ الخُصُوصِيَّةِ مَوْهُومٌ، وأَنَّهُ كالعَقْرَبِ يُؤْذِي بالطَّبْعِ، وَيَعُمُّ باللَّذْعِ[4]، مِن غَيرِ تَمْيِيزٍ بَيْنَ العَدُوِّ والصَّدِيقِ، وَتَفْرِيقٍ بَينَ المُشَاقِقِ والشَّقِيقِ، شيءٌ جُبِلَ عَلَيهِ سِنْخُهُ[5]، وَطَبْعٌ يأْبَى عَلَيهِ نَسْخُهُ، وَعَقْدُ لآمَةٍ أَعْجَزَهُ فَسْخُهُ، وَنَسِيَ ما سَبَقَ من الوُدِّ أَوْ تَناسَاهُ، وَرَفَضَ جانِبَ المُرَاعاةِ والمُوَاسَاةِ. شعر: [6]

كَأَنْ لمْ يَكُنْ وُدٌّ وَلمْ تَكُ صُحْبَةٌ ... وَلَمْ يَكُ يَوماً لِلوَفَاءِ عُهُودُ

[فلمَّا][7] رَأَيْتُهُ انتهَى إِلَى هذَا الوَصْفِ، وَبَلَغَ في اللآمَةِ حَدَّ الإِحْكَامِ وَالرَّصْفِ، طَلَّقْتُ صُحْبَتَهُ ثلاثاً[8]، وَصِرْتُ إذا رَأَيْتُهُ أَقْرَأُ لَهُ أَشْتَاتاً أَشْتاتاً، وَأَشْدُو وأُنشِدُ، وَأَهْدِي إِلَى عدَمِ صُحبتِهِ وأُرشِدُ[9]:

الحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانِي ... مِن صُحْبَةِ النَّذْلِ اللَّئِيمِ الجَانِي
أَهْوِنْ بِهِ مِن صاحِبٍ مُفَارِقٍ ... قَدْ شَيَّبَتْ أَفعالُهُ مَفَارِقِي
لَمْ يُبْقِ سُوءاً دُونَ مَا أَسْدَاهُ ... إِلَيَّ مِمَّا عَمِلَتْ يَدَاهُ
مَاذا أَقُولُ وَالمَقَالُ جَمٌّ ... فِيمَنْ بِهِ أَصْلُ الوفاءِ جَمٌّ؟

---

(1) إشارة إِلَى المثل المشهور: "أهلك والليل". وهو مثل يضرب في التحذير والأمر بالحزم. انظر: مجمع الأمثال للميداني ٨٦/١.

(2) يفوفه: يزينه ويوشيه ويزخرفه. اللسان (فوف).

(3) فوّقت: فوّق السهم: وضعَه في الوتر ليرمي به. اللسان (فَوَقَ).

(4) لذعَ فلاناً بلسانه وقوله: أوجعه وآذاه. والسياق يحتمل أن تكون الكلمة (اللدغ)، ولكنها في المخطوط كتبت بشكل واضح (اللذع)، والسياق يحتمل كلتا الصيغتين، فالأولى (اللذع) يعود إلى الصديق، والثانية (اللدغ) يعود الضمير إلى العقرب.

(5) سِنخه: السِّنخ من كل شيء الأصل. اللسان (سنخ).

(6) من البحر الطويل.

(7) زيادة يستقيم بها الكلام.

(8) كُتب بجوار ثلاثاً: تاء، ولا معنى لها.

(9) من البحر الرجز.

لَـوْ أَنَّـهُ يكُـوْنُ مِـن جِـنْسِ البَـشَرْ ... مـا كـانَ مِنْـهُ مَـن يُدانِيـهِ بَـشَرْ
فَـالجُرْحُ مِـن إيذائِـهِ جُبَّـارُ[1] ... واللهُ مِـن ورائِـهِ جبَّـارُ

وكانَ قدْ يتَخَيَّلُ لي انْعِكاسُ الجَدِّ، وَانْدِراسُ السَّعْدِ، وخُمُولُ الذِّكْرِ وَالمَجْدِ، وَلَم يَدْرِ أنَّ اللهَ يَلْطُفُ بِعَبْدِهِ الضَّعيفِ، وَلا يُضْحِيهِ مِن ظِلِّهِ الوَرِيفِ، وَيُقَيِّضُ لهُ مَن يُسْعِدُهُ بِسَعْدِهِ، وَيَرْدُفُهُ بِرِفْدِهِ، وَيُعِينُهُ بِآرائِهِ، وَيُغْنِيهِ بآلائِهِ، وَيُقِيمُ مِنهُ مَا قَعَدَ، وَيُصْلِحُ مِن حالِهِ مَا فَسَدَ، وَيُعِيدُ رَوْنَقَ آمالِهِ، بِتَدْبِيرِهِ وَمَآلِهِ.

شعر[2]:

وَهْـوَ الَّـذِي أَصْـبَحَ فَـرْدَ الـدَّهْرِ ... وَغُـرَّةً فِـي جَبَهـاتِ العَـصْرِ
ذُو المَجْـدِ وَالـسُّؤْدَدِ وَالكَمَـالِ ... وَالـسَّعْدِ والدَّوْلَـةِ والإقْبَـالِ
حـاوِي العُلُـومِ مَجْمَـعُ البَحْـرَيْنِ ... خُلاصَـةُ الـدَّهْرِ وَفَخْـرُ الكَـوْنِ
هِدايَـةُ الـسَّارِي إِلَـى الـصَّلاحِ ... بِنُـورِهِ المُبَـارَكِ الوَضَّـاحِ
كَنْـزُ الحَقَـائِقِ بِـدُونِ مَـانِعِ ... رَبُّ الفُنُـونِ مُبْـدِعُ البَـدَائِعِ
سَـعْدِي[3] الَّـذِي يَقُـولُ عَـالِي المَجْـدِ ... فِي العَصْرِ لَيْسَ غَيْرُ سَعْدِي سَعْدِي
إنْ قُلْـتُ وَصْـفاً وَالَّـذِي سَـوَّاهُ ... لا يَـسْبِقُ الفَهْـمُ إِلَـى سِـوَاهُ
لَـيْسَ سِـوَاهُ فِـي ذُرَا العَلْيَـاءِ ... مِـنْ دُونِـهِ كَوَاكِـبُ الجَـوْزَاءِ
إنْ أَمَّـهُ مَـن خَـافَ ضُـرَّ الـذُّلِّ ... عَـادَ بِكُـلِّ عِـزَّةٍ وفَـضْلِ
نِيَّـةُ قَلْبِـهِ السَّلِيمِ المُشْرِقِ ... مَـا مِثْلَهَـا فِـي مَغْـرِبٍ وَمَـشْرِقِ
/ لِخَيْـرِهِ وَبِـرِّهِ فِـي البَـرّ ... مَوَاهِبٌ تَفُوقُ مَدَّ البَحْرِ [٣/ب]
يَـأْوِي إِلَيْهَـا مِـنْ ذُرَا الآفَـاقِ ... أَهْـلُ الـوَجَى والجُـوْعِ وَالإمْـلاقِ
ضَـرَائِبٌ لَـيسَ لَهَـا ضَـرِيبُ ... يَـدْرِي بِـذَاكَ الفَطِـنُ اللَّبِيـبُ
لازالَ مَجْـدُهُ العَظِـيمُ البَـاذِخُ ... وَهْـوَ عَلَـى مَـتْنِ السِّمَاكِ شَـامِخُ
يَزْهُـو بِـهِ الـسُّؤْدَدُ وَالمَعَـالِي ... إذْ هُـوَ فِيهَـا زُبْـدَةُ اللَّيَـالِي
وَسَـعْدُهُ لا تَنْتَهِـي أَدْوَارُهُ ... مَـا لاحَ فِـي إِثْـرِ دُجًـى نَهَـارُهُ

سَيِّدٌ أَخَذَ بِيَدِ عَبْدِهِ لَمَّا عَثَرَ، وَجَدَّدَ مِن سَعْدِهِ ما دَثَرَ، وَسَلَّطَ عَزائِمَهُ عَلَى كُرُوبِهِ فَأَجْلَتْها، وَأَنْهَضَ هِمَمَهُ لأُهدية[4] خُطُوبِهِ فَجَلَتْها، وَحِيْنَ ضَاقَ وُسْعُهُ جَدَاهُ، وَعِندَمَا خَصَّهُ الدَّهْرُ بالخَصَاصَةِ عَمَّهُ نَدَاهُ، وَكَتَبَتْ لَهُ أَمَاناً مِنَ الفَقْرِ يَدَاهُ، فَها أَنَا رَاتِعٌ في مَرَابِعِ فَضْلِهِ، مَمْطُورٌ مِن

---

(١) الجبار: الهدر. اللسان (جَبَر).

(٢) من البحر الرجز.

(٣) هو سعدي جلبي (سبقت ترجمته في الدراسة).

(٤) كذا في الأصل، ولعل الصواب: لِهدِيَةِ خُطوبه، وهدية الأمر: قصده وجهته. وحينئذ يستقيم الكلام.

غَمَامِ جُوْدِهِ بِوَبْلِهِ، مُتَقَمِّصٌ مِن نوائبِ الأيَّامِ بِسَاطِعِ ظِلِّهِ، وَذلِكَ المائقُ[1] قَدْ أَخْفَقَ اللهُ آمَالَهُ، وَغيَّرَ أَحْوَالَهُ، وَعَكَسَ أَقْوالَهُ، وَعَدَلَ بِهِ عَنِ الاسْتِقامَةِ وَآمالَهُ، فَلا يُقَرْطَسُ[2] لَهُ في غَرَضِ السَّعادَةِ سَهْمٌ، وَلا يَنْسَاقُ إِلَى إِسْعَافِهِ فِكْرٌ وَلا هَمٌّ، غارِقٌ في لُجَجِ الفَلاكَةِ[3]، وَقَدْ أَدارَ العَكْسُ بالنُّحُوْسِ أَفْلاكَهُ، وَشَدَّ بَهْرامُ[4] النَّكْدَةِ نِطَاقَهُ، وَضَرَبَ كِيْوَانُ[5] عليهِ مِن بُؤْسِهِ أَوْطَاقَهُ، فَهُوَ في ذُلِّ الحِرْمانِ يَتَقَلَّبُ، وَبِنِيْرانِ القَهْرِ والغَلَبَةِ يَتَلَهَّبُ، وَعَدٌّ مِن اللهِ سَبَقَ لأَمْثالِهِ، وَمَنْ نَسَجَ عَلَى مِنْوالِهِ، وَالمَرءُ مَجْزِيٌّ بِأَعْمالِهِ. فَقَصِّرْ مِن عَنَاكَ، وَاتْرُكْ طَلَبَ ما هُنَاكَ، فَارْتِيَادُ المُحالِ يُوْرِثُ الإِمْحالَ وَيَجْلُبُ الأَهْوالَ، وَيُغَيِّرُ الأَحْوَالَ وَيَصْرِمُ الآجَالَ، وَيُضَيِّقُ المَجَالَ، وَيُذْهِبُ المَالَ، وَتَنْقَطِعُ دُوْنَهُ الأَطْماعُ والآمَالُ. فَعِندَمَا سَمِعَ مَا بِهِ أُخْبِرْتُ، وتَأَمَّلَ ما وَشَّيْتُ وَحَبَّرْتُ، قالَ: لَعَمْرِي لَقَدْ نَصَحْتَ بِمَا بِهِ أَفْصَحْتَ، وَوَعَظْتَ بِما بِهِ لَفَظْتَ، وَلَوْ لَم يُضِئْ لِي زَنْدُكَ، وَيَنْفَحْنِي عَرارُكَ وَرَنْدُكَ[6]، لَظَلِلْتُ في تِيْهِ الضَّلالَةِ وَعَمَهِ[7] الجَهَالَةِ أَخْبِطُ الأَرْضَ[8] وَأَجُوْبُ الطُّوْلَ مِنْهَا وَالعَرْضَ، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَيَّضَكَ لإِرْشَادِي، وَانْهَضَكَ لِسَدَادِي، فَقَوَّضَ[9] خِيامَهُ وَنَقَضَ إِبْرامَهُ، وَرَجَعَ مَغْبُوطاً مَحْبُوراً، وَانْقَلَبَ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوْراً، وَافْتَرَقْنَا عَلَى الدُّعَاءِ لِمَنْ جَبَرَ الكَسْرَ، وَخَلَّصَ مِن الأَسْرِ، وَأَغاثَ في القَهْرِ وَالقَسْرِ، لابَرِحَ سَعْدُهُ مَدَداً للسُّعُوْدِ إِلَى يَوْمِ الوُعُوْدِ. آمِيْن، آمِيْن.

وَبَعْدُ، فَهذِهِ عَشْرُ مَقَاماتٍ أَنْشَأَها الفَقِيْرُ عَبْدُالرَّحِيمِ العَبَّاسِيُّ[10]، بِرَسْمِ سَيِّدِنا وَمَوْلانَا شَيخِ الإِسْلامِ، مُفْتِي الأَنَامِ، نُخْبَةِ الدَّهْرِ، مُجْتَهِدِ العَصْرِ، سَعْدِيْ جَلَبِي[11]، أَمْتَعَ اللهُ الوُجُودَ بِوُجُوْدِهِ، وَأَفَاضَ عَلَى العَالَمِينَ بَرَكَةَ فَضْلِهِ وَجُوْدِهِ، آمِيْن، آمِيْن.

---

(١) المائق: الأحمق.

(٢) يقرطس: كل أديم ينصب للنضال فاسمه قرطاس، فإذا أصابه الرامي قيل: قَرْطسَ. اللسان (قرطس).

(٣) الفلاكة: الفقر، وهو مفلوك: أي فقير. اللسان (فلك).

(٤) بهرام: اسم المريخ. اللسان (بهرم).

(٥) كيوان: اسم زُحل. اللسان (كون).

(٦) عرارك ورندك: العرار: نبتٌ برّي طيب الرائحة، والرَّند: شجر من أشجار البادية طيب الرائحة.

(٧) عمَهَ: العمَه: التحير والتردد، والعَمَه في البصيرة كالعمى في البصر. اللسان (عمه).

(٨) في الأصل: الأراضي، والصواب المثبت الملائم للسجعة.

(٩) في الأصل: قوض، والمثبت هو الصواب الملائم لما بعده.

(١٠) سبقت ترجمته.

(١١) سبقت ترجمته.

الحَمْدُ للهِ الَّذِيْ جعَلَ مَقَامَاتِ الأَبْرارِ في عِلِّيِّيْنَ، وَصَيَّرَهُمْ في الدَّارَيْنِ مِن العَلِيِّينَ، وَهَذَّبَهُمْ وَأَدَّبَهُمْ فَأَحْسَنَ التَّهْذِيْبَ وَالتَّأْدِيْبَ، فَلا يُرَى مِنْهُم إلاّ كُلُّ مُهَذَّبٍ أَدِيْبٍ. أَحْمَدُهُ حَمْدَ مَن أَلْزَمَ نَفْسَهُ بالجُهْدِ، وفِي القِيَامِ بالحَمْدِ، وَوَفَّى بِما له التزَمَ، وَنَصَّبَ نَفْسَهُ لِلتَّعَبُّدِ وَرَفَعَها عَن خَفْضِ الفُتُوْرِ وَبِتِلْكَ النِّيَّةِ جَزَمَ.

وَأَشْهَدُ أَلاَّ إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، شَهَادَةً تَرْفَعُ قائلَهَا إِلَى أَعلَى المَقَامَاتِ وتَسِمُهُ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ بِأَحْسَنِ السِّمَاتِ وَأَزْهَى العَلامَاتِ.

وَأَشْهَدُ أَنّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ الَّذِيْ دَفَعَ بِهَدْيِهِ الكُرُوْبَ وَالأَخْطابَ[1]، وَآتاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ، صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ وآلِهِ وأَصْحابِهِ، مَا فَوَّقَتِ الطُّرُوْسُ[2] اليَرَاعَ[3] بِبَدِيْعِ البَيَانِ وَلَطِيْفِ الاخْتِراعِ.

أَقُوْلُ: فإنَّ الفَقِيْرَ وَإِنْ كَانَتْ بَضَاعَتُهُ في كُلِّ فَنٍّ مُزْجَاةً[4]، وَعِبَارَتُهُ القَاصِرَةُ عَنْ طُوْلِ البَلاغَةِ مُرْجَاةً، فَنَفْسُهُ إِلَى المُشَارَكَةِ في النَّفَائِسِ تَسْتَشْرِفُ، وَتَطُولُ مَعَ قِصَرِ باعِهَا لِلتَّطَلُّعِ عَلَى مُخْتَرَعَاتِ المَعَانِي وَتَشْرُفُ، وتَهْوَى أَنْ تَضْرِبَ في كُلِّ فَنٍّ بِسَهْمٍ وَنَصِيْبٍ، وَلا عَلَيْهَا أَنْ تُخْطِئَ الغَرَضَ أَوْ تُصِيْبَ، وَلَمَّا كانَ نَوْعُ التزامِ / مَا لا يَلْزَمُ، التَّنَكُّبُ عَن جادَّتِهِ أَحْوَطُ للأَدِيْبِ [٤/أ] وَأَحْزَمُ، لِوُعُوْرِ مَسْلَكِهِ نَظْماً وَنَثْراً، وَقَلَّ مَن ظَفِرَ مِن طالِبِيْهِ بِبُغْيَتِهِ أَوْ أَثْرَى، فَكانَتِ النَّفْسُ تَنْزِعُ إِلَى سُلُوكِ جادَّتِهِ، وَالتَّشَبُّهِ بِمَنْ اجتهَدَ في تَحْسِيْنِهِ وَإِجَادَتِهِ، وَتَحُثُّ عَزَائِمَ الفِكْرِ فَتَأْبَى إلاّ الفُتُوْرَ، وَتَسْتَنْهِضُ جَوَائِمَ الذِّهْنِ فَلا تَنْهَضُ وَلا تَثُوْرُ، خَوَرٌ في الطَّبِيْعَةِ يَعْتَرِي، وَجُبْنٌ مَعَهُ لا تَجْسُرُ ولا تَجْتَرِي، وَالنَّفْسُ مَعَ ذلكَ لا تَمَلُّ مِنَ الإلحَاحِ، وَقَدْحِ زَنْدِ الشَّحَاحِ[5]، وَلَمّا كَثُرَ إِبْرَامُها، وَقَوِيَ تَلَهُّبُها واضطِرَامُهَا، أَعْمَلْتُ الفِكْرَ في عَمَلِ مَقَامَةٍ، وَلَمْ أَشْعُرْ بأَنَّها ذَاتُ اعْوِجاجٍ وَاسْتِقَامَةٍ، غَيْرَ أَنِّي تَجَاسَرْتُ بِعَرْضِها، وَمَا في سَمَائِها وَأَرْضِها، عَلَى حَضْرَةِ فَرْدِ الوَقْتِ، مُقْدِماً إِمّا عَلَى الرِّضَا أَوِ المَقْتِ[6]، أَعْنِي حَضْرَةَ عَيْنِ الأَعْيَانِ، مالِكِ أَزِمَّةِ المَعَانِي والبَدِيعِ والبَيَانِ، ذِي المَفَاخِرِ وَالمَنَاقِبِ والفِكْرِ الصَّائِبِ، وَالذِّهْنِ الثَّاقِبِ، زِيْنَةِ المَمَالِكِ والأَمْصَارِ، وَنُخْبَةِ

---

(١) الأخطاب: جمع خطْب، وهو الشأن والأمر صغر أو عظمَ. اللسان (خطب).

(٢) الطروس: جمع طِرس، وهو الصحيفة، ويقال: هي التي مُحيتْ ثم كُتبت. اللسان (طرس).

(٣) اليراع: هو القلم إذا كان من قصب. اللسان (يرع).

(٤) مُزجاة: المزْجَى: القليل، وبضاعة مزجاة: قليلة. اللسان (زجى).

(٥) زند: الزَّند: العود الأعلَى الَّذِيْ تقدح به النار، والزَّند الشحاح: الَّذِيْ لا يوري كأنه يشحّ بالنار. اللسان (زند).

(٦) في الأصل: والمقت، والمثبت هو الصواب.

الدُّهُوْرِ وَالأَعْصَارِ، علاَّمَةِ الزَّمَانِ، المَلِيءِ بِوَفَاءِ العَهْدِ والأَمَانِ، رأسِ الحُكَّامِ، وَصَاحِبِ الإِتْقَانِ والإِحْكَامِ، الَّذِيْ يُجِيْرُ مِن جَوْرِ الزَّمانِ ويُعْدِيْ، ويَأْخُذُ بِيَدِ المُسْتَعْدِي[1]، مَوْلانَا سَعْدِي، لاَبَرِحَتْ آياتُ فَضْلِهِ بِأَلْسُنِ الأَكْوانِ مَتْلُوَّةً، وَعَرائِسُ مَجْدِهِ وَنُبْلِهِ عَلَى أَعْيُنِ أُولِي الأَبْصَارِ مَجْلُوَّةً، وَظِلالُ عِزِّ سُعُودِهِ سَابِغَةً ضافِيَةً، وَمَوارِدُ سُرُوْرِهِ عَذْبَةً صافِيَةً، وَالأَفْلاكُ تَدُوْرُ بِسَعْدِهِ، وَيَهَبُهُ اللهُ مَجْداً لا يَنْبَغِيْ لأَحَدٍ مِن بَعْدِهِ، فَحِيْنَ وَقَعَ نَظَرُهُ الكَرِيمُ عَلَيْها، وَصَرَفَ وَجْهَ تَأَمُّلِهِ إِلَيْها، أَظْهَرَ بِهَا إِعْجاباً، وَجَعَلَ نِداءَها بِسِتْرِ حِلْمِهِ مُجاباً، فَكانَ ذلِكَ إِمَّا لإِصابَةِ السَّهْمِ الغَرَضَ، أَوْ جَبْراً لِخَاطِرِ الفَقِيرِ وَنَصْراً لَهُ عَلَى مَنْ في قَلْبِهِ مَرَضٌ، وَبَرَزَ أَمْرُ اللهِ تعالَى أَنْ يَنْشَأَ لَها أَتْرابٌ، فَحِيْنَئِذٍ أَمِنَ القَلْبُ مِمَّا بِهِ اسْتَرَابَ، وَعَمِلَ عَشْراً[2] كامِلَةً، راجِياً بِسَعْدِهِ أَنْ تَكُونَ نابِهةً لا خَامِلَةً، وَهَا هُوَ قَدْ قَدَّمَها عَرائِسَ تُجْلا[3]، مُؤَمِّلاً أَنْ تَسْتَوْطِنَ مَحَلَّ مَجْدِهِ وَلا تُجْلَى[4]، وأَنْ تُكْسَى مِن مَلابِسِ حِلْمِهِ نَفِيْسَ الحُلَلِ، وأَنْ يَنْظُرَ بِعَيْنِ الرِّضَا إِلَى مَا فِيْهَا مِن الخَطأِ وَالخَلَلِ، لاَبَرِحَتِ الآمَالُ مُسْتَمْطِرةً مِنْ سَحَائِبِ كَرَمِهِ، وَنُفُوْسُ الآمَالِ عاكِفَةً بِرِحَابِ حَرَمِهِ، مَا رَقَمَتِ الأَقْلامُ بَدِيْعَ الكَلامِ.

المقامة الأولى:

قالَ بَعْضُهُمْ: ساقَنِي القَدَرُ المَحْتُوْمُ، وَالغَيْبُ المَكْتُوْمُ، مِن أَرْضِ الأَراكِ وَالبَشَامِ، إِلَى أَنْ حَلَلْتُ بالشَّامِ، فَأَقَمْتُ بِها مُدَّةً مَدِيْدَةً، وآنا كُلَّ يَومٍ في نُزْهَةٍ جَدِيْدَةٍ، ما بَيْنَ رياضٍ وَأَزْهارٍ، وَحِياضٍ وَأَنْهارٍ، وَجَدَاوِلَ تَنْسابُ انْسِيابَ الحُبَابِ، وَظِلٍّ وَرِيْفٍ، وَخِصْبٍ وَرِيفٍ، وَجِنَانٍ تَخْلُبُ الجَنَانَ، وَطُيُوْرٍ تَتَجَاوَبُ وَتَتَعاقَبُ، وَتَتَناوَبُ، تَتَبَرَّجُ رُبَاهَا في مَلابِسَ عَبْقَرِيَّةٍ، وَتَتَأَرَّجُ بِأَنْفاسٍ عَنْبَرِيَّةٍ، ذاتِ قَرَارٍ ومَعِيْنٍ، وَظِباءِ عِيْنٍ، وَقُصُوْرٍ رَفِيْعَةِ الذُّرَى[5]، وَسِيْعَةِ الذَّرَى[6]، مُفَوَّفاتِ الشُّرُفاتِ، مُزَخْرَفَةِ الغُرُفَاتِ، فَأَقَمْتُ بِها آمِنَ السِّرْبِ[7]، صافِيَ الشِّرْبِ، لا أَخَافُ مُغِيراً، وَلا أَشْكُوْ مُضِيراً، إِلَى أَنْ هَجَمَ الشِّتاءُ بِيَبَسِ هَوَائِهِ، وَتَراكُمِ أَنْوائِهِ، فَكُنْتُ أَلازِمُ السُّكُوْنَ، ولا

---

(١) هنا خطأ وتجاوز من المؤلف بجعله الممدوح سعدي جلبي يجير من جور الزمان ويعدي، حيث أعطاه ما ليس له، وإنما هو من صفات مالك الملك الَّذِيْ يجير وحده ولا يجار عليه سبحانه.

(٢) في الأصل: عشرةً، والصواب المثبت في المتن.

(٣) تجلا: يقال: جلا العروس، واجتلاها زوجها: نظر إليها، وتجلا أيضاً: تُهدى. اللسان (جلا).

(٤) تجلى، هنا من الجلاء والإبعاد. اللسان (جلى).

(٥) الذُّرى: بالضمّ، جمع ذِروة، ذروة كل شيء أعلاه. اللسان (ذرا).

(٦) الذَّرى: بالفتح، الكِنّ، وما ستر من الريح الباردة من حائط أو شجر، وفلانٌ في ذَرى فلان: أي ظلّه. اللسان (ذرا).

(٧) السِّرب: النفس والأهل والمال، ومنه الحديث: "من باتَ آمناً في سِربه...". اللسان (سرب).

أَخْرُجُ مِن الوُكُونِ[1]، مُستَبْدِلاً تِلْكَ النُّزَهِ في الغِيطَانِ[2]، بالسَّتْرِ بالحِيطَانِ، وَمُتَعَوِّضاً مِن تلكَ المَنَازِهِ[3] والمَنَاظِرِ بِحُصْرِ البُيُوتِ الّتي هِيَ قَيْدُ النَّواظِرِ، إِلَى أنْ دَعَتْنِيْ حَاجَةٌ أَكِيْدَةٌ، وَضَرُوْرَةٌ شَدِيدَةٌ، إِلَى الخُرُوْجِ مِنَ الدُّوْرِ، وَأنْ أَسْعَى لِتَحْصِيلِها وَأَدُوْرَ، فَخَرَجْتُ في يَومٍ غَامَتْ سَمَاؤُهُ، وَتَغَيَّرَتْ سيماؤُهُ[4]، فَهَواؤُهُ مَقْرُورٌ[5]، وَجَيْبُ[6] جَوِّهِ مَزْرُورٌ[7]، وَالسَّحَابُ قدْ تَوَاتَرَتْ أَنْدَاؤُهُ، وَالبَرْدُ اشْتَدَّ تَحَكُّمُهُ واعْتِداؤُهُ، وَالأَقْدَامُ لا تَثْبُتُ مِنَ الوَحْلِ، وَالسَّمَاءُ تَكَفَّلَتْ بِدَفْعِ المَحْلِ[8]، فَبَيْنَما أنا أَجُوْلُ في بَعْضِ المَحَالِّ، مُسْتَمِدّاً لِضَعْفِي مِن شَدِيْدِ المِحَالِ، إِذْ أَبْصَرْتُ بإِنْسَانٍ أَحْسَبُهُ مِن بَنِي سَاسَانَ، وَهُوَ مُلْقًى عَلَى قارِعَةِ / الطَّرِيْقِ، مُبْعَدٌ عَنِ العَشِيْرِ وَالفَرِيْقِ، والرِّعْدَةُ تَهُزُّهُ، وَتُكْثِرُ اضْطِرابَهُ وَتَوْزُّهُ، وَعَلَيْهِ أَسْمَالٌ لا تُوَارِيهِ، وَدُمُوْعُهُ تُسَابِقُ القَطْرَ وتُجَارِيْهِ، وَقَدْ ازْرَقَّ مِنَ البَرْدِ جِسْمُهُ، وَكادَ أنْ يَعْفَى أَثَرُهُ وَرَسْمُهُ، فَبَدأْتُهُ بالسَّلامِ، وَقَدَعْتُهُ[9] بالمَلامِ، وَقُلْتُ لَهُ: أَفِيْ مِثْلِ هذا اليَومِ تَخْرُجُ مِن الوِجَارِ، وَلَوْ تَعَدَّى الجَارُ عَلَيْكَ وَجَارَ، أَوْ تَبْرُزُ مِنَ الدَّارِ في هذا المَطَرِ الهدَّارِ؟ أَوْ تَتَعَرَّضُ لِهذَا الغَيْثِ وَمَا بِهِ مِنَ الفَسَادِ والعَيْثِ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ ما يَمْنَعُ عَدْوَاهُ، وَلا قُوَّةَ لَكَ بِدَفْعِ قُوَاهُ، فَقَدْ عَرَّضْتَ نَفْسَكَ لِلمَهَالِكِ، وَأَلْقَيْتَ بِيَدِكَ فِيْمَا هُنالِكَ؟! فَهَلاَّ تَدَبَّرْتَ ما بِهِ أَدْبَرْتَ؟ وَتَأَمَّلْتَ مَا لَهُ تَحَمَّلْتَ؟ وَتَوَقَّعْتَ ما فِيْهِ قدْ وَقَعْتَ؟ فالسَّعِيْدُ مَنْ نَظَرَ في العَوَاقِبِ، وَأَبْعَدَ عَنِ المَسَاوِرِ[10] والمَعَاقِبِ، وَلَطالَما أَوْقَعَ البَطَرُ في أَشَدَّ مِن هذا الخَطَرِ، وَلَوْ اسْتَعْمَلْتَ الحَزْمَ، لَنَهَاكَ عَن هذا العَزْمِ، وَلكِنَّكَ أَعْمَلْتَ الرَّأْيَ الفَاتِلَ[11] وَاسْتَنْتَجْتَ العَقِيْمَ الحائِلَ[12]، فَأَوْقَعَكَ في هذِهِ الرَّذائِلِ، فَلَمَّا لَسَعَتْهُ حُمَّةُ المَلامِ، تَصَدَّى لِلْكَلامِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ، وَنَفَسٍ مُتَهَافِتٍ: واللهِ مَا خَرَجْتُ في هذا اليَومِ العَصِيْبِ إِلاَّ لأُحَصِّلَ وَأُصِيْبَ، وَلا تَلَقَّيْتُ [٤/ب]

---

(١) الوكون: جمع وَكْن، بالفتح، وهو عشُّ الطائر، مثل: وكر. اللسان (وكن).

(٢) الغيطان: الشجر الكثيف الملتفّ. وكذلك العشب، يقال: غيطة وغيطلة. اللسان (غيط).

(٣) المنازه: جمع متنزَّه. اللسان (نزه).

(٤) السِّيماء: العلامة.

(٥) مقرور: بارد. اللسان (قرّ).

(٦) جيبُ القميص ونحوه ما يدخل منه الرأس عند لبسه، وجيب الثوب ما توضع فيه الدراهم ونحوها. اللسان (جيب).

(٧) مزرور: ذو أزرار، أو مجموع جمعاً شديداً. اللسان (زرر).

(٨) المَحْل: انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ. اللسان (محل).

(٩) قدعه عن الشيء: كفّه ومنعه، وكذا "قذعه".

(١٠) المساور: جمع سَوْرَة، وهي النزق والحِدّة. اللسان (سور).

(١١) الفاتل: الصارف، يقال: فتله عن رأيه: صرفه ولواه.

(١٢) الحائل: كل أنثى لا تحبل، يقال: امرأة حائل، وناقة حائل.

هذا البَرْدَ، إلاَّ لأَظْفرَ مِن مَعَادِنِ الخَيْرِ بِالبُخْتِ وَالبُرْدِ[1]، وَلا فَارَقْتُ الكِنَّ، إلاّ لأَسْتَرِيحَ وَأَكِنَّ[2]، وَلا بَايَنْتُ الأَوْطانَ، إلاَّ وَقَدْ عَلِقَتْ بِي مِنَ البَلايا الأَشْطانُ، وَخَلْفِي صِبْيَةٌ صِغارٌ في أَسْرِ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ، قَدْ وَقَذَهُمُ[3] الجُوعُ، وَمَنَعَهُمُ الهُجُوعُ، وَقَدْ أَرْسَلُوا بِي وَانْتَظَرُوا، وَسِوَايَ مَا لَمَحُوا وَلا نَظَرُوا، فَكُفَّ عَنِّي غَرْبَ[4] لِسَانِكَ، وَكَفْكِفْ عَلَيَّ بِإِحْسَانِكَ، وَأَوْفِ مِن الخَصَاصَةِ وَلَوْ بِقُصَاصَةٍ، وَجَازِ مِن المَعْرُوفِ وَلَوْ بِجَزَّةٍ مِن صُوفٍ خَرُوفٍ، وَوَاسِ مِنَ الفَقْدِ، وَلَوْ بِأَقَلِّ النَّقْدِ، وَأَسْعِفْ مِنَ الفَقْرِ وَلَوْ بِقَدْرِ مَا يَتَحَصَّلُ[5] العُصْفُورُ مِنَ النَّقْرِ، وَخَلِّصْ مِنَ العُدْمِ، وَلَوْ بِنَزْرٍ مِنَ الغَذْمِ[6]، وَأَنْقِذْ مِنَ الفَاقَةِ وَلَوْ بِرُقَاقَةٍ، وَأَعْطِ مِنَ الإِحْسَانِ وَلَوْ بِحَلاوَةِ اللِّسَانِ، فَتَحْصِيلُكَ الأَجْرَ خَيْرٌ مِن هذا الزَّجْرِ، وَبَذْلُكَ القَدْرَ اللَّطِيفَ أَصْلَحُ مِنْ هذا التَّعْنِيفِ، وَحَيْثُ لا إِحْسَانَ، يا إِنْسَانُ، فاتْرُكْنِي كَفَافاً، وَاذْهَبْ عَنِّي مُعافًى، وَاسْتَعِذْ باللهِ، وَلا تَكُنْ عَنْ ذلِكَ بِالغَافِلِ وَلا اللاَّهِ، فَحَرَكَاتُ الأَفْلاكِ، لا تُبْقِي مَعَهَا سَعَادَةً ولا إِفْلاكَ، فَخَرَجَ قَلْبِي بِعَضْبِ كَلامِهِ، وَنَدِمْتُ عَلَى ما نَدَّ مِنِّي مِن مَلامِهِ، وَأَبْدَيْتُ لَهُ اعْتِذَاراً، وَأَقَمْتُ لَهُ أَعْذاراً، وَوَاسَيْتُهُ بِما حَضَرَ، وَلَمْ أَدْرِ مِن بَدْوٍ هُوَ أَوْ حَضَرٍ، ثُمَّ ثَنَيْتُ عَنْهُ عِنَانِي، وَجَعَلْتُهُ نَصْبَ عِيَانِي، وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ وَلا يَرَانِي، لأَسْبُرَ قَدْرَ حَدْسِي وَفَهْمِي، وَأَدْفَعَ ظَنَّ خَطَأِي وَوَهْمِي، هذا، وَالصَّدَقَاتُ تَرِدُ عَلَيْهِ تَتْرَى، وَتَفِدُ شفعاً وَوَتْرا، وَلا يَجِدُ وَنْياً وَلا فَتْرا[7]، وَهُوَ يَزِيدُ في رِعْدَتِهِ، وَيُظْهِرُ أَثَرَ شِدَّتِهِ، إِلَى أَنْ دَنا وَقْتُ الأَصِيلِ، وَهُوَ لا يَمَلُّ مِن التَّحْصِيلِ، وَقَدْ مَلأَ العِيَابَ[8]، مِنَ الدَّراهِمِ وَالثِّيابِ، ثُمَّ لمَّا جَفَّتِ اليَنَابِيعُ، وَانْصَرَفَ المَتْبُوعُ والتَّبِيعُ، نَظَرَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وَجَمَعَ قُوَاهُ وَشَدَّ أَسْرَهُ، وَجَلَسَ مُسْتَوِياً، وَاعْتَدَلَ مِنْهُ ما كانَ مُلْتَوِياً، وَاغْتَمَرَ خُلُوَّ الطَّرِيقِ، وَأَمِنَ مِن دَوَاعِي التَّطْرِيقِ، وَقامَ يَشْتَدُّ، وَيَقْصُرُ وَيَمْتَدُّ، فَلَمّا لَمَحَ مِنِّي أَنِّي لَهُ مُتَرَقِّبٌ، وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ، فَقُمْتُ في أَثَرِهِ سَرِيعاً، وَسِرْتُ سَيْراً ذَرِيعاً، أَقَعُ وَأَقُومُ، وَأَخُوضُ في ذلِكَ اللَّثَقِ[9] وَأَعُومُ، وَأَلْحَظُهُ بالعَيْنِ وَلا أَسْأَلُ كَيْفَ ذَهَبَ وَلا أَيْنَ؟ إِلَى أَنْ أَفْضَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى دَرْبٍ مِنَ الدُّرُوبِ، فيهِ أَنْواعٌ مِنَ الحُسْنِ

---

(١) البخت: الإبل الخراسانية، والبُرْد:) كساء مخطط يلتحف به. اللسان (بخت) و (برد).

(٢) أكِنَّ: أستتِرُ. اللسان (كنن).

(٣) وقذهم: صرعهم، وغلبهم، وتركهم عليلين.

(٤) الغَرْب: مِن معانيهِ: أوّل كلّ شيءٍ وحدُّه، يقال: غرب السيف والسكين والفأس. اللسان (غرب).

(٥) يتحصّل: يستخلص.

(٦) الغذم: الأكل.

(٧) في الأصل: ولا وقترا، والصواب ما أثبته. ووَنْياً: فتوراً وضعفاً. فتراً: ضعفاً. اللسان (ونى) و (فتر).

(٨) العياب: الخرق التي يوضع فيها المتاع وتصر فيها الدراهم. اللسان (عيب).

(٩) اللثق: الندى، والماء والطين المختلطان، يقال: مشينا في لثق: وحل. اللسان (لثق).

وَضُرُوبٌ، فَقَصَدَ باباً عَالِيَ البِناءِ، رَحِيْبَ الفِناءِ، قدْ صُنِعَ مِن السِّيَاجِ، وَطُعِّمَ بالآبَنُوْسِ والعَاجِ، فَاسْتَفْتَحَ استِفْتَاحَ مَالِكٍ، وَدَخلَ دُخُوْلَ المَلِكِ إِلَى بعْضِ المَمَالِكِ، وَقَفَلَ ما فَتَحَ، وَغابَ الفَاتِحُ وَالمُسْتَفْتَحُ، فَرَأَيْتُها عَضِلَةً[1] تَلْعَبُ بالعُقُوْلِ، وَتَدْعُوْ إِلَى اسْتِعْمَالِ الفُضُوْلِ، فَمَكَثْتُ رَيْثَمَا اسْتَراحَ مِن ذلِكَ المَرَاحِ، / وَتَقَدَّمْتُ إِلَى البَابِ طارِقاً، وَمِنَ الرَّدِّ فَارِقاً[2]، فَفَتَحَ البَابَ شَابٌّ [٥/أ] حَسَنُ الثِّيَابِ، وَعَلَيْهِ مِنَ الفِرَاءِ المُغَشَّاةِ، وَالجُبَبِ المُوَشَّاةِ، ما يَسْتَوْقِفُ النَّاظِرَ، وَيُعْجِزُ المُضَاهِيَ وَالمُنَاظِرَ، فَحَيَّا وَتَكَرَّمَ، وَلا تَضَجَّرَ وَلا تَبَرَّمَ، وَلا سألَ فِيما أَتَيْتُ، وَلا فَحَصَ عَمَّا لهُ تَغَيَّبْتُ، وأَقْسَمَ[3] أَنْ أَكُوْنَ لهُ ضَيْفاً، وَلَوْ أَقَمْتُ شِتاءً وَصَيفاً، فَحَمِدتُّ مَلْقَاهُ، وَآمِنْتُ مِمَّا كُنْتُ أَتَوَقَّاهُ، وَدَخَلَ بي إِلَى الدَّارِ الرَّفِيْعَةِ الأَبْنِيَةِ، وَسِيْعَةِ الأَفْنِيَةِ، مَفْرُوْشَةِ الأَرضِ بِالرُّخَامِ المُلَوَّنِ، وَقَدْ تَصَوَّرَ في أَبْدَعِ صُوْرَةٍ وَتَكَوَّنَ، وَبِها مِنَ البُسُطِ الرَّفِيْعَةِ، وَالفُرُشِ البَدِيْعَةِ، وَالسُّرُرِ المَرْفُوْعَةِ، وَالأَكْوَابِ المَوْضُوْعَةِ، مَا يُبْهِرُ الجَنَانَ، وَيُذَكِّرُ بالجِنَانِ، وَقدْ حَوَتْ مِنَ الجَوَارِيْ وَالوِلْدَانُ، مَا يُفْتَخَرُ بِهِ وَيُزْدانُ، وَرَحَّبَ وَأَهَّلَ، وَمَا أَحْزَنَ بلْ أَسْهَلَ، وَاسْتَدْعَى بِمائدَةٍ، مِنَ الحُسْنِ مائدَةٍ، وَعَلَيْها نَقِيُّ الكَمَاجِ[4]، وَمُكَرْدَنُ[5] الدَّجَاجِ، وَلَطِيْفِ الزِّيرِبَاجِ[6]، وَبَدِيْعِ النِّيرِبَاجِ[7]، وَأَنْوَاعٌ مِنَ المَآكِلِ الشَّهِيَّةِ، وَأَجْناسٌ مِنَ الحَلْوَى الزَّهِيَّةِ، بِما لا يُعَدُّ مِثْلُهُ إِلاَّ لِضَيْفٍ[8] كَرِيمٍ، أَوْ مَحْبُوبٍ نَدِيمٍ. هذا، وَالفِكْرُ مَشْغُوْلٌ بذلِكَ الفَقِيْرِ الدَّاخِلِ، وَسَبْرِ خَبَرِهِ المُتَدَاخِلِ، فَلَمْ أُعِرْ ذلكَ طَرْفاً، وإِنْ كانَ قدْ تَسَامَى حُسْناً وَظَرْفاً، وَلَمْ أَمُدَّ إِلَيهِ يداً، وَحِدْتُ عَنْهُ حَيْداً، فَأَنْكَرَ فَعْلَتِي، واسْتَنْكَرَ خَلَّتِي، وَأَخَذَ يلجُّ[9] وَيُبْرِمُ، وَأَنا بِصُوْرَةِ الضَّجِرِ المُتَبَرِّمِ، لا أُصْغِي إِلَى إِبْرامِهِ، وَلا أَلْتَفِتُ إِلَى تَحَرُّقِهِ وَاضطِرامِهِ، فَحِيْنَ آيِسَ مِنَ الإِجَابَةِ، وَعَلِمَ أَنَّ دَعْوَتَهُ غَيْرُ مُسْتَجابَةٍ، سَأَلَ عَنِ السَّبَبِ المَانِعِ، فَقُلْتُ: ذلِكَ المُعْتَرُّ القانِعُ، الَّذِيْ دَخَلَ هذِهِ الدَّارَ بَعْدَما طَوَّفَ وَدارَ، دُخُوْلَ مَنِ أَمِنَ الرَّدَّ، وَلَمْ يَخْشَ الطَّرْدَ، وَلَئِنْ لَمْ أَعْرِفْ خَبَرَهُ، وَأَبْلُ مَخْبَرَهُ، لا أَقْضِمُ فِيما حَضَرَ قَضْمَةً، وَلا أَسِيْغُ مِنْهُ لُقْمَةً، فَعِنْدَها تَهَلَّلَ وَجْهُهُ وَتَبَسَّمَ، وَقالَ: لَمْ يَبْقَ مَنْ يُتَوَسَّمُ،

---

(١) عضلة: مستغلقة. اللسان (عضل).

(٢) فارقاً: جزعاً خائفاً. اللسان (فرق).

(٣) في الأصل: ولا أقسم، وما أثبتّه هو الملائم للمعنى والمقام.

(٤) الكماج: قيل: الكَمَجُ طَرَفُ مَوْصِلِ الفَخِذِ في العَجُزِ. اللسان (كمج).

(٥) مكردن: لم أجد لها معنًى

(٦) الزيرباج: فارسية معرّبة، من أنواع الطبيخ والحلوى التي تذكر في كتب التراث.

(٧) النيرباج: طعام فارسي.

(٨) في الأصل: لضعيف.

(٩) يلجّ: يتمادى في الخصومة.

فَلَمْ أَفْهَمْ كُنْهَ فَحْوَاهُ، وَلا عَلِمْتُ سِرَّ نَجواهُ، إِلَى أَنْ قالَ: أَنَا هُوَ ذلِكَ الفَقِيْرُ، الَّذِيْ أَعْجَزَهُ الفَتِيْلُ وَالنَّقِيْرُ، فَعِنْدَما تَحَقَّقْتُ مَعْرِفَتَهُ، أَكْبَرْتُ فُرْقَتَهُ، وَعِفْتُ حِرْفَتَهُ، وَأَخَذْتُ أُنْكِرُ عَلَيهِ تِلْكَ الفِعَالَ، مَعَ ما أَنْعَمَ عَلَيهِ الكَبِيْرُ المُتَعَالُ، فَقالَ: اعلَمْ أَنَّ الحِرْفَةَ السَّاسانِيَّةَ[1] خَارِجَةٌ عَنِ الأَخْلاقِ الإِنْسانِيَّةِ، وَأَنا مِنْ ذلِكَ القَبِيْلِ، لا أَعْرِفُ الدَّبِيْرَ مِنَ القَبِيْلِ[2]، ولا المُخْصِبَ مِنَ المحِيْلِ[3]، وَلا المُبْرَمَ مِنَ السَّحِيْلِ[4]، أَرِدُ المَهَالِكَ وَالمَهَاوِي[5]، وَأَتْبَعُ الصَّاعِدَ وَالهاوي[6]، لا أَتَحَامَى البَرْدَ وَالحَرَّ، وَلا أَدَعُ العَبْدَ وَالحُرَّ، وَلا يَجْبَهُنِي الرَّدُّ، وَلا يَمْنَعُنِي الصَّدُّ وَالطَّرْدُ، وَلا أَمَلُّ مِنَ الإِلْحَاحِ، وَأَسْتَخْرِجُ النَّارَ مِنَ الزَّنْدِ الشَّحَاحِ، وَلا أَدَعُ الإِبْرامَ دُوْنَ بُلُوغِ المَرَامِ، وَلا أَخْشَى حُمَّةَ[7] لاسِعٍ، وَلا أَدِيْنُ لِدانٍ وَلا شَاسِعٍ، وَلا أَرْهَبُ مِمَّنْ بَرِقَ وَرَعَدَ، وَلا أَحْفِلُ بِمَنْ قَامَ وَقَعَدَ، أَيْنَمَا سَقَطْتُ لَقَطتُ، وَحَيْثُمَا انْخَرَطْتُ فَرَطْتُ، وَأَحُوْزُ الحَقِيْرَ والجَلِيْلَ، وَالكَثِيْرَ وَالقَلِيْلَ، بِحِيَلٍ مُخْتَلِفَةِ الأَجْناسِ وَالأَنْواعِ، مُتَبَايِنَةِ الأَشْبَارِ وَالأَبْوَاعِ، لا أُحْصِيْهَا عَدَداً، وَأَعُدُّها لِلْغِنَى عُدَداً، وَجَمِيْعُ ما تَرَاهُ مِمَّا أَثَّلَهُ[8] ذلِكَ وَأَثْرَاهُ، فَكُلٌّ هَنِيْئاً مَرِيْئاً، وَكُنْ مِمَّا اقْتَرَفْتُهُ بَرِيْئاً، فَأَكَلْتُ مَعَهُ أَكْلَ مَنْ أَرْهَقَهُ الحَيَاءُ، وَأَوْثَقَهُ الاسْتِحْيَاءُ، لِعِلْمِيْ بِوَخَامَةِ تِلْكَ المَرَابِعِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَنا ثَالِثٌ وَلا رَابِعٌ، وَحِيْنَ اسْتَوْفَيْنا ما قُدِّرَ وَقَضِيَ، وَأُعْجِبَ بِمُوافَقَتِيْ وَرَضِيَ، سَأَلْتُهُ أَنْ يُرِيَنِي مِن حِيَلِهِ، وَعَجَائِبِ عَمَلِهِ، مَا أُوْثِرُهُ عَنْهُ وَأَنْقُلُهُ، وَأَتَمَقَّلُهُ[9] مِنهُ وَأَعْقِلُهُ، فَقَالَ: صَلِّ غَداً في المَسْجِدِ الجَامِعِ، وتأمّل ما يَقَعُ مِنَ المَعَامِعِ، فَإِنَّكَ تَشْهَدُ مِنَ العَجَبِ ما لَمْ يَأْتِ مِثْلُه في رَجَبَ، فَبَكَّرْتُ بُكُوْرَ الغُرابِ، لأُشاهِدَ غَرائِبَ أَعْمَالِ الأَعْرابِ، فَقُدِّرَ جُلُوْسِي عِنْدَ المِنْبَرِ، وَقَدْ حَضَرَ مَنْ عَقَّ وَمَنْ بَرَّ، فَعِنْدَمَا بَرَزَ الخَطِيْبُ وَصَعَدَ وَصَوَّبَ نَظَرَهُ في النَّاسِ، إِذا بِشَخْصٍ أَكْتَعَ ذِيْ عَرَجٍ، يُخَالُ إِذا مَشَى أَنَّهُ يَنْحَطُّ مِنْ دَرَجٍ، مَحْجُوبِ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّهُ بِكُلِّ سُوْءٍ يُمْنَى، وَعَلَيْهِ أَخْلاقٌ، لا

---

(١) الحرفة الساسانية: سبقت الإشارة إليها في الدراسة ص ٨، وانظر لمزيد التفصيل: بديع الزمان الهمذاني، للدكتور مصطفى الشكعة: ٣١٢.

(٢) يقال: لا يعرف قَبيلاً من دَبير: لا يدري شيئاً. اللسان (دَبَر).

(٣) المُحيل: المُجدب. اللسان (محل).

(٤) السَّحيل: الثوب لا يُبرم غَزْله. والحبل يفتل على قوة واحدة.

(٥) في الأصل: المهادي: والصواب ما أثبته.

(٦) في الأصل: الهادي. والصواب ما أثبته.

(٧) حُمَّة: الحُمَّة والحُمَّى: علّة يستحرُّ بها الجسم. اللسان (حمم).

(٨) أثّله: أصّله وكان أساساً له. يقال: مالٌ مؤثل، أي مجموع ذوع أصل، وكل شيء له أصلٌ قديم أو جُمع حتى يصير له أصل فهو مؤثّل. اللسان (أثل).

(٩) أتمقله: أنظر إليه بمقلتي، وهي العين كلها.

يَلْبَسُها مَن لَهُ خَلاقٌ، فَوَقَفَ وُقُوفَ مُتَهافِتٍ، وَسلَّمَ بِصَوْتٍ خافِتٍ، وَقَالَ: يا مَعْشَرَ هذَا الجَمْعِ، / وَمَنْ عُوْفِيَ في البَصَرِ وَالسَّمْعِ، إنَّ هِمَّتِي وَافِيَةٌ، وَحَالَتِي لَيْسَتْ خَافِيَةً، وَقَدْ مُنِيْتُ في هذَا الوَقْتِ – وَأَعُوْذُ بِاللهِ مِنَ المَقْتِ – بِلُقَطَةٍ ثَمِيْنَةٍ في سُوْقِ المَدِيْنَةِ، ساقَهَا إليَّ الحَظُّ المَعْكُوْسُ، وَالجَدُّ المَنْكُوْسُ، لِتَكُوْنَ لِي كَالْكَيِّ فَوْقَ الجُرْحِ، وَالقَرْحِ إثْرَ القَرْحِ، وَلَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى التَّعْرِيْفِ لِحَالِي الضَّعِيْفِ، وَدَمْعِي الذَّرِيْفِ، وَهَا أنا جَالِسٌ في هذَا المَقَامِ، لِيَعْرِفَنِي مَنْ قَعَدَ وَقَامَ، فَمَتَى رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ ذاهِباً، وَيَكُوْنُ لأَجْلِهِ جائِياً وَذَاهِباً، فَدُلُّوهُ عَلَيَّ وَأَرْسِلُوْهُ إليَّ، فَيَعْرِفُ وِكاءَهُ وَعِفَاصَهُ[1]، وَيَأْخُذُ مَشُوْبَهُ وَخُلاصَهُ، وَإنْ سَمَحَتْ مِنْهُ القَرُوْنَةُ[2] لِفَقْرِي بِمَعُوْنَةٍ، فَهُوَ الَّذِي بَرَّ وَرَبِّ، وَإلاَّ فَالأَجْرُ عَلَى الرَّبِّ، ثُمَّ أَمْسَكَ لِسانَهُ وَحَبَسَ، وَجَلَسَ وَمَا نَبَسَ، فَلَمْ يَكُنْ إلاَّ كَلَمْحِ طَرْفٍ، أَوْ خَطِّ حَرْفٍ، وَإذا بِضَجَّةٍ إثْرَ ضَجَّةٍ، وَعَجَّةٍ إثْرَ عَجَّةٍ، وَالنَّاسُ يُهْرَعُوْنَ إلَى الصَّوْتِ أَفْواجاً، وَفُرادَى وَأَزْواجاً، فَسَأَلَ الخَطِيْبُ عَنِ الصَّائِحِ، وما الَّذِيْ عَرَاهُ مِنَ الفَضَائِحِ؟ فَقَالُوا: عَجُوْزٌ تَلْطِمُ خَدَّيْها، وَتَكْدُمُ ثَدْيَيْها، وَتَزْعُمُ أَنَّها سَقَطَ مِنْها وَدِيْعَةٌ ثَمِيْنَةٌ بَدِيْعَةٌ، ما بَيْنَ دَنَانِيْرَ وَجَوَاهِرَ، كالنُّجُوْمِ الزَّواهِرِ، فَأَمَرَ الخَطِيْبُ بِحُضُوْرِها وَالنَّظَرِ في أُمُوْرِها، فَحَضَرَتْ ثَكْلَى وَلْهَانَةٌ، ذَلِيْلَةٌ مُهانَةٌ، تُسابِقُ دُمُوْعُها قَطْرَ السَّمَاءِ، وَتَلِيْنُ لِمُصابِها الصَّخْرَةُ الصَّمَّاءُ، فَقَالَ الخَطِيْبُ: خَفِّضِيْ عَلَيْكِ، فَقَدْ رَدَّ اللهُ ضالَّتَكِ إلَيْكِ، وَلَيْسَ بَيْنَكِ وَبَيْنَها سِوَى الصِّدْقِ في التَّعْرِيْفِ، وَعَدَمِ الخَطَأِ وَالتَّحْرِيْفِ، فَسَكَنَ رُوْعُها قَلِيْلاً، وَعَلَّلَتْ نَفْسَها بِالأَمَانِيِّ تَعْلِيْلاً، ثُمَّ إنَّها عَرَّفَتْها بِشِيَاتِها[3]، وَوَصَفَتْها بِهَيْئَاتِها. وَبَيَّنَتِ المَظْرُوْفَ والظَّرْفَ، وَلَمْ تُخْطِ بِحَرْفٍ، فَقَالَ الخَطِيْبُ: قَدْ غَلِقَ[4] الرَّهْنُ، وَقَوِيَ الوَهْنُ، فَمَا الَّذِيْ يُجْزَى بِهِ اللاَّقِطُ في رَدِّ هذَا السَّاقِطِ، فَقَالَتْ: إنِّي لأَفْلَسُ مِن طُنْبُوْرٍ، وَأَفْقَرُ مِنْ زُنْبُوْرٍ، وَهِيَ فِي يَدِيْ أَمَانَةٌ، وَتَصَرُّفِيْ فِيْها خِيَانَةٌ، وَلَيْسَ مَعِيْ مَا أَغْرَمُ، وَلَوْ أُحرِقُ عَلَى الإرَمِ[5]، فَإنْ رَدَّهَا قَانِعاً بِالأَجْرِ، فَذلِكَ نِعْمَ النَّجْرِ[6]، وَإلاَّ فَقَدْ تَعَيَّنَ الغَرِيْمُ، وَتَبَيَّنَ السَّحِيْلُ مِنَ البَرِيْمِ[7]، فَقَالَ الفَقِيْرُ: إنَّا للهِ، ولا قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ، لَوْ كانَ لِي [٥/ب]

---

(١) في الأصل: وكاؤه. والوكاء: الخيط الَّذِيْ تشد به الصرة أو الكيس وغيرهما. والعفاص: غلاف يغطى به رأس القارورة، والوعاء من جلد أو خرقة أو غير ذلك يكون فيه زاد الراعي. اللسان (وكى) و (عفص).

(٢) القَرونة: النفس، يقال: أسمحت قرونته: ذلت نفسه وتابعته عَلَى الأمر. اللسان (قرن).

(٣) الشِّيَة: العلامة .

(٤) غَلِق الرهن: لم يوجد له تخلص.

(٥) الإرَم: حجارة أو نحوها تنصب في المفازة ليهتدى بها. اللسان (أرم).

(٦) النَّجْر: الأصل.

(٧) البَريم: كل شيء من خيط وغيره فيه لونان مختلطان، والحبل الَّذِيْ جعل بين حبلين مفتولين ثم فتل الثلاثة حبلاً واحداً. اللسان (برم).

بالطَّمَعِ اهْتِمَامٌ، مَا عَرَّفْتُها بَيْنَ يَدَيِ الإمَامِ، وَلَوْ لَمْ أَخْشَ القَصَاصَ لَرَغِبْتُ في الاخْتِصَاصِ، وَحَيْثُ نَضَبَ ماؤُكِ، وَأَقْشَعَتْ سَمَاؤُكِ، فَلا أَتَحَمَّلُ بِوَدِيعَتِكِ ضَيْراً، واللهُ يُعَوِّضُنِي مِنْها خَيْراً، ثُمَّ رَمَى بِهَا في حِجْرِهَا، وَرَضِيَ بِثَوَابِهَا وَأَجْرِها، فَقَالَ الخَطِيْبُ: يَا مَعْشَرَ الأَنْجَابِ، إنَّ هذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ! مُبْتَلىً فَقِيْرٌ، لَيْسَ لَهُ فَتِيْلٌ وَلا نَقِيْرٌ، يَظْفَرُ بِمِثْلِ هذا الثَّمِيْنِ، وَيَكُوْنُ فِيْهِ بِوَصْفِ القَوِيِّ الأَمِيْنِ[1]، وَيَرُدُّهُ بِدُوْنِ [جَزَاءٍ][2] وَهُوَ مُعَطَّلُ الأَجْزَاءِ! إنَّ هذا لَيَدُلُّ عَلَى كَرَمِ الأَرُوْمَةِ[3]، وَطِيْبِ الجُرْثُوْمَةِ. وَقَدْ تَعَيَّنَ إسْعَادُهُ وَإسْعافُهُ، وَوَجَبَ إكْرامُهُ وَإنْصَافُهُ، فَبَدَأَ الخَطِيْبُ وَبَدَرَ، وَانْثالَتْ عَلَيْهِ البِدَرُ، فَلا يُدْرَى قَدْرُ ما حَصَلَ، وَلا ما إلَيْهِ وَصَلَ، وَقَامَ يَخْطِرُ بِعُرْجَةٍ، وَقَدْ تَبَدَّلَ كَرْبُهُ بِفُرْجَةٍ، وَالنَّاسُ يَتَعَجَّبُوْنَ مِن شَرَفِ قَنْسِهِ، وَكَرَمِ جِنْسِهِ، وَبالخَيْرِ عَلَيْهِ يُثْنُوْنَ، وَيُفْرِدُوْنَهُ بِكَرَمِ الطِّبَاعِ وَلا يَسْتَثْنُوْنَ، فَمَكَثْتُ رَيْثَما قَضَيْتُ الفَرْضَ، وَانْتَشَرَ النَّاسُ في الأَرْضِ، ثُمَّ أَجْفَلْتُ إجْفالَ النَّعَامِ، إلَى بَيْتِ صاحِبِ الطَّعَامِ، لأُخْبِرَهُ بِمَا اتَّفَقَ، وَمَا كَسَدَ وَمَا نَفَقَ، فَإذا هُوَ بِوَصِيْدِ البَابِ جَالِسٌ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مُجالِسٌ، فَحَيَّا وَسَلَّمَ، وَأَخْبَرَنِي بالوَاقِعَةِ قَبْلَ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَعَجِبْتُ لِمُبَادَرَتِهِ بالإخْبَارِ عَنْ تِلْكَ الأَخْبَارِ! وَقُلْتُ: أَنَّى، وَكَيْفَ؟ وَمَتَى عَلِمْتَ نَبَأَ الكَمِّ وَالكَيْفِ؟ فَقَالَ: إنِّي لأَبُوْ عُذْرَتِها، وَحَالِبُ دَرَّتِها، فَقُلْتُ: زِدْنِي بَيَاناً، فَإنِّي شَاهَدْتُ عِيَاناً، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ ذلِكَ الفَقِيْرَ المُبْتَلَى وَمَا بِهِ مِنْ أَنْواعِ الابْتِلاَ، وَشَاهَدتَ لُعَابَهُ السَّائِلَ، وَشِقَّهُ المَائِلَ، وَعَيْنَهُ المَطْمُوْسَةَ، وَصُوْرَتَهُ الَّتي هِيَ[4] في غَمَرَاتِ الأَوْصَابِ مَغْمُوْسَةٌ؟ فَإنَّهُ لَمُحَدِّثُكَ وَجَلِيْسُكَ وَمُحَاضِرُكَ وَأَنِيْسُكَ، وَقَدْ عافَاهُ اللهُ وَشَفَاهُ، وَوَقَاهُ مَحْذُوْرَهُ وَكَفَاهُ، وَأَمَّا العَجُوْزُ الوَارِدَةُ، فَهِيَ الوَالِدَةُ، وَأَمَّا الضَّالَّةُ المَنْشُوْدَةُ، فَهِيَ هذِهِ المَشْهُوْدَةُ، وَأَخْرَجَ تِلْكَ / اللُّقَطَةَ بِعَيْنِها، [٦/أ] وَجَوْهَرِها وَلُجَيْنِها، وَعَرَضَ عَلَيَّ مَا اسْتَجْدَاهُ، وَمَا ظَفِرَتْ بِهِ يَدَاهُ، فَإذا هُوَ يَفُوْقُ الحَصْرَ وَالإحْصَاءَ، وَيُعْجِزُ العَدَّ وَالاسْتِقْصَاءَ، وَعَرَضَ لِي مِنْهُ بِنَصِيْبٍ، فَآلَيْتُ أَلاَّ أَنَالَ مِنْهُ وَلاَ أُصِيْبَ، وَعَجِبْتُ مِن هذا التَّغْرِيْبِ وَالتَّرْتِيْبِ الغَرِيْبِ، فَقَالَ لي: لا تَعْجَبْ لِمَا رَأَيْتَ، وَمَا دَنَوْتَ مِنْهُ وَنَأَيْتَ، فَهذِهِ طُرُقٌ مُتَشَعِّبَةٌ وَمَحَجَّاتٌ مُتْعِبَةٌ، وَلَكِنَّهَا سَهْلَةٌ عَلَى مَنْ عاناهَا وَمَارَسَهَا وَدَانَاهَا، وَكَمْ لِيَ فِيْهَا مِن مَوَارِدَ يَعْرِفُهَا الصَّادِرُ وَالوَارِدُ، وَمَنَاهِلَ يَشْهَدُهَا العَالُّ وَالنَّاهِلُ، وَمَصَائِدَ وَأَشْرَاكٍ، وَحَبَائِلَ وَشِبَاكٍ، لا يَخِيْبُ صَيْدُها، وَلا يَضْعُفُ أَيْدُهَا، وَلَئِنْ طابَتْ بِنَا صُحْبَةٌ، وَتَأَكَّدَتْ مَوَدَّةٌ وَمَحَبَّةٌ، لأُرِيَنَّكَ مِنْهَا عُجَاباً، وَلأَزِيدَنَّكَ بِها إعْجاباً، فَأَظْهَرْتُ لَهُ الانْقِيادَ والمُلاءَمَةَ وَالصُّحْبَةَ

---

(١) هنا كلمة ناقصة، لعلها (قمين) أو (جدير) أو نحوها.

(٢) زيادة يستقيم بها الكلام.

(٣) في الأصل: كروم، والصواب المثبت.

(٤) في الأصل: التي هي هي. تكررت (هي) سهواً.

الدَّائِمَةَ، وَهِمَّتِي مَصْرُوْفَةٌ إِلَى الفِرَارِ وَعَدَمِ السُّكُوْنِ إِلَيْهِ وَالقَرَارِ، وَوَدَّعْتُهُ[1] وَدَاعَ مَنْ لا يَعُوْدُ إِلَيْهِ، وَلاَ يَأْسَفُ عَلَيْهِ.

المَقَامَةُ الثَّانِيَةُ:

حُكِيَ أَنَّ بَعْضَ بَنِي الآمَالِ، أَصْبَحَ صِفْرَ اليَدَيْنِ مِنَ المالِ، لا يَمْلِكُ بِنْتَ لَيْلِه، وَلاَ يَجِدُ مَن يُذْهِبُ عَنْهُ حُزْنَهُ وَوَيْلَه، وَلَيْسَ لَهُ حِرْفَةٌ، بَلْ هوَ مَشْمُوْلٌ بِالخُرْفَةِ[2]، يُمْسِيْ في هَوَسِ الأَمَانِيِّ وَيُصْبِحُ، وَلا يَلْقَى ما بِهِ يَسْتَصْبِحُ. تَعِدُهُ الأَيَّامُ وَتُخْلِفُهُ، وتُبايِنُهُ السَّعادَةُ وَلا تَأْلَفُهُ. لَوْ قَصَدَ البَحْرَ لَجَفَّ مَاؤُه، أَوْ اسْتَمْطَرَ الغَمَامَ لأَقْشَعَتْ سَمَاؤُه، يَدأَبُ لِلثَّرْوَةِ وَيَجْهَدُ، وَلا يَخْرُجُ عَمَّا يَعْهَدُ، وَلا مِن إِغْمَاءِ فَقْرِهِ إِفَاقَةٌ، وَلا يَبْرَحُ عَن مُلابَسَةِ الإِعْدَامِ وَالفَاقَةِ، كَأَنَّمَا يَسْتَمْطِرُ جَهَاماً[3]، أَوْ يَسْتَقْرِيْ كَهَاماً[4]، مُعَذَّبُ البَالِ، خَلِقُ السِّرْبَالِ، يَغْدُوْ وَيَرُوْحُ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَى النَّاسِ، مُصاحِبٌ للإِخْفَاقِ وَاليَأْسِ، قَدْ جَفَاهُ الرُّفَعَاءُ، وَاجْتَوَاهُ[5] الشُّفَعَاءُ، وَمَنْ خَلا إِنَاؤُهُ طالَ عَنَاؤُهُ، وَمَنْ جَفَّتْ أَنْدَاؤُهُ قَلَّ أُوَدَّاؤُهُ، وَمَنْ فَرَغَ وِطَابُهُ لا يُسْمَعُ خِطَابُهُ، وَمَن ذَهَبَ مَالُهُ قَبُحَ جَمَالُهُ، وَمَنْ أَقْفَرَ نادِيْهِ أَعْرَضَ مُنَادِيْهِ، فالدِّرْهَمُ وَالدِّيْنَارُ بِهِمَا يَدْفَعُ الشَّنَارَ وَيَرْفَعُ المَنَارَ، وَتُقْضَى الأَوْطَارُ، وَتُمْنَعُ الأَخْطَارُ[6]:

لَيْسَ سِوَى الدِّرْهَمِ مِنْ صَاحِبِ ... فَكُمْ عَلَيْهِ – الدَّهْرَ – مِن نَاحِبِ
فَالحَازِمُ الرَّأْيِ الَّذِيْ لَمْ يَزَلْ ... لَهُ – مَدَى الأَيَّامِ – بِالسَّاحِبِ
فَهُوَ بِهِ يُصْبِحُ رَحْبَ الفِنَا ... وَمَنْ عَلَيْهِ اليُسْرُ بِالواجِبِ
وَهْوَ لَدَى النَّاسِ رَفِيْعُ الذُّرَا ... بَادِيْ السَّنَا، ذُوْ السَّنَنِ اللاَّحِبِ[7]
وَوَجْهُ مَنْ يَفْقِدُهُ لا يُرَى ... إِلاَّ بِلَوْنِ الأَغْبَرِ الشَّاحِبِ

وَالدَّهْرُ لَهُ تَقَلُّبَاتٌ وَتَحَكُّمَاتٌ وَتَغَلُّبَاتٌ، وَالأَفْلاكُ الدَّائِرَةُ، قَدْ رَسَمَتْ عَلَى الأَنَامِ دَائِرَةَ[8]، فَهُمْ يَتَقَلَّبُوْنَ بَيْنَ نَعِيمٍ وَبُؤْسٍ، وَيُسْرٍ وَعُبُوْسٍ، وَعَلٍّ وَنَهْلٍ، وحَزْنٍ وَسَهْلٍ، وَضِيْقٍ وَرَحْبٍ، وَضَحِكٍ وَنَحْبٍ، وَمَنْ وُعِدَ بالغِنَى مِنَ القِدَمِ خَلَصَ مِن العَدَمِ، وَثَبَتَ لَهُ في السَّعَادَةِ قَدَمٌ. بَيْنَمَا

---

(١) في الأصل: وأودعته.

(٢) الخُرفة: ما يجتنى من الفواكه في الخريف. اللسان (خَرَفَ).

(٣) الجَهام: السحاب لا ماء فيه، ويقال: جاءني من هذا الأمر بجهام: بما لا خير فيه. اللسان (جَهَمَ).

(٤) كَهَمَ الرجل كهامة: بطؤ عن النصرة والحرب. فهو كَهَام، وكهم السيف: كلّ فهو كهام وكهيم.

(٥) اجتواه: كرههُ، ويقال اجتوى القومَ أبغضهم. اللسان (جوى).

(٦) من البحر السريع.

(٧) السَّنَن اللاَّحِب: الطريق الواضح. اللسان (لَحبَ).

(٨) الدابرة الأولى : الذاهبة ، ودابرة الثانية: الهزيمة .

هذا المُفْلِسُ يَسِيْرُ، في يَومٍ عَسِيْرٍ، وَهُوَ بِحَالَةِ المُقَيَّدِ الأَسِيْرِ، إذْ رَأى سِرْبَ نِساءٍ، كَظِبَاءِ الوَعْسَاءِ[1]، يَتَمَايَلْنَ تَمَايُلَ القُضْبَانِ مِنْ غُصُونِ البَانِ، وَيَتَهَادَيْنَ[2] تَهَادِيَ الآرَامِ في رِمَالِ الأَهْرَامِ، وَبَيْنَهُنَّ خَوْدٌ رَدَاحٌ، وَافِرَةُ السِّهَامِ مِنَ الحُسْنِ فائِزَةُ القِدَاحِ، ذاتُ قَدٍّ كامِلٍ، وَحُسْنٍ شامِلٍ، يُشَارُ إِلَيْهَا بِالأَنَامِلِ، فَعِنْدَما حَقَّقَ النَّظَرَ، صارَ كَمَنْ دَهَمَهُ الحَقُّ المُنْتَظَرُ، وَسَلَبَتْ قَلْبَهُ وَخَلَبَتْ لُبَّهُ، وَأَخَذَ يَتْبَعُ الآثارَ، وَلا يَخْشَى العِثَارَ، إِلَى أَنْ أَوْصَلَهُنَّ الدَّارَ، وَعَادَ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ الأَكْدَارُ، وَكانَ قَدْ أُخْبِرَ أَنَّها أَيِّمٌ، وَلَيْسَ عَلَيْها قَيِّمٌ، فَبَاتَ بِأَحْزانٍ يَعْقُوبِيَّةٍ، وَأَدْواءٍ / أَيُّوبِيَّةٍ، لا [٦/ب] تَتَصَافَحُ مِنْهُ الأَجْفَانُ، وَالهُمُومُ قَدْ سَلَّتْ عَلَيْهِ سُيُوفَها مِنَ الأَجْفَانِ.

شِعْرٌ[3]:

كَأَنَّ رُقَادَهُ سُحِرَا ... وَلَمْ يَرَ لَيْلُهُ سَحَرَا
وَأَعْيُنُهُ تَفِيْضُ دَماً ... كَأَنَّ بِهَا الكَرَى نُحِرَا
وَغَيْمُ الغَمِّ لا يَسُهُ ... وَعَنْهُ البِشْرُ قَدْ دُخِرَا
وَجَمْعُ العِشْقِ والإِفْلاَ ... سِ أَثْقَلُ مِن وِزَانِ حِرَا

ثُمَّ لَمَّا انْجَلَتْ غُرَّةُ الصَّبَاحِ، وانْقَضَتْ دَوْلَةُ المِصْباحِ، نَسِيَ همَّ الإِفْلاسِ، وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الإِبْلاسِ[4]، وَجَمَعَ حَزْمَهُ، وَأَيْقَظَ عَزْمَهُ، لِيَنْظُرَ كيفَ التَّدْبِيْرُ، في الخَلاصِ من هذا الخَطَرِ الكَبِيرِ، وَإِذا سَاعَدَتِ الأَقْدَارُ جَرَى الفَلَكُ بالسَّعْدِ وَدَارَ، فَأَحْدَثَ لَهُ الفِكْرُ المُصِيْبُ، أَنْ يَقْصِدَ شَخْصاً مِن بَنِي الخَصِيْبِ[5]، وكانَ بَيْنَهُما صَدَاقَةٌ مُؤَكَّدَةٌ، وَمَحَبَّةٌ مُوَطَّدَةٌ، فَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ، وَما تَجَرَّعَهُ مِن الغُصَصِ، فقالَ: لا تَخَفْ واطْلُبْ ما ثَقُلَ وَخَفَّ، فَهُوَ يُسْرِعُ إِلَى مُنْتَدَاكَ قَبْلَ إِجابَةِ صَدَاكَ، فَقالَ: أُرِيْدُ مِائةً مِنَ النُّضَارِ[6]، وَمَرْكَباً سَرِيْعَ الإِحْضَارِ، وَمَلابِسَ يُفْتَخَرُ بِها وَيُزْدَانُ، وَاثْنَينِ مِن الوِلْدَانِ، وَالصَّبْرَ ما بَيْنَ الهِلالِ والهِلالِ، مِن غَيْرِ عَطَلٍ وَلا اعْتِلالٍ، ثُمَّ يَعُودُ الحقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَرْجِعُ إِلَى مَحَلِّهِ، فَأَعَارَهُ أُذُناً وَاعِيَةً، وَأَجَابَ دَاعِيَهُ، فَسَكَنَ رَوْعُهُ

---

(١) الوعْساء: الأرض اللينة ذات الرمل. اللسان (وعس).

(٢) تهادت المرأةُ: تمايلتْ في مشيتها من غير أن يماشيها أحد. والآرام: الظباء.

(٣) من مجزوء البحر الوافر.

(٤) الإبلاس: القنوط وقطع الرجاء. اللسان (بلس).

(٥) بنو الخصيب: ورد في الأنساب – في ثنايا الحديث عن الأشراف –: ومنهم عامر بن عمرو الخصيب، وإنما سمي الخصيب لسماحته. ومن بني الخصيب هانئ بن مسعود صاحب ذي قار، وأخوه قيس بن مسعود، وهانئ بن مسعود بن عامر بن الخصيب بن عمر بن أبي ربيعة ابن ذهل بن شيبان. انظر: الأنساب، للسمعاني ١٦٤/٢.

(٦) النُّضار: الخالص من كل شيء، والذهب. اللسان (نَضَر).

وَخَزْعُهُ[1]، وانْجَلَى خَوْفُهُ وَفَزَعُهُ، وكانَ حَسَنَ الشَّبابِ، كَثِيْرَ المِزَاحِ والسِّبَابِ، فَتَجَمَّلَ وَتَزَيَّنَ، وامْتَطَى المَرْكَبَ المُزَيَّنَ، وَجَرَى حَوْلَهُ الوِلْدَانُ فَكَأَنَّهُ كانَ مِن بَنِي عَبْدِشَمْسٍ أَوْ بَنِي عَبْدِالمُدَانِ، وَقَصَدَ ذلكَ البَيْتَ، وَهُوَ في لَعَلَّ وَلَيْتَ، تَحْمِلُهُ الأَمَانِيُّ، وَيَسُوْقُهُ القَدَرُ الرَّبَّانِيُّ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ، فَقالَ مَن فَتَحَ: مَنِ الطَّارِقُ، فَقَدْ أَمِنَ الطَّوارِقَ؟ وَمَا المُرادُ، فَقَدْ أَخْصَبَ المَرَادُ؟ فَقالَ: خَاطِبُ نَيْلٍ لا حاطِبُ لَيْلٍ، وَطالِبُ أَلْبَابٍ لا طارِقُ البَابِ. فقالُوا: بَيِّنِ الفَحْوَى، فَلَمْ تُفْهَمِ النَّجْوَى، وَأَوْضِحِ المَرَامَ يا ابْنَ الكِرامِ. فقَالَ: قدْ سَمِعْتُ بِأَصالَةِ هذَا البَيْتِ وَعَرَاقَتِهِ، وَتَأَطُّدِ عُرَى مَجْدِهِ وَوَثَاقَتِهِ، فَآرَدتُ أَنْ أَجْعَلَ لي مِنهُ ظَهْراً، وَنَسَباً وَصِهْراً، وَأنا – بِحَمْدِ اللهِ – عَرِيْقُ المَجْدِ، مُفَاخِرٌ بالأَبِ والجَدِّ، صَاحِبُ عَوَارِفَ وَمَعَارِفَ، وَتَالِدٍ مِنَ السَّعَادَةِ وَطارِفٍ، أَسْعَفُ وَأَسْعِدُ، وَأُدْنِي وَأُبْعِدُ، وَآصِلُ وَأَقْطَعُ، وَأُعطِي وَأَمْنَعُ، فَأَصْبِحُ فَخْرِي الأَنْوَرُ الأَسْطَعُ، وَلِي في المَعَالِي الشَّرَفُ العَالي وَفي المَفَاخِرِ النَّسَبُ الفَاخِرِ، وَلَسْتُ مِمَّنْ يُزَكِّي نَفْسَهُ، وَلا يَعْرِفُ نَوْعَهُ وَجِنْسَهُ، وَأنا وَالسُّؤْدَدُ صِنْوَانِ، وَمَا في الصَّحِيْفَةِ يُعْرَفُ مِنَ العُنْوَانِ، فَعِنْدَها فَهِمُوا الفَحْوَى، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى، وَقَالُوا: صِهْرٌ كَرِيْمٌ، وَلَهُ التَّبْجِيْلُ وَالتَّكْرِيْمُ، وَرَحَّبُوا وَأَهَّلُوا، وَمَا أَحْزَنُوا بَلْ أَسْهَلُوا، وَأَحْضَرُوا الشُّهُودَ، وَأَنجِزَتِ الوُعُودُ، وَبُذِلَ النَّقْدُ، وَتَمَّ العَقْدُ، وانْصَرَفُوا فَرِحِيْنَ، وَقَالُوا: بِالرِّفَاءِ وَالبَنِيْنَ، وَأَبَى هُوَ أَنْ يَنْصَرِفَ، أَوْ يَمِيْلَ عَن قَصْدِهِ أَوْ يَنْحَرِفَ، وَآلَى أَلاَّ يَرِيْمَ، أَوْ يَظْفِرَ بِذلِكَ الرِّيْمِ، فَسَأَلُوْهُ المُهْلَةَ، لِتَبْدُرَ الأَهِلَّةُ[2]، وَيَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ، فَصَمَّمَ عَلَى الامْتِنَاعِ، وَكَشَفَ عن شَدِيْدِ الرَّغْبَةِ القِنَاعَ، وَأَمرَ بِنَصْبِ مَوَائِدِ الوَلِيْمَةِ، وَبَذَلَ في ذلكَ نَفَقَةً عَظِيْمَةً، وَحَضَرَ مِن السَّادَةِ الأَنْجَابِ مَن دُعِيَ فَأَجَابَ، وَنُصِرَ الأَمْرُ، وَاخْتَلَطَ اللَّبَأُ بالتَّمْرِ[3]، وَأَصْبَحَ مَغْبُوطاً مَحْبُوراً، مَسْرُوراً مَجْبُوراً، يَحْمَدُ اللهَ عَلَى بُلُوْغِ الأُمْنِيَّةِ قَبْلَ هُجُومِ المَنِيَّةِ، وَأَخَذَ يُبْدِيْ مِن مَكَارِمِ الأَخْلاقِ وَحُسْنِ الخَلاقِ مَا يَفُوْتُ الأَوْصافَ، وَيُعْجِزُ الوَصَّافَ، وَصَارَ أَهْلُ بَيْتِهِ بِهِ يُغْبَطُوْنَ، وَبِإِحْسانِهِ يَتَقَيَّدُوْنَ وَيَرْتَبِطُونَ، وَلَمْ يُتْرَكْ – وَهُوَ في تِلكَ المَسَالِكِ – سائرٌ[4] وَسَالِكٌ، حتَّى قَارَبَ نَفَادُ النَّقْدِ وَاعْتِيَادُ الفَقْدِ، وَهُوَ لا يُشْعِرُ أَحَداً بِحالِهِ، ولا يُظْهِرُ عَلَى مُحالِهِ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ في المَعَاشِ، وَما يَكُوْنُ بِهِ الانْتِعَاشُ، سِيَّمَا وَقَدْ حَلَّ الأَجَلُ، فاسْتَغَاثَ باللهِ عزَّ

---

(١) خزَعَ عن أصحابه خزْعاً: كان معهم في مسير فتأخر عنهم، وخزع من فلان نال منه ووضع، وخزع الشيء قطعه، وخزع منه شيئاً: أخذه. وأراد هنا ما ناله وقطع منه الهم. اللسان (خزع).

(٢) لتبدر: أي يصير الهلال بدراً عند منتصف الشهر. اللسان (بدر).

(٣) اللَّبَأ: أول اللبن عند الولادة قبل أن يرقّ. اللسان (لبأ).

(٤) في الأصل: سابر، ولا معنى له هنا، والصواب ما أثبته.

وَجَلَّ، وَأَخَذَ / في التَّفْكِيرِ وَالتَّدْبِيرِ، فَلَمْ يَظْهَرْ لهُ قَبِيلٌ وَلا دَبِيرٌ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمَحَ في أَسْفَلِ البَيتِ [أ/٧]
لَوْحاً أَحْمَرَ، مِن فائِقِ المَرْمَرِ، وَلهُ صُوْرَةٌ أَثِيْرَةٌ، يُسَاوِي دَنَانِيْرَ كَثِيْرَةً، فَقَدَّرَ في نَفْسِهِ نَزْعَهُ مِن مَكَانِهِ، وَالمَعِيْشَةَ بِثَمَنِهِ بُرْهةً مِن زَمَانِهِ، فَصَبَرَ إِلَى أَنْ ذَهَبَ أَهْلُ البَيْتِ للحَمَّامِ، وَلَمْ يَبْقَ وَاشٍ وَلا نَمَّامٌ، فَتَحَزَّمَ وَتَشَمَّرَ، وَاقْتَلَعَ ذلِكَ المَرْمَرَ، فَظَهَرَ تَحْتَهُ بَلاطَةٌ فِيهَا حَلَقَةٌ مِنَ الحَدِيْدِ، فَأَخَذَهُ التَّعَجُّبُ الشَّدِيْدُ، ثُمَّ احْتالَ في قَلْعِها، وَنَزْعِها وَخَلْعِها، فَظَهَرَ تَحْتَهَا سُلَّمٌ مِنَ الحَجَرِ، فَمَا تَقَنَّعَ بالكَسَلِ وَلا اعْتَجَرَ[1]، وَلا انْقَبَضَ وَلا انْحَجَرَ، بلْ أَوْقَدَ مِصبَاحاً، وَنَزَلَ وَقَدْ أَحَسَّ فَوْزاً وَرَباحاً، وَإِذا بِسَبْعَةِ أَزْيارٍ مِنَ النُّحَاسِ مَغْرُوْسَةٍ في ذلِكَ الأَسَاسِ، مَسْدُوْدَةِ الأَفْواهِ بِأَسْوَدِ الرَّصاصِ، وَلَمْ يَظْهَرْ بِها ثُقْبٌ وَلا خَصَاصٌ[2]، فَاحْتَالَ في فَتْحِ أَحَدِهَا وَهُوَ عَلَى غايَةِ الرَّهَبِ، فَوَجَدَهُ مَمْلُوءاً بالذَّهَبِ، فَكَادَ يَطِيْرُ فَرَحاً، وَازْدادَ نَشَاطاً وَمَرَحاً، وَأَخَذَ مِنْهُ ما أَرادَ، وَقَدْ أَعْشَبَ مِن سَعْدِهِ المَرَادُ، وَأَعادَ تِلكَ البَلاطَةَ إِلَى مَكَانِها وَبَالَغَ في إِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِها، وَسَوَّى عَلَيْها ذلِكَ المَرْمَرَ وَكَأَنَّ الإِفْلاسَ مَا خَطَرَ بِهِ وَلا مَرَّ، وَأَرْسَلَ إِلَى الحَمَّامِ فَوْقَ مَا جَرَتْ بِهِ العَوَائِدُ، مِنْ مُنَوَّعاتِ المَوَائِدِ، فَأَكَلُوا وَأَطعَمُوا، وَتَفَضَّلُوا وَأَنْعَمُوا، وَعَادُوا بِالبَسْطِ وَالانْشِراحِ، وَمَزِيدِ الأَفْراحِ، وَمِنَ الغَدِ اشْتَرَى لَهُ مَا يُلْبَسُ وَما يُرْكَبُ، وَلا عَدَلَ عَنْ عادَتِهِ في الكَرَمِ وَلا نَكَبَ، وَأَعَادَ مَا اسْتَعَارَ، وَغَسَلَ عَنْهُ دَرَنَ ذَلكَ العَارَ، وَصَارَ كُلَّ قَلِيْلٍ يَتَعَهَّدُ ذلِكَ المَعْهَدَ، وَيَتَسَلَّمُ ذلِكَ السُّلَّمَ، فَكَثُرَ مالُهُ، وَتَأَثَّلَ حَالُهُ، فَكَانَ لا يَصْفَرُ لَهُ وَطْبٌ[3]، وَلا يَدْخُنُ عَلَى نارِهِ حَطَبٌ رَطْبٌ. شِعْرٌ[4]:

إِنَّ المَقَادِيْرَ إِذَا سَاعَدَتْ أَلْحَقَتِ العَاجِزَ بِالحَازِمِ

وَدَامَ عَلَى ذلِكَ مُدَّةً مَدِيْدَةً، وَسِنِيْنَ عَدِيْدَةً، وَهُوَ يَتَأَمَّلُ وَيَتَمَوَّلُ، وَيَنْتَقِلُ في الأَطْوَارِ النَّاجِحَةِ وَيَتَحَوَّلُ، وَاسْتَوْلَدَهَا عِدَّةً مِنَ الأَوْلادِ، وَأَوْسَعَهَا مِن الخَيْرَاتِ بالطَّارِفِ وَالتِّلادِ[5]، ثُمَّ عَنَّ لَهُ

---

(١) اعتجر فلانٌ بالعمامة لفها عَلَى رأسه وردّ طرفها عَلَى وجهه. اللسان (عجر).

(٢) خَصاص: الخصاصة: الفرجة أو الخلل أو الخرق في باب أو غيره، والجمع خَصاص وخصائص. اللسان (خصص).

(٣) الوَطْب: سقاء اللبن، وهو جلد الجذع فما فوقه، ويقال صفرتْ وطابه: مات أو قتل. اللسان (وطب).

(٤) من البحر السريع، وقد ورد البيت بلا نسبة في كتاب العباسي (معاهد التنصيص عَلَى شواهد التلخيص): ٥٣/١، وورد منسوباً إِلَى قابوس بن وشمكير في مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي. لأحمد قبش، دار الرشيد، دمشق. ط ٣، ١٩٨٥م، ص ٣٧٦.

(٥) الطارف: الحديث المستفاد من المال ونحوه وهو خلاف التالد. والتلاد: المال الأصلي القديم. اللسان (طرف) و (تلد).

السَّفَرُ إِلَى الحِجَازِ، وَاسْتِعْمَالِ حَقِيْقَةِ العَزْمِ إِلَى ذلِكَ المَجَازِ، فَكَشَفَ لَهَا مَسْتُوْرَ أَمْرِهِ، وَقَصَّ عَلَيْهَا خَبَرَ زَيْدٍ وَعَمْرِهِ، وَمَا حَصَلَ وَاتَّفَقَ، وَكَيْفَ بَعْدَ الكَسَادِ نَفَقَ[1]:

وَإِذَا السَّعْدُ لاحَظَ المَرْءَ يَوْماً ... فَلْيَنَمْ وَادِعاً وَلا يَخْشَ كَيْدَا

وَبِمَرِّ الدُّهُوْرِ يَزْدَادُ عِزّاً ... وَبِكَرِّ العُصُوْرِ يَكْسِبُ أَيْدَا

فَتَعَجَّبَتْ مِن هذَا الأَمْرِ العَجِيْبِ، وَأَخَذَتْ فِي التَّعْظِيْمِ لَهُ وَالتَّرْحِيْبِ، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ أَبِي أَسَّسَ هذِهِ الأَبْنِيَةَ، وَرَتَّبَ هذِهِ الأَفْنِيَةَ، فَقُمْ بِنا إِلَى هُناكَ، لِنَرَى ما مَتَّعَكَ اللهُ بِهِ وَهَنَّاكَ، فَنَزَلاَ إِلَى تِلْكَ الذَّخِيْرَةِ، وَقَدْ سَأَلا مِنَ اللهِ – عزَّ وَجَلَّ – صَلاحَ السَّرِيْرَةِ، وَفَتَحا مَا كانَ هُنَاكَ مِن الأَزْيَارِ، فإِذَا هِيَ مَمْلُوْءَةٌ مِنَ الذَّهَبِ الوَافِيْ العِيَارِ، وَوَجَدَ فِي بَعْضِهَا رُقْعَةً مَخْتُوْمَةً، تَدُلُّ عَلَى حِكْمَةٍ مَكْتُوْمَةٍ، فَفَتَحاهَا، فَإِذا هِيَ مُحْتَوِيَةٌ عَلَى عِدَّةِ تِلْكَ النُّقُوْدِ، وَفِيْها اسْمُ أَبِيْها المَفْقُوْدِ، فَتَزَايَدَ الفَرَحُ، وَتَزَايَلَ التَّرَحُ، وَزَادَا ارْتِياحاً وَانْتِعاشاً، وَارْتَفَقَا بِذلِكَ مُدَّةَ مَا عَاشَا، إِلَى أَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُما المَوْتُ، وَعَمَّهُمَا الفَقْدُ وَالفَوْتُ.

المَقَامَةُ الثَّالِثَةُ:

رُوِيَ أَنَّهُ كانَ بِدارِ السَّلامِ بَغْدَادَ، تَاجِرٌ لا يُحْصَرُ مالُهُ بِوَزْنٍ وَلاَ تَعْدَادٍ، وَكانَ وَافِرَ النُّبْلِ، صائِبَ النُّبْلِ، سَدِيْدَ الحزْمِ، شَدِيْدَ العَزْمِ، صَادِقَ الوَعْدِ، قَوِيَّ السَّعْدِ، لَهُ حُرْمَةٌ وَوَجَاهَةٌ، وَفِطْنَةٌ وَنَبَاهَةٌ، وَكَرَمٌ وَسَمَاحَةٌ، وَرَصَانَةٌ وَرَجَاحَةٌ، مَقْصُوْداً فِي المُهِمَّاتِ، مَرْجُوّاً فِي المُلِمَّاتِ، يَغْشَاهُ أُولُو الحَوائِجِ، فَيَرْجِعُوْنَ بِأَكْرَمِ النَّتائِجِ، كَأَنَّما أُفْرِغَ فِي قَالَبِ الكَمَالِ، وَكُسِيَتْ خِلالُهُ حُلَلَ الجَمَالِ، غَيْرَ أَنَّهُ / مُعَذَّبُ البالِ، زَائِدُ البَلْبَالِ، لِعَدَمِ الأَوْلادِ، مَعَ وُفُوْرِ الطَّارِفِ مِنَ المالِ وَالتِّلادِ، ثُمَّ [٧/ب]
لَمْ يَزَلْ يَتَخَيَّرُ المَغَارِسَ مِن بَنَاتِ الرُّوْمِ وَفارِس، وَيَتَوَصَّلُ إِلَى الأَصَائِلَ، بِمَحْمُوْدِ الخِلالِ وَالخَصائِلِ، إِلَى أَنْ عَلِقَتْ يَدُهُ بِعَظِيْمَةِ حَسَبٍ، وَكَرِيْمَةِ نَسَبٍ، فَقُدِّرَ عُلُوقُها، وَتَعاظَمَتْ لَدَيْهِ حُقُوقُها، فَنَذَرَ النُّذُوْرَ، إِلَى أَنْ مَضَتِ الأَيَّامُ وَالشُّهُوْرُ، فَأَتَتْ بِوَلَدٍ ذَكَرٍ، تَحِيْرُ فِي حُسْنِهِ الفِكَرُ، فَوَفَّى بِما نَذَرَ، وَلا تَعَلَّلَ وَلا اعْتَذَرَ، وَأَعْطَى وَوَهَبَ، وَجَمَعَ لِتَرْبِيَتِهِ الأُهَبَ، فَنَشَأَ الوَلَدُ نَشْأَةَ الدَّلالِ، مُتَفَيِّئاً مِن ظِلالِ أَبَوَيْهِ بِأَضْفَى الظِّلالِ، ثُمَّ لَمَّا تَرَشَّحَ لِلتَّعْلِيمِ اخْتِيْرَ لَهُ خَبِيْرٌ عَلِيمٌ، لَبِيْبٌ عارِفٌ بِفُنُوْنِ المَعَارِفِ، قَيِّمٌ بِسائِرِ العُلُومِ، مَلِيءٌ بِدَقَائِقِ المَنْطُوْقِ وَالمَفْهُوْمِ، فَسَلَّمَهُ إِلَيْهِ، وَعَوَّلَ فِي تَخْرِيْجِهِ عَلَيْهِ، وَكانَ قَدْ نَشَأَ مَعَهُ جَارِيَةٌ فِي سِنِّهِ، مُشَارِكَةٌ لَهُ فِي فَنِّهِ، فَكانَتْ فِيْمَا تُحَصِّلُهُ تُبارِيْهِ، وَفِيْمَا تَسْبِقُ إِلَيْهِ تُجارِيْهِ، فَنَشَأَتْ بَيْنَهُما مَحَبَّةٌ شَدِيْدَةٌ، وَمَوَدَّةٌ أَكِيْدَةٌ، وَكانَتْ قَدْ أَتْقَنَتْ آلاتِ السَّمَاعِ، وَمَلَكَتْ بِذلِكَ القُلُوْبَ وَالأَسْمَاعَ، وَكانَ هُوَ يَتَلَقَّنُ مِنْها، وَيَأْخُذُ الفُنُونَ

---

(١) من البحر الخفيف.

عَنْهَا، ثُمَّ لمْ يَلْبَثِ الأَبَوَانِ أنْ أجَابَا الدَّاعِيَ، وَنَعَاهُمَا النَّاعِي، فَكَانَ ذلكَ مِن مَبَادِيْ عَكْسِهِ، وَعَوَادِيْ نَكْسِهِ، فَأَخَذَ في سُوْءِ التَّدْبِيْرِ، وَلَمْ يَعْرِفِ القَبِيْلَ مِنَ الدَّبِيْرِ، وَصَرَفَ تلكَ النِّعَمَ في المَفَاسِدِ وَالنَّغَمِ، وَفَرَّقَ ذلكَ المالَ في مَفَاسِدِ الأَعْمَالِ، كمَا قالَ مَن قالَ[1]:

إنَّ الشَّبَابَ وَالفَرَاغَ وَالجِدَهْ
مَفْسَدَةٌ لِلمَرْءِ، أيُّ مَفْسَدَهْ!

فَما أفَاقَ إلاَّ وَقَدْ نَفِدَ ما مَعَهُ في الإنْفَاقِ، وَما ارْعَوَى إلاَّ وَقَدْ ضَلَّ وَغَوَى، فَلَبِثَا مُدَّةً مَدِيْدَةً، وَسِنِيْنَ عَدِيْدَةً، يُكَابِدَانِ الفَقْرَ وَالفَاقَةَ، وَلا يَجِدَانِ مِن إغْمَائِهما إفَاقَةَ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمَا سَبَدٌ وَلا لَبَدٌ[2]، وَآخِنَى عَلَى ذلكَ الَّذِيْ أخْنَى عَلَى لُبَدٍ[3]. فَشَكَتِ الجَارِيَةُ إلَيْهِ سُوْءَ الحَالِ، وَكَيْفَ تَغَيَّرَ مَا كانَ فِيْهِ وَاسْتَحَالَ، وَقَالَتْ: أرَى مِنَ الرَّأْيِ – وَإنْ شَقَّ، وَفي الضَّرُوْرَاتِ يُرْتَكَبُ الأَشَقُّ – أنْ نَرْتَزِقَ بِالأَلْحَانِ، وَنَخْدُمَ المُعْرِبَ وَاللَّحَّانَ، فَالثَّوْبُ يُلْبَسُ وَقَدْ رُقِعَ، وَكُلُّ الحِذَاءِ يَحْتَذِيْ الحَافِيْ الوَقِعْ[4]، وَلاَ بِدْعَ لِمَنْ نَأى عَنْهُ سَعْدُهُ، وَتَسَاوَى قُرْبُهُ وَبُعْدُهُ، وَصفِرَتْ وِطَابُهُ، وَعَسَتْ[5] رِطَابُهُ،

---

(١) لأبي العتاهية، من الرجز:

علمت يا مجَاشعَ بنَ مسعدَهْ
أنَّ الشَّبَابَ وَالفَرَاغَ وَالجِدَهْ
مَفْسَدَةٌ لِلمَرْءِ، أيُّ مَفْسَدَهْ

انظر: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق د. شكري فيصل، د.ط، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م، ص ٤٤٨.

(٢) السَّبَد: ما يطلع من رؤوس النبات قبل أن ينتشر، والبقية من النبت والقليل من الشعر، ويقال: ما لَه سَبَد و لا لَبَد: ما له قليلٌ ولا كثير، أو ما له ذو وبرٍ ولا صوف متلبد، يكنى بهما عن الإبل والغنم، والجمع أسْبَادٌ. انظر: مجمع الأمثال، للميداني ٣ / ٢٥٥.

(٣) لُبَدٌ: اسم آخر نسور لقمان بن عادٍ، سماه بذلك لأنه لَبِدَ فبقي لا يذهب ولا يموت كاللَّبِدِ من الرجال اللازم لرحله لا يفارقه، ولُبَدٌ ينصرف لأنه ليس بمعدول، وتزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها، فلما أُهْلِكُوا خُيِّر لقمان بين بقاء سبع بَعَرات سُمْرٍ من أظْبٍ عُفْرٍ في جبل وَعْرٍ لا يَمَسُّها القَطْرُ، أو بقاء سبعة أنْسُرٍ كلما أُهْلِكَ نَسْرٌ خلَف بعده نسر، فاختار النُّسُور فكان آخر نسوره يسمى لُبَداً وقد ذكرته الشعراء، قال النابغة:

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الَّذِيْ أخنى عَلَى لُبَدِ

انظر: اللسان (لبد).

(٤) كل الحذاء يحتذي الحافي الوقع: يقال وقع الرجل يوقع وقعاً إذا حفي منمره على الحجارة، قال الراجز:

يا ليت لي نعلين من جلد الضبعْ
وشركاً من ثفرٍ لا تنقطع
كل الحذاء يحتذي الحافي الوقع

نصب كل بيحتذي، يضرب عند الحاجة تحمل على التعلق بما يقدر عليه. انظر: مجمع الأمثال: ٢/ ١٣٦ – ١٣٧.

(٥) عَسَا النبات وغيره عَسَاءً وعُسُوّاً: غلُظَ ويبس. اللسان (عسا).

أنْ يَحتَرِفَ وَلَوْ في أدْنَى حِرْفَةٍ، ويستكين لصيال[1] الخُرْفَةِ، فَكَثيراً مَا سَفُلَ العَلِيُّ، وَأفْلَسَ المَلِيُّ[2]، وَلِلدَّهْرِ إدْبَارٌ وإقْبَالٌ، وَلِلزَّهْرِ مُرُوجٌ وَأجْبَالٌ، والفَلَكُ يَدُورُ بالنُّحُوسِ وَالسُّعُودِ، وَالزُّهْرُ[3] تَفْسُدُ بالهُبُوطِ وَالصُّعُودِ، وَلِكُلِّ فَتًى مِن زَمَانِهِ نَبْوَةٌ، وَلِكُلِّ جَوَادٍ في مَيْدَانِهِ كَبْوَةٌ[4]، فَتَأسَّ بِمَن خانَهُ دَهْرُهُ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ قَهْرُهُ، وَلا تَكُنْ عَنِ الرَّجَاءِ بِاللاَّهِ، وَلا تَيْأسْ مِن رَوْحِ اللهِ، فَأطْرَقَ إطْرَاقَ الشُّجَاعِ، ثُمَّ أخَذَ في الحَوْقَلَةِ وَالاسْتِرجَاعِ، وَقَالَ لَها: يا هذِهِ، إنَّ المَوْتَ دُوْنَ هذا الرَّأيِ القائِلِ، وَالفِكْرِ الجائِلِ، وَمُلاقَاةُ المَنَايَا خَيْرٌ مِن مُدَاناةِ الدَّنَايَا، وَمَتَى حُمِدَ لامْرَأةٍ شَوْرٌ؟ أوْ عُهِدَ لِسِباخٍ نَوْرٌ[5]؟ فَكُفِّي غَرْبَ لِسانِكِ، وَانْسَخِي إسَاءَتَكِ بِإحْسَانِكِ، وَالْزَمِي السُّكُوتَ وَالسُّكُوْنَ، واللهُ أعْلَمُ بِما يَكُوْنُ، وَلاَ مَفَرَّ مِن قَدَرٍ، سَوَاءٌ كَثُرَ أوْ نَزُرَ، وَالمَرْءُ مَا دامَ عَلَى ظَهْرِ البَسِيطَةِ، فَدَائِرَةُ الأقْدَارِ بِهِ مُحِيطَةٌ، وَقَدْ تَعْمَلُ الخَرْقَاءُ بِيَدَيْها، وَتَجُوعُ الحُرَّةُ وَلاَ تَأكُلُ ثَدْيَيْهَا[6]، فَأحْفَظَها مَقَالُهُ، وَأغْضَبها وَخْدُهُ[7] في المَلامِ وَإرْقَالُهُ[8]. وَقالتْ: أمَّا إذْ عَدَوْتَ عَنْ رَأيِي وَحَدْسِي، وَمَا حَدَّثَتْنِي بِهِ نَفْسِي، فَخُذْ مَا هُوَ أعلى مِنْهُ وَأسْنَى، وَإنْ كانَ أشَقَّ وَأشْنَا[9]. قَالَ: وَمَا هُوَ – فَدَتْكِ النَّفْسُ، وَكانَ يَوْمُكِ خَيْراً مِنَ الأمْسِ؟ – فَقالَتْ: تَبِيْعُنِي بِأغْلَى الأثْمَانِ، وَتَرْتَفِقُ بِذلِكَ مَدَى الأزْمَانِ، وَأكُوْنُ فِداكَ مِن الإمْلاقِ، واللهُ يُقَدِّرُ التَّلاقِ، فَكَمْ مِن حَبِيْبَيْنِ فَرَّقَ بَيْنَهُما البَيْنُ، وَأليْفَيْنِ أصبَحَا لِلْفِراقِ حَلِيْفَيْنِ، وَهِيَ الأيَّامُ لا يَبْقَى مَعَها اجْتِماعٌ، وَلا يَدُوْمُ فِيها لِنُورِ الْتِماعٌ، وَلَسْنا بِأوَّلِ مَن / مَزَّقَ شَمْلَهُ الفِرَاقُ، وَأعْيَا طِبَّهُ أَلَمُ رَاقٍ، وَمَنْ عَرَفَ أخْبَارَ [أ/٨] بَنِي عُذْرَةَ[10]، أقامَ لِلْفِراقِ عُذْرَهُ، ثمَّ بَكَيَا وَأبْكَيَا، وَآلَما القُلُوبَ بِما شَكَيَا. ثم قالَ لها سَيِّدُها: حَيْثُ اخْتَرْتِ النَّوَى، وَعَاصَيْتِ الهَوَى، وَوَطَّنْتِ النَّفْسَ عَلَى تَحَمُّلِ أعْبَاءِ البَيْنِ، وَتَبَاعُدِ ما بَيْنَ القَلْبَيْنِ، فَإنِّي مُبَادِرٌ إلَى مَا اخْتَرْتِ، وَمُسَارِعٌ إلَى مَا إلَيْهِ آشَرْتِ، وإنْ كانَ قَلْبِي يَقُوْلُ – وَهُوَ

---

(١) الصِّيال: المغالبة، والخرفة من الخَرَف وهو: فساد العقل من الكِبَر.

(٢) المليُّ: كثير المال.

(٣) الزُّهر: ثلاث ليالٍ من أول الشهر. وقد يراد بها: النجوم. اللسان (زهر).

(٤) لكل جوادٍ كبوة: مثل مشهور، ورد في جمهرة الأمثال في أكثر من موضع. وانظر: مجمع الأمثال ٣/١٠٣.

(٥) السِّباخ: جمع سَبْخة، وهي أرضٌ ذات ملحٍ ونزٍّ لا تكاد تنبت. والنَّوْر: الزهر الأبيض.

(٦) تجوع الحرة ولا تأكل بثديها: مَثَل، أي لا تكون ظئراً وإن آذاها الجوع. ويروى: ولا تأكل ثديها. مجمع الأمثال ١/١٢٢.

(٧) وخْده: وخدَ البعير: أسرع ووسع الخطو ورمى بقوائمه كمشي النعام. اللسان (وخد).

(٨) إرقاله: أرقل في سيره: أسرع، وأرقل إلَى كذا وأرقل فيه: جدّ وأسرع. اللسان (أرقل).

(٩) أشنا: شنأه شنئاً وشنآنا: أبغضه و تجنبه. اللسان (شنأ).

(١٠) يقال: هوًى عُذري: عفيف، نسبة إلَى (بني عُذْرة) لاشتهارهم به. انظر شيئاً من أخبارهم في: العاشق العفيف، للدكتور / مسعد العطوي، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ٩-٤٩.

كالمَعْقُولِ –[1]:

فِـرَاقُ الحَبِيْـبِ أَشَـدُّ الفِـرَاقِ ... وَفِي الطِّبِّ يَبْعُدُ عَن أَلْفِ رَاقِ
وَمَا حَالُ مَن حَلَّ أَرْضَ الحِجَازِ ... وَمَحْبُوبُـهُ حَـلَّ أَرضَ العِـرَاقِ
لَحَـا اللهُ دَهْـراً قَـضَى بِـالنَّوَى ... وَغَادَرَ قَلْبَ الشَّجِيْ في احْتِراقِ
فَمَـن شَـوْقِهِ يَتَمَنَّـى المُحَـالَ ... وَقَـدْ وَصَـلَتْ رُوْحُـهُ لِلتَّرَاقِـيْ
يَـوَدُّ البُـرُوقُ تُجَارِيْـهِ أَوْ ... يُـسَنَّى لَـهُ مَرْكَـبٌ كَـالبُرَاقِ
وَمَهْمَـا يُـسَدِّدُهُ سَـهْمُهُ ... فَسَهْمُ الفِراقِ لَهُ في انْخِراقِ

وَكَانَ بَيْنَهُما قَمِيْصٌ وَكِساءٌ، يَتَعَاوَرَانِهِ في الصَّبَاحِ وَالمَسَاءِ، فَأَلْبَسَها القَمِيْصَ، وَاسْتَعَارَ لَها رِدَاءً مِنَ الجَارِ، وَتَلَفَّعَ بِكِسائِهِ وَخَرَجَا مِنَ الوِجَارِ، فَلَمَّا بَلَغَ بِها سُوْقَ الرَّقِيْقِ، وَهُوَ وَهِيَ في بُكَاءٍ وَشَهِيْقٍ، صادَفَ رَجُلاً مِن أَشْرافِ البَصْرَةِ، قدْ زَيَّنَ بِكَمَالِهِ عَصْرَهُ، وَجَمَّلَ بِخِلالِهِ مِصْرَهُ، وَقَدْ دَخَلَ إِلَى السُّوقِ مَعَ لُمَّةٍ مِن الأَعْيَانِ، لِمَشْرَى[2] مَا يَخْتارُهُ مِن القِيانِ، فَعِنْدَمَا شاهَدَ بَدِيْعَ مَعَانِيْها، وَأَعْرَبَ نُطْقُها عَنْ بَيانِ مَبَانِيْها، سَلَبَتْ لُبَّهُ، وَخَلَبَتْ قَلْبَهُ، وَهانَ عَلَيْهِ فِيها بَذْلُ الكَثِيْرِ، وَنَقْدُ الخطِيْرِ وَالأَثِيْرِ، فابْتَاعَهَا بِأَلْفَي دِيْنارٍ مِنَ الذَّهَبِ، غَيْرَ مَا مَنَحَ السَّمَاسِرَةَ وَوَهَبَ، فَعِنْدَمَا تَسَلَّمَ النَّقْدَ، وَتَحَقَّقَ الفَقْدَ، عَلِمَ مَنْ خَسِرَ وَمَن رَبِحَ، وَقَدْ مَاتَ مَا ذُبِحَ، فَخَرَجَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ، وَالأَسَفُ مُسْتَوْلٍ عَلَيْهِ، إِلَى أَنْ مَرَّ بِمَسْجِدٍ بِحافَّةِ دِجْلَةَ، وقدْ أَجْلَبَ عَلَيْهِ الغَمُّ خَيْلَهُ وَرَجْلَهُ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ مُسْتَرْوِحاً مِنَ الكَرْبِ، وهُوَ لا يَعْرِفُ[3] وَنَشَبَ فِيهِ العَكْسُ بِأَشْطَانِهِ، فَتَوَسَّدَ المالَ، وذلِكَ مِن جُمْلَةِ الإِهْمَالِ، فَعِنْدَمَا أَخَذَتْهُ السِّنَةُ، واسْتَحْلَى وَسَنَهُ، أَحَسَّ بِمَنْ يَسْحَبُ الكِيْسَ، فقَامَ وهوَ في غَمَرَاتِ التَّعْكِيْسِ، لِيَلْحَقَ السَّارِقَ، وهُوَ أَسْرَعُ مِنَ السَّهْمِ المَارِقِ، وَإِذَا بِرِجْلِهِ إِلَى وَتِدٍ هُناكَ مَرْبُوطَةٌ، رَبْطاً مُحْكَماً لا أَنْشُوْطَةٌ، فإِلَى أَنْ يَحُلَّ ذلكَ الرِّبَاطَ، ذَهَبَ السَّارِقُ وَلَمْ يَتَبَاطَ، فدَخَلَ عَلَيْهِ مَا لا يَحْمِلُهُ قَلْبٌ، وَلا يَقُوْمُ لَهُ لُبٌّ، وَهُوَ ذهَابُ النَّقْدِ، وَالحُصُوْلُ عَلَى الفُرْقَةِ وَالفَقْدِ، فاسْتَحْلَى المَوْتَ، واسْتَطْيَبَ الفَوْتَ، وَأَلْقَى نَفْسَهُ في ذلِكَ التَّيَّارِ، مِن جَوْرِ اللَّئِيْمِ العَيَّارِ، وكانَ بِجَانِبِ الدِّجْلَةِ ناسٌ وُقُوْفٌ، فَأَلْقَوا أَنْفُسَهُمْ وَرَاءَهُ وَخَلَّصُوهُ مِنَ الحُتُوفِ، فَخَرَجَ في حَالَةِ الإِغْمَاءِ، وقَدْ امْتَلأَ جَوْفُهُ مِنَ المَاءِ، وَالنَّاسُ بَيْنَ ضَاحِكٍ مِنْهُ وَمُتَوَجِّعٍ، وَسَاخِرٍ وَمُسْتَرْجِعٍ، وَكَانَ في ذلِكَ الجَمْعِ صَدِيْقٌ لأَبِيْهِ، يُشْفِقُ عَلَيْهِ وَيَرْأَبِهِ

---

(١) كالمعقول: عقلَ الرجلَ: لوى رجلَه عَلَى رجله وأوقعه عَلَى الأرض، وعقل فلاناً عن حاجته: حبسه عنها، اللسان (عقل). والأبيات من البحر المتقارب.

(٢) في الأصل: لمشتري.

(٣) من خلال السياق الَّذِي التزم المؤلف السير عليه وهو لزوم ما لا يلزم أظن أن هنا نقصاً.

يُرَبِّيْهِ، فَسَأَلَهُ عَنِ الحَالِ فَقَصَّ عَلَيْهِ ما إلَيْهِ اسْتَحَالَ، فَتَأَلَّمَ لِبَلائِهِ، وَتَذَمَّمَ لِسُقُوطِهِ بَعْدَ اعْتِلائِهِ، وَوَاساهُ بِمَا حَضَرَ مِنَ النَّقْدِ، لِيَرُمَّ بِهِ بَعْضَ خَلَلِ ذلِكَ الفَقْدِ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ بالسَّفَرِ مِن ذلِكَ الإقْلِيْمِ، لِئَلاَّ يُرَى بِصُوْرَةِ المَلِيْمِ، وَمُعَانَاةُ الأَسْفَارِ يُرْجَى مِنْها لِدُجَى الكَرْبِ الإسْفَارُ[1]، وَلَعَلَّهُ يَرَى مَا يُسَلِّيْهِ مُصَابَهُ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ أَوْصَابَهُ، فَامْتَثَلَ أَمْرَهُ، وَخالَفَ زَيْدَ رَأْيِهِ وَعَمْرَهُ، وَبَاعَ ذلِكَ الكِسَاءَ، وَاشْتَرَى له مِن الثِّيَابِ مَا سَتَرَ بَدَنَهُ وَكَسَا، وَقَوَّى عَزْمَهُ عَلَى السَّفَرِ إلَى البَصْرَةِ، عَسَى أَنْ يَضَعَ بِها غِلَّ كَرْبِهِ وَإِصْرَهُ، فَتَوَجَّهَ إلَى السِّيْفِ[2]، وَهُوَ في حَالَةِ العَسِيْفِ وَالأَسِيْفِ، وَقَدِ اسْتَسْلَمَ لِمَا تَقْضِيْ بِهِ الأَقْدَارُ، فَوَجَدَ مَرْكَباً كَبِيراً قَدْ تَهَيَّأَ لِلانْحِدارِ، فَسَأَلَ / مَن فِيهِ [٨/ب]
الاسْتِرْفَاقَ، وَأَنْ يَكُوْنَ فِيهِ مِن جُمْلَةِ الرِّفَاقِ، فَقَالُوا: هُوَ لِرَجُلٍ مِن الكُبَرَاءِ، وَلَيْسَ لَنا فيهِ نَوْلٌ وَلا كِرَاءٌ، اللَّهُمَّ إلاَّ أَنْ تَبِيْعَ هذِهِ الثِّيَابَ المِلاحَ، وَتَلْبَسَ جُبَّةَ مَلاَّحٍ، لِتَكُوْنَ بَيْنَنا مُدْغَماً، فَفَعَلَ ذلِكَ مُرْغَماً، وَجَلَسَ بَيْنَهُمْ إلَى أَنِ انْهَارَ عُمْرُ ذلِكَ النَّهارِ، وَإِذَا بِسِرْبٍ مِن الجَوَارِي، كَالْكَوَاكِبِ الدَّرَارِي، يَتَهَادَيْنَ في المُرُوْطِ والكِسَاءِ، تَهَادِيَ ظِبَاءِ الوَعْسَاءِ، فَطَلَعْنَ إلَى السَّفِيْنَةِ بِوَقارٍ وَسَكِيْنَةٍ، وَمَعَهُنَّ جُمْلَةٌ مِن الخَدَمِ، فَمَا اسْتَقَرَّ بِهِم القَدَمُ إلاَّ وَقَدْ أَقْبَلَ ذلِكَ العَظِيْمُ، فِيْمَنْ هُو مُنْتَظِمٌ في سِلْكِهِ كالدُّرِّ النَّظِيمِ، فَآخَذُوا مَقَاعِدَهُمْ، وَقَدْ أَسْعَفَهُمُ السَّعْدُ وَساعَدَهُمْ، فَتَأَمَّلَهُ حَقَّ التَّأَمُّلِ، وَهُوَ في التَّلَفُّفِ بِثِيابِ المِلاحِ وَالتَّزَمُّلِ، فَإِذَا هُوَ مُشْتَرِي المَحْبُوبَةِ، وَمُؤَجِّجُ النَّارِ المَشْبُوْبَةِ، فَخَفَقَ فُؤَادُهُ، وَتَزَايَدَ ارْتِعَاشُهُ وَارْتِعَادُهُ، فَسَأَلَهُ المَلاَّحُوْنَ عَمَّا عَرَاهُ، فَزَخْرَفَ لَهُم بِما مَوَّهَهُ وَوَرَّاهُ، وَتَماسَكَ وَتَحَمَّلَ، وَتَرَزَّنَ وَتَجَمَّلَ، ثُمَّ لَمَّا أَبْعَدَتِ السَّفِيْنَةُ عَنْ جُدُرِ المَدِيْنَةِ، أَمَرَ بِنَصْبِ سِتَارَةِ اللَّهْوِ وَالطَّرَبِ، وَامْتِحانِ الجَوَارِي، لِيَتَبَيَّنَ النَّبْعَ[3] مِنَ الغَرْبِ[4]، فَشَرَعْنَ في إعْمَالِ الآلاتِ، وَهُنَّ كَالبَدْرِ في الهَالاَتِ، فَأَتَيْنَ بِكُلِّ غَرِيْبَةٍ وَغَرِيْبٍ، وَتَرَكْنَ القُلُوْبَ في حَالَةِ الأَسِيْرِ وَالجَرِيبِ، إلَى أَنْ أَفْضَتِ النَّوْبَةُ إلَى تِلْكَ، المُنْتَظِمَةِ مَعَهُنَّ في السِّلْكِ، فَأَقْبَلَتْ وَدُمُوْعُها تَتَحَادَرُ، وَشُجُوْنُها تَكَادُ أَنْ تَبْرُزَ وَتَتَبَادَرَ، لَوْلا الحَيَاءُ وَالجَزَعُ، وَالحَذَرُ مِمَّا يَقدعُ ويزَعُ، وَعِنْدَما شَدَتْ، وَأَعْمَلَتِ الآلَةَ وَأَنْشَدَتْ، لَمْ يَتَمالَكْ أَنْ صَرَخَ صَرْخَةً مُنْكَرَةً، وَأَتْبَعَها بِأُخْرَى مُذْعِرَةٍ، وَخَرَّ بِحالَةِ الإغْمَاءِ، لا يَعْرِفُ الأَرْضَ مِنَ السَّماءِ، فَسَأَلَ أَكْبَرُ القَوْمِ

---

(١) في الأصل: والإسفار، ولا مكان لواوا العطف هنا.

(٢) السِّيف: الساحل.

(٣) في الأصل: ليتمين، وهو خطأ. والنبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القسيّ، وهو قصير لا يطول. اللسان (نبع).

(٤) الغرْب: بتسكين الراء وفتحها الشجرة العظيمة تصنع منها الأقداح. اللسان (غرب).

عنْ ذلكَ، وقَدِ ارْتَاعَ مَن هُنالِكَ، فَوَرَّوْا عَنْهُ بِأَنَّهُ مَصْرُوعٌ، يَعْتَادُهُ الصَّرَعُ كُلَّ أُسْبُوعٍ، ثُمَّ قَالُوا لَهُ: يا هذا، مَتَى أَبْدَيْتَ مِثْلَهُ، لَمْ تَأْمَنْ أَنْ يُصَيِّرَكَ هذا الرَّئِيسُ مُثْلَةً، فَاعْتَذَرَ بِأَنَّهُ اسْتَخَفَّهُ الطَّرَبُ، ولَمْ يَكُنْ لَهُ في ذلكَ قَصْدٌ ولا أَرَبٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ وَصَلُوا أَطْرافَ جَزِيرَةٍ، واسِعَةٍ كَبِيرَةٍ، فَنَزَلُوا فِيها لِلاسْتِراحَةِ، وَطَلَبِ الرَّاحَةِ، ولَمْ يَتَخَلَّفْ بِالمَرْكَبِ سِواهُ، لِغَرَضٍ اسْتَخَفَّهُ واسْتَهْواهُ، وَإِنَّهُ أَخَذَ عُودَ مَحْبُوبَتِهِ وَسَازَهُ[1]، وَغَيَّرَ صُدُورَهُ وَأَعْجَازَهُ، بِلَحْنٍ انْفَرَدَ بِإِحْكَامِهِ وَمَعْرِفَةِ أَحْكامِهِ، قَصَدَ بِذلكَ إِعْلامَهَا بِأَنَّهُ مَعَها في المَرْكَبِ، ولا نَكَبَ، وَعِنْدَما عَادُوا إِلَى المَجالِسِ، وَقَدْ أَمِنُوا عادِيَةَ المُخاتِلِ وَالمُوالِسِ[2]، أَمَرَها السَّيِّدُ أَنْ تَعُودَ إِلَى الإِنْشادِ، وَتَكُونَ مِمَّنْ عَمَّرَ بُيُوتَ الطَّرَبِ وَشادَ، فَعِنْدَما جَسَّتِ العُودَ، أَخَذَها مَا يَأْخُذُ المُرْتَعِشَ المَرْعُودَ، فَتَغَيَّرَ مِنْها الحالُ، وَتَبَدَّلَ وَاسْتَحالَ، فَأَنْكَرَ السَّيِّدُ مِنْهَا تِلْكَ الحالَةَ، وَسَأَلَها: مَا الَّذِي أَذْعَرَ قَلْبَها وَهالَهُ؟ فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّ سَيِّدَها في هؤلاءِ الجَماعَةِ، وَأَنَّهُ غَيَّرَ سازَ عُودِها في هذهِ السَّاعَةِ، فَقالَ السَّيِّدُ: يا هؤلاءِ، إِنْ كانَ سَيِّدُ هذهِ الجارِيَةِ مَعَنَا فَلْيُجِبِ المُنادِيَ، وَيَحْضُرْ هذا النَّادِيَ، فَلَمْ يَنْطِقْ بِبِنْتِ شَفَةٍ، وَلا أَقَرَّ لَهُ أَحَدٌ بِمَعْرِفَةٍ، فَنَادَى الثَّانِيَةَ، وَنَفْسُهُ بِالجَوابِ عانِيَةٌ، فَلَمَّا لَمْ يَسْمَعْ جَواباً، وَلا خَطاً وَلا صَواباً، قالَ: أُقْسِمُ بِاللهِ لَئِنْ لَمْ يُجِبْنِي هذهِ المَرَّةَ، لأُذِيقَنَّهُ حَيَاةً مُرَّةً، فَقامَ بِكَلامٍ بائِسٍ وَقالَ: مَا الَّذِي دَعَاكَ مَعَنَا إِلَى الرُّكُوبِ، وَلَيْسَ لَكَ حَلُوبَةٌ وَلا رَكُوبٌ؟ وَمَنْ أَحَلَّ لَكَ هذا الحَرَمَ، وَأَوْقَفَكَ في هذا الضَّرَمِ[3]؟ لَقَدْ أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ في بَلِيَّةٍ، إِنْ لَمْ تَخْرُجْ مِنها بِحُجَّةٍ جَلِيَّةٍ، فَبادَرَهُ بِلَيِّنِ الكَلامِ، عَسَى يُطْفِئُ عَنْهُ نارَ المَلامِ، وَقالَ لَهُ: لَمَّا آنَسْتُ نارَ قُدْسِكَ، وَعَلِمْتُ بِحَدْسِي شَرَفَ نَوْعِكَ وَجِنْسِكَ، بِبُلُوغِ المُرادِ، وَخِصْبِ المَرادِ، وَلِمَ لا، وقدْ سَمَا جَدُّكَ، وَنَمَا مَجْدُكَ، وَكَرُمَ أَبُوكَ وَجَدُّكَ، فَلَكَ السَّهْمُ المُصِيبُ، وَوُفُورُ النَّصِيبِ، وَالأَمَلُ الفائِزُ، وَالعَمَلُ الحائِزُ، وَوَافِرُ الجَوائِزِ، وَالقِدْحُ المُعَلَّى، وَالقَدَمُ الأَعْلَى، حَيْثُمَا حَلَلْتَ فَالسَّعْدُ يَخْدُمُكَ، وَأَيْنَمَا نَزَلْتَ فَالنُّجْحُ يَقْدُمُكَ، لا زَالَتِ الأَيَّامُ تُسَالِمُكَ، وَالشُّهُورُ وَالأَعْوامُ تُلائِمُكَ، وَالدُّهُورُ لا تَرَى مُضِرّاً وَلا مُضِيراً، وَلا تَخْشَى مَغْزًى وَلا / مُغِيراً، وَجَعَلَ اللهُ القَضَاءَ عَلَى أَعْدائِكَ حَبْساً حَصِيراً، وَكَانَ اللهُ لَكَ وَلِيّاً وَنَصِيراً، [٩/أ] فَعِنْدَها أَخَذَتْهُ هِزَّةٌ هَاشِمِيَّةٌ، وَأَرِيحِيَّةٌ حاتِمِيَّةٌ، وَتَهَلَّلَ مِنْهُ المُحَيَّا، وَرَحَّبَ وَحَيَّا: هَيَّا بِخَبَرِكَ هَيَّا[4]. فَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ، وَما تَجَرَّعَهُ مِنَ الغُصَصِ، فَحَوْقَلَ وَاسْتَرْجَعَ، وَتَأَلَّمَ وَتَوَجَّعَ، وَقالَ

---

(١) الساز: آلة موسيقية.

(٢) الموالس: المخادع والخائن.

(٣) الضرم: النار المشتعلة.

(٤) في الأصل: هما. وهو خطأ.

لِمَنْ حَضَرَ ذلِكَ الجَمْعَ: أُقْسِمُ بِمَنْ شَقَّ البَصَرَ وَالسَّمْعَ، إنَّ هذا لَمِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ، وَمِثْلُهُ لَمْ يَأْتِ في رَجَبٍ![1] أُشْهِدُكُمْ عَلَى أَنَّ هذِهِ الجَارِيَةَ حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ تَعالَى، وَقَدْ جَعَلْتُهَا بِعَقْدِ الزَّوْجِيَّةِ لِسَيِّدِها حَلالاً، فَكُلٌّ شَكَرَ حَمِيْدَ فِعالِهِ وَأَثْنَى، وَأَقَرَّ أَنَّهُ مُنْفَرِدٌ بِخِلالِ الكَرَمِ وَلا اسْتَثْنَى، وَقالَ: قدْ رَضِيْتُ مِنْكُمَا بِالسَّمَاعِ وَالجُلُوسِ مَعَنَا وَالاجْتِمَاعِ، فَاطْمَأَنَّتْ مِنْهُمَا النُّفُوسُ، وَأَقْبَلَ البِشْرُ وَأَدْبَرَ العُبُوسُ، وَجَلَسا بَيْنَ يَدَيْهِ يُسْمِعانِهِ مَا يَقْتَرِحُهُ مِنَ الأَنْغَامِ، وَيَعْتَرِفانِ لَهُ بِجَزِيلِ الإِنْعَامِ. هذَا، وَاللَّيْلُ زِنْجِيُّ الإِهَابِ[2]، يَغْرُبُ فيهِ شِهابٌ وَيُشْرِقُ شِهابٌ، فَوَصَلُوا إِلَى جَزِيْرَةٍ أَكْبَرَ مِنَ الأُولَى، فَنَزَلُوا فِيْها وَنَزَلَ مَعَهُمْ وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ سُلْطَانُ السُّكْرِ وَاسْتَوْلَى، وَلَمَّا عادُوْا إِلَى المَرْكَبِ عَرَّجَ عَنْ طَرِيْقِهِمْ بِسُكْرِهِ وَنَكَبَ، وَفي الصَّباحِ تَفَقَّدُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَعَظُمَ عَلَيْهِمُ المُصابُ، وَعَدُّوهُ مِن جَلِيلِ الأَوْصابِ، وَأَمَّا الجارِيَةُ، فَلا زالَتْ دُمُوْعُها جارِيَةً، وقدْ لَبِسَتِ الأَحْزَانَ ثَوْباً، وَآبَتْ إِلَى الأَشْجَانِ أَوْباً، وَأَمَّا هُوَ فَمَا أَفَاقَ مِن سُكْرِهِ إِلاَّ بِحَرِّ الظَّهِيْرَةِ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ مُلْقًى في الجَزِيْرَةِ، فَازْدَادَ غَمُّهُ وَحُزْنُهُ، وَتَقَلَّعَ عَنْهُ غَيْمُ السُّرُورِ وَمُزْنُهُ، وَرَجَعَ إِلَى فَقْدِ الإِلْفِ والرَّفِيقِ، وقَدْ حُرِمَ التَّوْفِيْقَ، وَالمِحْنَةُ ما دامَتْ فَجَّةٌ، لا يُوْجَدُ مِنْها فُرْجَةٌ، فَعَقَدَ مَعَ اللهِ التَّوْبَةَ، وَسَأَلَهُ في حُسْنِ الأَوْبَةِ، فَبَيْنَما هُوَ مُسْتَسْلِمٌ لِلأَقْدارِ، وَإِذا بِمَرْكَبٍ أَقْبَلَ بالانْحِدارِ، فَأَوْمأَ إِلَى مَنْ فيهِ فَأَقْبَلُوا، وَسَأَلَهُمُ الرُّكُوْبَ مَعَهُمْ فَقَبِلُوا، وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى البَصْرَةِ، لمْ يَجِدْ بِها مَن يَضَعُ عَنْهُ إِصْرَهُ، وَهُوَ عَلَى غَايَةٍ مِن الفَاقَةِ، لا يَجِدُ مِنَ الكَرْبِ إِفَاقَةً، فَأَخَذَ يَتَخَلَّلُ مَحَالَّها وَدُوْرَها، وَيَتَأَمَّلُ بُيُوتَهَا وَقُصُوْرَها، وَإِذا بِرَجُلٍ وَسِيْمٍ، ذِي قَدْرٍ نَبِيلٍ وَفَضْلٍ جَسِيْمٍ، وَهُوَ جالِسٌ عَلَى بابِ دَارِهِ، وَوَجَاهَتُهُ تَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنِهِ واقْتِدارِهِ، فاسْتَحْيَا أَنْ يَتَلَطَّفَ لَهُ بِطَلَبِ جَدَا[3]، وَيُشَافِهَهُ بِاسْتِجْدَا، وَرَامَ وُجُوْدَ دَوَاةٍ وَقَلَمٍ، لِيَكْتُبَ شَكْوَى مَا بِهِ أَلَمٌ، فَبَيْنَما هُوَ في ارْتِيادِ ذلِكَ، إِذْ بَصُرَ بِحَانُوتِ بَقَّالٍ هُنالِكَ، وَصَاحِبُهُ شَيْخٌ ضَخْمُ العَبَلاتِ[4]، رَائِعُ السِّبَلاتِ[5]، فَأَقْبَلَ نَحْوَهُ وَسَلَّمَ، وَبِحاجَتِهِ إِلَى دَوَاةٍ تَكَلَّمَ، فقالَ: أَوَ تُحْسِنُ الكِتابَةَ؟ قالَ: نَعَمْ – وَمَنْ يَقْبَلُ المَثَابَةَ –، قالَ: فَإِنِّي أَكْفِيكَ إِرَاقَةَ مَاءِ المُحَيَّا، بِما يَتَحَصَّلُ لَكَ مِنِّي وَيَتَهَيَّأُ،

---

(١) هذا مثل، يقال: العجب كل العجب بين جمادى ورجب. انظر قصته في مجمع الأمثال ٢/٣٥٤.

(٢) الإهابُ: الجِلْد من البَقَر والغنم والوحش ما لم يُدْبَغْ. (اللسان: أهب).

(٣) جَدا: عطاء.

(٤) العبلات: عَبَلٌ، بالضم: غَلُظَ وابيضّ، وأصله في الذراعين، والجمع عبلات. اللسان (عبل).

(٥) السِّبلات: قيل: السبلة ما على الشارب من الشعر، وقيل: مجمع الشاربين، وقيل: هو ما على الذقن من طرف اللحية، وقيل: السبلة ما على الشفة العليا من الشعر. فيقال: هذا ذو سبلات. اللسان (سبل).

بِأَنْ تَكْتُبَ لِيْ مُشْتَرَى هذَا الحَانُوْتِ وَمَبِيْعَهُ، وَتَضْبِطَهُ جَمِيْعَهُ، وَلَكَ كُلَّ يوْمٍ مِنَ الدَّرَاهِمِ خَمْسَةٌ، وَلا تَشْكُوْ تَعَبَ الإنْفَاقِ وَلا مَسَّهُ، وَإِذَا رَأَيْتُ مِنْكَ حُنُوّاً وَعَطْفاً، ازْدَدتَ مِنِّيْ بِرّاً وَلُطْفاً، فَقَبِلَ مِنْهُ ما قَالَ، وَشَكَرَ مِنْهُ المَقَالَ، ثُمَّ إنَّهُ رَفَعَ لَهُ حِسَابَ شَهْرٍ، فَأَخَذَهُ العَجَبُ وَالبُهْرُ، وَشَكَرَ أَمَانَتَهُ، وَمَدَحَ حِفْظَهُ مَالَهُ وَصِيانَتَهُ، وَقَالَ: عِنْدِي بِنْتٌ هِيَ رَيْحَانَةُ أُنسِي، وَجَمالُ قَنْسِي، وَهِيَ لَدَيَّ عَزِيْزَةٌ كَرِيْمَةٌ، وَأَنَا أُقَدِّمُها لَكَ خَدِيْمَةً، فَعَقَدَ لَهُ عَلَيْهَا العَقْدَ، وَأَدَّى عَنْهُ النَّقْدَ، وَعَمِلَ الوَلائِمَ، وَلَمْ يَقْبَلْ فيهِ لَوْمَ لائِمٍ، ثُمَّ لمَّا انْقَضَى الزِّفَافُ، وَتَمَّ الإعْفَافُ، سَلَّمَهُ مَا لَدَيْهِ مِنَ التُّراثِ، وَمَا تَأَثَّلَهُ بِالكَسْبِ والاحْتِرافِ، وَصَارَ هُوَ المُتَصَرِّفَ في الأَهْلِ وَالأَوْلادِ، وَالمُتَحَكِّمَ في الطَّارِفِ والتِّلادِ، هذَا، وَهوَ مَشْغُولُ البَالِ، زَائِدُ البَلْبَالِ، لا يَهْنَاهُ عَيْشٌ، وَلا يَسْكُنُ لَهُ طَيْشٌ، باكِيْ العَينِ، شَاكِيْ البَيْنِ، لا يَعْرِفُ خَبَراً لِمَحبُوْبَتِهِ، وَلا أَثَراً لِمَرغُوْبَتِهِ، والمِصْرُ واسِعُ الأَرْجَاءِ، وَاللِّقَاءُ بَعِيْدُ الرَّجَاءِ، فَهُوَ مُسبَلُ العَبَرَاتِ، دَائِمُ الحَسَرَاتِ، [وَإِنْ] سُئِلَ عَن ذلِكَ يَنْسُبُهُ إِلَى مَحَبَّةِ الوَطَنِ وَالتَّشَوُّفِ لِلْعَطَنْ، وَلَيْسَ لَهُ دَلِيْلٌ عَلَى الحِبِّ وَلا مُرْشِدٌ. / فَهُوَ لا يَزَالُ يَنْشُدُ، وَيُنْشِدُ هذِهِ [٩/ب]
المَقَالَةَ في هذِهِ الحالَةِ[1]:

هَلْ لِيْ إِلَى المُلْتَقَى طَرِيْقُ ... فَالقَلْبُ أَوْدَى بِهِ الحَرِيْقُ
يَشْكُوْ أُوَاماً وَحَرَّ شَوْقٍ ... وَهْوَ بِبَحْرِ الهَوَى غَرِيْقُ
أَفْرَدَهُ الدَّهرُ عَن هَواهُ ... فَلا رَفِيْقٌ وَلا فَرِيْقُ
وَاهاً لِعَصْرٍ لَهُ تَقَضَّى ... لِنَجْمِ إِسْعَادِهِ بَرِيْقُ
وَشَمْلُهُ رَوْضُهُ نَضِيْرٌ ... وَغُصْنُ أَفْرَاحِهِ وَرِيْقُ
وَالوَصْلُ دَوْماً لَهُ غَدَاءٌ ... وَنُقْلُهُ قُبْلَةٌ وَرِيْقُ
وَاليَوْمَ أَضْحَى حَلِيْفَ حُزْنٍ ... وَبِالَّذِي نَابَهُ شَرِيْقُ
وَالدَّهْرُ في جَوْرِهِ أَصِيلٌ ... وَفي اجْتِلابِ الأَسَى عَرِيْقُ

وَلَمْ يَزَلْ يُكَابِدُ الغَرَامَ، وَيُقَاسِي لَوْعَةَ الاضْطِرامِ، لا يَرَى مُخْبِراً، وَلا يَسْمَعُ خَبَراً، إِلَى أَنْ خَرَجَ في بَعْضِ الأَيَّامِ، فَرَأَى النَّاسَ يَمُوْجُوْنَ، وَإِلَى جانِبِ البَحْرِ يَعُوجُونَ، فَسَأَلَ عنِ الدَّاعِي إِلَى تلكَ المَسَاعِي، فَأُخْبِرَ أَنَّ هذا يَوْمُ عِيْدِ النَّصارَى، يُسَمَّى الشَّعَانِيْنَ، يَبْرُزُونَ فِيْهِ بِضُرُوبٍ مِنَ اللَّهْوِ وَأَفَانِيْنَ، والنَّاسُ يَخْرُجُونَ لِلْفُرْجَةِ عَلَيْهِمْ، وَيَبْتَهِجُونَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِمْ، وَيَرْكَبُوْنَ ثَبَجَ البَحْرِ، وَيَجْتَمِعُونَ لَهُ وَلا الاجْتِمَاعِ في عِيْدِ النَّحْرِ، فَدَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى المُرَافَقَةِ، والمُعَاشَرَةِ وَالمُوافَقَةِ، فَخَرَجَ في لُمَّةٍ مِنَ الشَّبَابِ، وَرَكِبُوا في زَوْرَقٍ يَشُقُّ ذلِكَ العُبَابَ، فَبَيْنَما هُوَ في المُسَايَرَةِ، وَفِكْرَتُهُ بِما هِيَ مَشْغُوْلَةٌ بِهِ حائِرَةٌ، إِذْ نَظَرَ إِلَى ذلِكَ المَرْكَبِ، الَّذِيْ خَرَجَ مِنْهُ وَضَلَّ عَنْهُ، فكَادَ

(١) من مخلع البحر البسيط.

يَطِيرُ قَلْبُهُ فَرَحاً، وَيَطِيشُ لُبُّهُ مَرَحاً، وَآمَرَ الملاَّحَ بالإسْرَاعِ إِلَى اللُّحُوقِ بِصَاحِبَةِ ذلِكَ الشِّرَاعِ، فَعِنْدَمَا تَعَارَفَتِ الوُجُوهُ، أَيْقَنَ بِحُصُولِ مَا يَرْجُوهُ، وَأَسْرَعَ أُولئكَ إِلَى مُلاقَاتِهِ فَرِحِيْنَ، وَأَوْصَلُوهُ إِلَى سَيِّدِهِمْ في الحِيْنِ، فَسُرَّ بِسَلاَمَتِهِ، وَأَخَذَ في تَقْرِيْعِهِ وَمَلاَمَتِهِ، واعْتَذَرَ وَتَنَصَّلَ، وَلا شَرَحَ حَالَهُ وَلا فَصَّلَ، وَأَخْبِرَ أَنَّ مَحْبُوْبَتَهُ مُنذُ دَخَلَتِ المدِيْنَةَ، باكِيَةٌ حزِيْنَةٌ، وقدْ بَنَتْ قَبْراً في جَانِبِ البَيْتِ، لِتَتَخَيَّلَ أَنَّ بِهِ ذلِكَ المَيْتَ، وَاتَّخَذَتْ لِبْسَ السَّوَادِ شِعَاراً، وَلَمْ يَلُحْ في خَاطِرِهَا لِسَلامَتِهِ استِشْعَاراً، [فَ][1]أَعْرَضَ عنْ تلكَ النُّزْهَةِ، وَوَجَّهَ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى البَيْتِ الوُجْهَةَ، وقالَ: إِدْخَالِي عَلَيْهَا هذِهِ البُشْرَى أَوْلَى مِنَ التَّفَرُّجِ وَأَحْرَى، ثمَّ لمَّا وَرَدَ عَلَيْهَا البَشِيْرُ بِتِلْكَ التَّبَاشِيْرِ، غَشِيَهَا مِنَ الإغْمَاءِ مَا ظَنَّ أَنَّهُ المَوْتُ، وَخَشِيَ عَلَيْهَا الفَوْتَ، إِلَى أَنْ مَنَّ اللهُ بالتَّلاقِي، وَكَادَتْ تَبْلُغُ الرُّوْحُ التَّرَاقِي، وَخُرِبَ ذلِكَ القَبْرُ وَطُمِسَ، حِيْنَ وافى مَن ظَنَّ أَنَّهُ رُمِسَ[2]، ثُمَّ وَفَى لَهُمَا السَّيِّدُ بِمَا وَعَدَ، وَلَمْ يُؤَخِّرْ عَنْهُمَا خَيْراً اقْتَرَبَ أَوِ ابْتَعَدَ، وَعَمِلَ لَهُمَا عُرْساً عَظِيْمَ الوَلائِمِ، بِكُلِّ مَا يُناسِبُ وَيُلائِمُ، وَقَرَّتِ العَيْنُ بانْقِضَاءِ أَيَّامِ البَيْنِ، وَصَارَ يَتَرَدَّدُ إِلَى تِلْكَ الجِهَةِ الأُخْرَى بِمَا هُوَ الأَلِيْقُ وَالأَحْرَى، إِلَى أَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُما الحِمَامُ، وَبَلَغَ الأَجَلُ المَحْتُومُ التَّمَامَ.

المَقَامَةُ الرَّابِعَةُ:

حُكِيَ أَنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِن تُجَّارِ البَصْرَةِ، قدْ وَضَعَ الزَّمَانُ عَنْهُ إِصْرَه، وَسَاعَدَتْهُ الأَقْدَارُ، وَصَفَا لَهُ الوَقْتُ مِنَ الأَكْدَارِ، وَإِذَا دَارَ الفَلَكُ بِالسُّعُودِ يَخْضَرُّ يَابِسُ العُوْدِ، وَيُنْتِجُ العَقِيْمُ، وَيَعْتَدِلُ المُعْوَجُّ وَيَسْتَقِيْمُ، وَيَعْذُبُ الأُجَاجُ، وَيَنْقَلِبُ المُرُّ إِلَى المُجَاجِ[3]، وَتَعُوْدُ الصَّرْصَرُ رُخَاءً، وَتَرْجِعُ العَدَاوَةُ مَوَدَّةً وَإِخَاءً. وَكَانَ لهُ وَلَدٌ لا كَالأَوْلادِ، يُفْدَى بِكُلِّ طارِفٍ وَتِلادٍ، نَشَأَ نشْأَةً حَسَنَةً، وَمَنْ يَرَاهُ يَقُوْلُ: ما أَحْسَنَهُ! لا يُخالِطُ وَلا يُعَاشِرُ، وَلا يُمازِحُ وَلا يُكَاشِرُ، بلْ هُوَ في حِجْرِ أَبِيْهِ، يُحْسِنُ أَخْلاقَهُ وَيُرَبِّيْهِ، / فَقُدِّرَ أَنْ وَرَدَ مَرْكَبٌ مِنَ الهِنْدِ مَشْحُوْنٌ بِالبَضَائِعِ المَطْلُوْبَةِ، وَالنَّفَائِسِ [١٠/أ] المَجْلُوْبَةِ، وَاجتَمَعَ الوَلَدُ بِبَعْضِ مَنْ قَدِمَ مِن ذلِكَ الإقْلِيْمِ وَكَانَ بِأَخْبَارِهِ أَيَّ عَلِيْمٍ، فَحَكَى لَهُ مِن عَجَائِبِهِ، وَنَوَادِرِهِ وَغَرَائِبِهِ، مَا أَحْدَثَ عِنْدَهُ شَوْقاً إِلَى العِيَانِ، وَالازْدِيَادِ مِنَ التِّبْيَانِ، فَأَتَى الدَّارَ وَهُوَ مُشَوَّشُ البَالِ، زَائِدُ البَلْبَالِ، لا يَأْخُذُهُ هُدُوءٌ وَلا قَرَارٌ، بلْ هُوَ في غَايَةِ الاضْطِرابِ والاضْطِرَارِ، فَسُئِلَ عمَّا أَحْرَجَهُ، وَعَنْ اعْتِدالِ مِزَاجِهِ أَخْرَجَهُ، فَأَخْبَرَهُمْ بِصُوْرَةِ الحالِ، وَمَا مَالَ إِلَيْهِ خَاطِرُهُ

---

(١) زيادة الفاء هنا يقتضيها السياق.

(٢) رُمِس: رَمَسَ الميت رمساً: دفنه وسوّى عليه الأرض، ورمس الشيء: طمس أثره.

(٣) المُجاج: العسل. اللسان (مجج).

واستَحَالَ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ السَّفَرَ إِلَى تِلْكَ البَنَادِرِ، لِيُشاهِدَ ما فِيهَا مِنَ النَّوَادِرِ. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: يا بُنَيَّ، إِنَّ السَّفَرَ إِلَى الأَقْطارِ مَظِنَّةُ الأَخْطَارِ، وَمُفَارَقَةُ الأَوْكَارِ مُشَوِّشَةُ الأَفْكارِ، وَمُبَايَنَةُ الأَوْطَانِ تَجُذُّ مِنَ الرَّفاهِيَةِ الأَشْطَانَ، وَمَا يَتَكَلَّفُ الأَسْفَارَ إِلاَّ مَن أَبَى صُبْحُ سَعَادَتِهِ الإِسْفَارَ، وَلا يَتَحَمَّلُ المَشَاقَّ إِلاَّ مَن تَحْصِيلُ المالِ عَلَيْهِ شَاقٌّ. وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللهِ – تَعالَى – وَافِرُ المَالِ، زائِدُ الجَمَالِ، لا يُعْوِزُكَ نَقْدٌ، وَلا يُلِمُّ بِكَ مِنْهُ فَقْدٌ، فَعَلامَ إِتْعَابُ نَفْسِكَ، وَمُفَارَقَةُ أُنْسِكَ وَقَنْسِكَ؟ أَلاَ تُدْرِكُكَ عَلَى أَبَوَيْكَ رَأْفَةٌ؟ أَلاَ تَعْطِفُكَ عَلَى مُفَارَقَتِهِما رَحْمَةٌ وَعَطْفَةٌ؟ وَالدَّهْرُ خَوَّانٌ، وَلا يُسَافِرُ مَعَكَ أَخْدَانٌ وَلا إِخْوَانٌ، فَمَا تَدْرِي مَا تُحْدِثُهُ الأَقْدَارُ، وَلا مَا تَسُوقُهُ الأَكْدَارُ، وَالاجْتِمَاعُ بِالأَهْلِ غَنِيمَةٌ بَارِدَةٌ، وَنِعْمَةٌ شَارِدَةٌ، مَا لَم تُقَيَّدْ بِالسُّكُونِ، وَالعُدُولِ إِلَى الإِقَامَةِ وَالرُّكُونِ، فَأَعْرِضْ عَمَّا أَهَمَّكَ، وَارْحَمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، فَلَقَدْ وَعَظْتُ وَنَصَحْتُ، وَبَيَّنْتُ وَأَوْضَحْتُ، وَاللهُ يُوَفِّقُكَ لِلرَّشَادِ، وَيَجْعَلُكَ مِمَّنْ عَمَّرَ رَبْعَ البِرِّ وَشَادَ. فَكَأَنَّ هذِهِ الكَلِمَاتِ لَمْ تَنْقُرْ صِمَاخَهُ نَقْراً، وَكَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً، فَعِنْدَمَا أَيِسَ مِن إِصْغَائِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لا يَحُولُ عَنِ ابْتِغَائِهِ، أَوْجَبَ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ الإِجَابَةَ، وَجَعَلَ غَمَائِمَ التَّعْوِيقِ عَنْهُ مُنْجَابَةً، وَفَلَذَ لَهُ فِلْذَةً مِنَ المَالِ، وَلا عَدَلَ عَنْ غَرَضِهِ وَلا مَالَ، وَأَوْسَقَ[1] لَهُ مَرْكَباً بِنَفِيسِ مَا يُجْلَبُ، وَيُرْغَبُ فِيهِ وَيُطْلَبُ، وَجَهَّزَ مَعَهُ مِنَ الخَدَمِ وَالغِلْمَانِ، مَن هُوَ مِنْ خِيَانَتِهِ فِي أَمَانٍ، وَشَيَّعَاهُ وَوَدَّعَاهُ[2]، وَلَمَوْلاهُمَا أَوْدَعَاهُ، وَرَجَعَا بِاكِيَيْنِ، وَمِن أَلَمِ الفِرَاقِ شَاكِيَيْنِ، يَسْأَلانِ اللهَ لَهُ تَعْجِيلَ الإِيَابِ، خَلِيًّا مِنَ العُيُوبِ، مَمْلُوءَ العِيَابِ، وَسَافَرَ هُوَ وَلَمْ يَتَمَهَّلْ، وَلا رَحَّبَ بِنَصِيحَةِ أَبِيهِ وَلا أَهَّلَ، وَكَانَ مِنْ قَدَرِ اللهِ المَحْتُومِ، وَسِرِّ غَيْبِهِ المَكْتُومِ، أَنْ هَبَّتْ عَلَيْهِمْ رِيَاحٌ عَوَاصِفُ، لاَ يَقْدِرُ عَلَى وَصْفِهَا وَاصِفٌ، فَأَلْجَأَتْهُمْ إِلَى جَبَلِ المغْنَاطِيسِ قَهْراً، وَقَدْ أَوْسِعُوا ذُعْراً وَبَهَراً، فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ تَفَرَّقَتْ أَلْوَاحُ المَرْكَبِ بِجَذْبِ المغْنَاطِيسِ لِلْحَدِيدِ، وَغَرِقَ مَا فِيهَا مِن أَحْرَارٍ وَعَبِيدٍ، وَخَرَجَ هوَ عَلَى لَوْحٍ مِن تِلْكَ الأَلْوَاحِ، فَسَاقَتْهُ إِلَى جَانِبِ الجَبَلِ تِلْكَ الأَرْيَاحُ. [و][3] بِأَعْلَى الجَبَلِ جَمَاعَةٌ يَنْظُرُونَ مَا اتَّفَقَ، وَكُلُّهُمْ رَأَفَ عَلَيْهِ وَأَشْفَقَ، فَأَرْخَوا إِلَيْهِ زَنْبِيلاً كَبِيراً فِي حِبَالٍ عَدِيدَةٍ، وَأَشَارُوا إِلَيْهِ بِالجُلُوسِ فِيهِ لِلْخَلاصِ مِن هذِهِ الشِّدَّةِ الشَّدِيدَةِ، فَعِنْدَمَا جَلَسَ فِيهِ رَفَعُوهُ إِلَى أَعْلَى الجَبَلِ وَقَدْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الذُّهْلِ مَا يُقَارِبُ الهَبَلَ، فَتَلَطَّفُوا بِهِ إِلَى أَنْ سَكَنَ رَوْعُهُ وَاطْمَأَنَّ بِه رُوْعُهُ[4]. وَهُوَ لا يَعْرِفُ

---

(١) أَوْسَقَت النخلة: كثرَ حملُها، وأوسق البعيرَ: حمّله حملَه.

(٢) في الأصل: ووعاه. وهو خطأ.

(٣) في الأصل: فساقته بأعلى الجبل، تكررت "فساقته" سهواً، وزيادة الواو يقتضيها السياق.

(٤) الرُّوع: القلب والذهن والعقل.

لِسَانَهُمْ، وَإِنَّمَا يَفْهَمُ إِحْسَانَهُمْ، وَكَانَ مِن جُمْلَةِ اللُّطْفِ بِهِ أَنْ لَحِقَهُمْ شَيْخٌ مَلِيحُ الشَّيْبَةِ، وَافِرُ الهَيْبَةِ، فَكَلَّمَهُ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ، وَسَأَلَهُ عَن هذَا الخَطْبِ الوَبِيِّ، فَرَكَنَ إِلَيْهِ لِمَا رَأَى مِن رَأْفَتِهِ عَلَيْهِ، وَأَخْبَرَهُ بِبَلَدِهِ وَنَسَبِهِ وَأَصْلِهِ وَحَسَبِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ إِقْبَالَ الشَّفِيقِ، وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةَ الأَبِ الرَّفِيقِ، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ صُحْبَةٌ، وَمَوَدَّةٌ وَمَحَبَّةٌ، وَأَخَذَهُ إِلَى دَارِهِ، وَأَرَاهُ كَمالَ[1] تَمَكُّنِهِ مِن الغِنَى وَاقْتِدَارِهِ، وَأَحَلَّهُ مِنْهُ مَحَلَّ الوَلَدِ، وَأَرَاهُ مَحَاسِنَ [البَلَدِ] [2]، وَإِذا هِي مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ، ذَاتُ خَيْرَاتٍ جَسِيمَةٍ، وَقُصُورٍ رَفِيعَةٍ، وَجِنَانٍ بَدِيعَةٍ، وَأَسْوَاقٍ حَافِلَةٍ، / وَهِيَ لِكُلِّ مَا [١٠/ب] يُطْلَبُ كَافِلَةٌ، وَلَهَا مَلِكٌ صَاحِبُ جُيُوشٍ وَعَسَاكِرَ، وَمَغَانِمَ وَدَسَاكِرَ، وَأَفْيَالٍ عَدِيدَةٍ، وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كُفَّارٌ، يَعْبُدُونَ النَّارَ، وَلَا يَرْتَفِعُ لَهُمْ فِي الإِسْلَامِ مَنَارٌ، وَكَانَ لِلشَّيْخِ حَانُوتٌ لِلْعِطَارَةِ، يَقْتَضِي بِها فِي التَّكَسُّبِ أَوْطَارَهُ، فَكَانَ يَجْلِسُ مَعَهُ فِيهِ مِن ابْتِداءِ النَّهَارِ، ثُمَّ يَرْجِعَانِ إِذا وَلَّى عُمْرُهُ وَانْهَارَ، وَإِلَيْهِ الضَّبْطُ وَالحِسَابُ، وَبِيَدِهِ التَّحْصِيلُ وَالاكْتِسَابُ، ثُمَّ لَمَّا طَالَتِ المُدَدُ، وَتَزَايَدَ مِنَ الشُّهُورِ العَدَدُ، زَوَّجَهُ بِكْراً مِن تِلْكَ الطَّائِفَةِ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ بِرَّهُ وَلَطَائِفَهُ، وَعَمِلَ له عُرْساً عَظِيمَ الوَلَائِمِ، وَلَمْ يُسْمَعْ فِيهِ عَذْلُ عَاذِلٍ وَلَا لَوْمُ لائِمٍ، فَأَقَامَ مَعَ تِلْكَ الزَّوْجَةِ فِي عَافِيَةٍ غيرِ خافِيَةٍ، وَرَفَاهِيَةٍ غَيْرِ وَاهِيَةٍ، لا يُكَدِّرُ لَهُ شِرْبٌ وَلا يُرَوَّعُ لَهُ سِرْبٌ، يَرْتَعُ مِنَ النَّعِيمِ فِي كُلِّ رَوْضٍ، وَيَكْرَعُ مِنَ النَّسِيمِ فِي كُلِّ حَوْضٍ غَيْرَ أَنَّهُ مُشَوَّشُ الخَاطِرِ، ذُو دَمْعٍ مُتَقَاطِرٍ، وَقَلْبٍ مَأْلُومٍ، وَحَشاً مَكْلُومٍ، يَتَذَكَّرُ الوَالِدَيْنِ وَمَا لَهُمَا عَلَيْهِ مِن حُقُوقِ البِرِّ الَّتِي هِيَ أَثْقَلُ مِنَ الدَّيْنِ، وَيَتَأَمَّلُ تَبَاعُدَ الأَقْطَارِ، وَتَزَايُدَ الأَخْطَارِ، وَمَا آلَ إِلَيْهِ حَالُهُ، وَأَدَّاهُ إِلَى الوُقُوعِ فِيهِ مِحَالُهُ، وَأَنَّ ذلِكَ عاقِبَةُ مُخَالَفَةِ النَّصِيحَةِ، وَمُتَابَعَةِ هَوَى النَّفْسِ الحَرِيصَةِ الشَّحِيحَةِ، فَيَزْدَادُ كَرْباً، وَحُزْناً وَحَرَباً[3]، ثُمَّ يَرْتَاحُ إِلَى الأَمَانِيِّ بِالرُّكُونِ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ الهُدُوءُ وَالسُّكُونُ، فَبَيْنَا هُوَ يَوْماً يَمُرُّ فِي بَعْضِ سِكَكِ البَلَدِ، وَقَدْ أَعْيَاهُ الصَّبْرُ وَالجَلَدُ، وَاشْتَاقَ إِلَى الوَطَنِ، وَحَنَّ إِلَى العَطَنِ، إِذْ رَأَى جِنَازَةً يَتْبَعُهَا جَمْعٌ كَبِيرٌ، وَقَدْ أَكْثَرُوا حَوْلَها مِنَ البَخُورِ وَالعَبِيرِ، وَرَاءَها امْرَأَةٌ مُزَيَّنَةٌ بِأَنْوَاعِ الزِّينَةِ، وَعَلَيْهَا حُلَلٌ ثَمِينَةٌ، وَحَوْلَها جُمْلَةٌ مِن النِّسَاءِ يَتَشَاكَيْنَ وَصْمَةَ الأَسَى، وَيُرَقِّقْنَ بِكَلِمَاتِهِنَّ[4] مَا غَلُظَ مِن القُلُوبِ وَقَسَا، فَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِاتِّبَاعِهِمْ - وَلَوْ أَنَّهُ [لا] [5]

---

(١) في الأصل: كماله.

(٢) زيادة يستقيم بها الكلام، وتتم بها السجعة.

(٣) الحَرَب: الويل والهلاك.

(٤) في الأصل: كلماتهن. والمثبت هو الصواب.

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

يُحْسَبُ مِن أَتْبَاعِهِمْ – لِيَرَى صُنْعَهُمْ بِالجَنَائِزِ، وَمَا الَّذِي هُوَ مَشْرُوْعٌ عِنْدَهُمْ وَجَائِزٌ، فَخَرَجُوا إِلَى نَاوُوْسٍ[1] كَبِيْرٍ بِوَسَطِ الصَّحْرَاْ، وَعَلَى قِمَّةِ صَخْرَةٍ لا تُقِلُّهَا المِئِيْنُ مِنَ الرِّجَالِ فدحروها دَحْراً[2]، وَأَدلَوا مَعَ المَيْتِ فِيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ، كَمَا تُدلَى فِي البِئْرِ السِّجَالُ[3]، فَخَرَجُوا [لَمَّا] [4] فَرَغُوا مِنْ وَضْعِهِ في مَقَرِّهِ، وَقَرَّبُوْهُ مِن بُقْعَةِ العَذَابِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِمُسْتَقَرِّهِ، أَدلَوُا المَرْآةَ خَلْفَهُ بِما عَلَيْهَا مِنَ الزِّيْنَةِ وَالمُخَلَّفَاتِ الثَّمِيْنَةِ، وَأَتْبَعُوْهَا بِجُمْلَةٍ مِنَ المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ، وَمَا تَسْتَضِيْءُ بِهِ في ظُلُمَاتِ تِلْكَ المَسَارِبِ، ثُمَّ جَرُّوْا[5] الأَحْيَا، وَأَطْبَقُوا الصَّخْرَةَ كَمَا كَانَتْ وَقَدْ أُعْيُوا بِها غَايَةَ الإِعْيَا، فَانْصَرَفَ ذلِكَ الشَّابُّ مَذْهُولاً، وَقَدْ رَأَى أَمْراً مَهُوْلاً، وَجَاءَ إِلَى الشَّيْخِ وَهُوَ في تِلْكَ الدَّهْشَةِ، وَقَدِ اسْتَوْحَشَ غَايَةَ الوَحْشَةِ، فَسَأَلَهُ عَمَّا عِنْدَهُ مِنَ الجَزَعِ، وَمَا الَّذِي أَحْدَثَ لَهُ هذَا الفَزَعَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا رَأَى مِنَ الأَحْوَالِ، وَشَاهَدَ مِن الأَهْوَالِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّ مِن سُنَنِ هؤلاءِ المَرَدَةِ – جَعَلَ اللهُ مِنْهُمُ الخَنَازِيْرَ والقِرَدَةَ[6] – أَنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ يُدْفَنُ الآخَرُ مَعَهُ حَيّاً، وَيُنْزِلُوْنَ مَعَهُ أَسْبَابَهُ وَمَا يَمْلِكُهُ، وَلا يَتْرُكُونَ مِنْهُ شَيْئاً، سَوَاءٌ في ذلِكَ المَالِكُ وَالمَمْلُوكُ، وَالغَنِيُّ وَالصُّعْلُوْكُ، وَيَهَبُوْنَ لَهُ مَا يَحْتَاجُ إليه مِن طَعَامٍ وَشَرَابٍ، مُدَّةَ ما يُقَدِّرُوْنَ أَنَّهُ يَعِيْشُ في ذلِكَ السِّرَابِ، وَهُوَ لا يَعِيْشُ إِلاَّ قَلِيْلاً، وَيَبْقَى بِمَا يَجِدُهُ مِنَ الوَحْشَةِ وَخَبِيْثِ الرَّائِحَةِ عَلِيْلاً، ثُمَّ يُدْرِكُهُ المَوتُ، وَلا يَفُوْتُهُ الفَوْتُ، فَعِنْدَهَا لَطَمَ الشَّابُّ وَجْهَهُ وَبَكى، وَتَأَلَّمْ وَشَكَا، فَقَالَ لِلشَّيْخِ: لِمَ لا أَخْبَرْتَنِي بِهذَا الحَدِيْثِ قَبْلَ أَنْ أُوْقَعَ في هذَا المَوْقِعِ الخَبِيْثِ؟ وَهَلاَّ نَصَحْتَ وَعَنْ هذَا الخَبَرِ أَفْصَحْتَ. بَلْ أَوْقَعْتَنِي في أَخْبَثِ الأَشْرَاكِ، مَعَ أَهْلِ الكُفْرِ وَالإِشْرَاكِ، وَكَيْفَ المَفَرُّ مِن هؤلاءِ النَّفَرِ؟ وَمَا الاحْتِيَالُ في النَّجَاةِ مِن هذَا الاغْتِيَالِ؟ وَمَنْ يَأْخُذُهُ سُكُوْنٌ وَهذَا أَمَامَهُ؟ وَمَن يَقِرُّ لَهُ قَرَارٌ / وَبِهذِهِ الصُّوْرَةِ يَكُوْنُ حِمَامُهُ، ثُمَّ نَاحَ وَعَدَّدَ، وَأَنْشَأَ وَأَنْشَدَ[7]: [أ/١١]

وَيْـلاهُ وَيْـلاهُ مِـنْ حِمَـامِ ... بِغَيْـرِ عَهْـدٍ وَلا ذِمَـامِ
أُقَـادُ فِيْـهِ كَمَـا يُقَـادُ الْـ ... ـبَعِيْرُ لِلنَّحْـرِ بِالزِّمَـامِ

---

(١) الناووس: صندوق من خشب أو نحوه يضع النصارى فيه جثة الميت، ومقبرة النصارى، والجمع: نواويس.

(٢) دحروها دحراً: دفعوها دفعاً.

(٣) السَّجْل: الدلو العظيمة، مملوءة أو فيها ماء قل أو كثر، وهو مذكّر، والجمع سُجُول وسِجَال.

(٤) زيادة يستقيم بها الكلام.

(٥) في الأصل: جدوا. ولعل الصواب ما أثبته.

(٦) في الأصل: القردة والخنازير، وأخرتُ القردةَ سيرا على نهج المؤلف في التزام السجع .

(٧) من مخلع البحر البسيط.

أَقْبِحْ بِهَا سُنَّةً قَضَتْ لِلْـ ـحَيِّ بِدَفْنٍ مَعَ الرِّمَامِ
هَلْ مِن خَلاصٍ لِمَنْ غَدَا فِي حَفَائِرِ المَوْتِ ذَا انْضِمَامِ
يَوَدُّ لَوْ كَانَ ذَا جَنَاحٍ يَطِيرُ فِي الجَوِّ كَالحَمَامِ
أَوْ كَانَ كَالبَرْقِ فِي الْتِماعٍ يَمُرُّ مَعْ مُسْرِعِ الغَمَامِ
لَوْ كَانَ لِيْ فِي الوَرَى نَصُوحٌ ما كُنْتُ وَالكَرْبَ فِي انْتِظَامِ

ثُمَّ أَخَذَتْهُ عَبْرَةٌ بعْدَ عَبْرَةٍ، وَبَقِيَ لِمَنْ يَرَاهُ عِبْرَةً، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: واللهِ – يَا بُنَيَّ – ما قَصَدْتُ لَكَ إلاَّ الرَّاحَةَ، وَالسُّكُوْنَ وَالاستِرَاحَةَ، فَإِنَّ القَرِيْنَةَ المُوَافِقَةَ تُهْدِي إِلَى المَرْءِ مَصَالِحَهُ وَمَرَافِقَهُ، وَتُزِيْحُ عَن قَلْبِهِ صَدَى الكُرْبَةِ وَتَدْرَأُ عَنْ لُبِّهِ أَسَى الغُرْبَةِ، وَلا اعْتَدَيْتُ، وَلا مَرَدْتُ، فقالَ لَهُ: كَيْفَ يَكُوْنُ في هذا الشَّيْءِ صَلاحٌ، وَمَا لِفَسَادِهِ إِصْلاحٌ؟ أَمْ كَيْفَ[1] يُرْجَى فيهِ فَلاَحٌ، وَالمَوْتُ قَدْ أَشْرَفَ مِنْهُ وَلاحَ؟ أَمْ كَيْفَ تَقْصِدُ لِرَوْعِي الهُدُوءَ وَالسُّكُوْنَ، وَأَنْتَ لِقَتْلِي تَشْحَذُ السِّكِّيْنَ؟ هذَا واللهِ هُوَ الغِشُّ الصَّرِيْحُ المُؤْدِي إِلَى الضَّرِيْحِ، وَكَمْ مِن بِرٍّ أَفْضَى إِلَى العُقُوْقِ، وَجَذَّ المُوَاصَلَةَ بِالحُقُوْقِ، فَلَيْتَكَ لا وَاسَيْتَ وَلا بَرَرْتَ وَلا أَسَأْتَ وَلا اعْتَذَرْتَ، فَلَيْسَ لِهذَا الإِحْسَانِ وِزَانٌ وَلا مِثْلَ هذِهِ الأَحْزَانِ أَحْزَانٌ. فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، ثِقْ بِاللهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَاعْتَمِدْ عَلَى لُطْفِهِ وَاسْتَنِدْ إِلَيْهِ، فَكِلاكُمَا في عُنْفُوانِ الشَّبابِ[2]، وَشِرَّةِ الشَّبَابِ[3]، وَاللهُ يُمَتِّعُكُما بِالحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ دَهْراً طَوِيْلاً، وَيُحَوِّلُ عَنْكُمَا الرَّدَى تَحْوِيلاً، وَلَسْتَ تَدْرِي مَن يُعاجِلُهُ الحِمَامُ، أَوْ يُبادِرُهُ بِالإِلْمَامِ، وَلِهذِهِ الزَّوْجَةِ في صُحْبَتِي أَرْبَعُوْنَ[4] سَنَةً، مَرَّتْ كَأَنَّهَا سِنَةٌ، وَلا يَخْطُرُ لَنا مَا خَطَرَ لَكَ عَلَى بَالٍ، وَلا يَرُوْعُنَا مِنْهُ كَرْبٌ وَلا بَلْبَالٌ، وَالمَقَادِيرُ لَها أَحْكَامٌ وَإِتْقَانٌ وَإِحْكَامٌ، وَلا يَنْفَعُ مِنْ قَدَرٍ حَذَرٌ[5]، وَالرَّزَايَا لا تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ غَيرُ التَّسْلِيْمِ وَالرِّضَا بِتَقْدِيرِ العَزِيْزِ العَلِيْمِ، فَسَكَنَ قَلِيْلاً جَأْشُهُ، وَتَقَلَّلَ عَنْهُ اسْتِيْحَاشُهُ، وَقَوِيَ عِنْدَهُ جَانِبُ الأَمَلِ، وَرَجَعَ إِلَى ما كانَ يَعْتَادُهُ مِن عَمَلٍ، وَمَضَى عَلَى ذلِكَ شُهُورٌ قَلِيْلَةٌ، وَمُدَدٌ غَيرُ مُسْتَطِيلَةٍ، وَإِذَا بِزَوْجَتِهِ قَدِ ابْتَدَا بِها المَرَضُ، وَغَلَبَ عَلَى جَوْهَرِ صِحَّتِهَا العَرَضُ، فَحَارَ قَلْبُهُ وَخَارَ لُبُّهُ، وَشَدَهَ وَبَدَهَ، وَسَقَطَ في يَدِهِ، وَخَرَجَ مِن الدَّارِ لِلهَرَبِ مِمَّا بِهِ اسْتَدَارَ، وَإِذَا بِأَهَالِي الزَّوْجَةِ وَقَدْ عَلِقَتْ عَلَيْهِ أَسْطَانُهُمْ، وَغَلَبَ عَلَى ضَعْفِهِ سُلْطَانُهُمْ، وَأَحاطُوا بِهِ إِحَاطَةَ الدَّائِرَةِ بِالنُّقْطَةِ، وَقَالُوا: لا خَلاصَ لَكَ مِن هذِهِ الوَرْطَةِ، إِلاَّ أَنْ يَحْصُلَ لَها الشِّفَا، أَوْ تَكُوْنَ مِنَ المَوتِ عَلَى شَفَا، فَأَقَامَ مَعَهُمْ مُرْغَماً وَصَارَ في إِحَاطَتِهِمْ

---

(١) تكررت "كيف" في الأصل سهواً.

(٢) الشِّباب: ما يوقد به.

(٣) الشِّرَّة: الحِدّة والنشاط، يقال: للشباب شِرة.

(٤) في الأصل: أربعين.

(٥) لا ينفع حذر من قدر: هذا مثل، ورد في مجمع الأمثال ٢/٢٣٧.

مُدْغَماً، فَمَا كانَ إلاَّ أنْ حَلَّ بِهَا المَوْتُ، وَأَصَابَهَا الفَوْتُ، فَخَرَجُوا بِهَا مِنَ المَدِيْنَةِ في أَكْمَلِ زِيْنَةٍ وَهُوَ مَعَهَا يُقَادُ كالبَعِيْرِ المُنْقَادِ، وَلا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرّاً وَلا نَفْعاً، وَلاَ يَسْتَطِيْعُ لِمَا حَلَّ بِهِ رَدّاً وَلاَ دَفْعاً، وَالشَّيْخُ يُشَيِّعُهُ مُرْغَماً بِالبُكَاءِ وَالانْتِحَابِ، وَقَدْ ضاقَتْ بِهِ فَسِيْحَاتُ الرِّحَابِ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ الزَّادِ، وَهَلْ يَنْفَعُ المُحْتَضِرَ بُكاءُ العُوّادِ؟ ثُمَّ أَدْلَوْهُ مَعَهَا في ذلِكَ الرَّمْسِ، / [١١/ب] وَانْسَحَبَ عَلَيْهِ حُكْمُ الطَّمْرِ وَالطَّمْسِ، وَمَضَى كمَا مَضَى الأَمْسُ، وَجَاوَرَ مَنْ مَاتَ، وَعايَنَ تِلْكَ العِظَامَ الرُّفَاتَ، فَأَخَذَهُ الذُّهُوْلُ مِن ذلِكَ الأَمْرِ المَهُوْلِ، وَعَرَتْهُ غَشْيَةٌ، مِن تِلْكَ الخَشْيَةِ، ثُمَّ أَلْهَمَهُ اللهُ – سُبحانَهُ – بِأَنْ أَيْقَظَ عَزْمَهُ، وَاسْتَعْمَلَ حَزْمَهُ، وَأَكْثَرَ مِنْ وَقِيْدِ تِلْكَ الشُّمُوعِ، وَنَظَرَ إِلَى تِلْكَ الجُمُوعِ، وَتَأَمَّلَ ذلكَ المالَ المَجْمُوْعَ، وَقَالَتْ لَهُ نَفْسُهُ: لا تَيْأَسْ مِنَ الفَرَجِ، فَالوَسْعُ يَتْبَعُ الحَرَجَ، وَكَم مِمَّنْ أَعْيَتْهُ الحِيَلُ، وَاسْتَسْلَمَ لأَنْ تَغْتَالَهُ الغِيَلُ، وَأَيِسَ مِنَ الحياةِ، وَأَعْجَزَهُ المَخْرَجُ وَأَعْيَاه، ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ في أَسْرَعَ مِن لَمْحَةِ طَرْفٍ، أَوْ خَطِّ حَرْفٍ، وَلِلدَّهْرِ إِدْبَارٌ وإِقْبَالٌ[1]، وَلِلْقَطْرِ إِمْسَاكٌ وَإِسْبَالٌ، فَتَقَوَّى أَمَلُهُ وَرَجاؤُه، وَاتَّسَعَ لَهُ مَعَ المَضِيقِ أَنْحَاؤُهُ وَأَرْجَاؤُه، وَتَتَبَّعَ تِلْكَ الأَقْوَاتَ الَّتي مَاتَ عَنْهَا أَصْحَابُها، وَحَسُنَ عِنْدَهُ جَمْعُهَا وَاسْتِصْحَابُها، فَأَضافَها إِلَى مَا نَزَلَ مَعَهُ، وَخَزَنَ كُلَّ ذلِكَ وَجَمَعَهُ، ثُمَّ أَخَذَ يَقْتَاتُ بِهِ قَلِيلاً قَلِيلاً، وَيَتَعَلَّلُ بِالأَمَانِيِّ تَعْلِيلاً، وَكَانَ إِذَا أَحَسَّ بِحَرَكَةٍ مِن أَعْلَى المَكَانِ، دَخَلَ إِلَى جانِبٍ مِنَ الجَوَانِبِ وَاسْتَكَانَ، وَأَطْفَأَ الشَّمْعَ، وَغَابَ عَنِ البَصَرِ وَالسَّمْعِ، فَلا يُسْمَعُ لَهُ حَفِيْفٌ، وَلا يُحَسُّ لَهُ هَفِيْفٌ[2]، حَتَّى إِذَا نَزَلُوا وَصَعَدُوا، وَعَنْ قُمِ النَّاوُوسِ أَبْعَدُوا، قَامَ يَتَجَسَّسُ، وَعَنْ خَبَرِ الحيِّ يَتَحَسَّسُ، فَيَرَاهُ بِالضَّوءِ المَوْقُودِ، وَهُوَ يَئِنُّ كَأَنَّهُ المَفْقُوْدُ، يَرَى المَوْتَ عِياناً، وَلا يَتَّخِذُ أَنْصَاراً وَلا أَعْوَاناً، فَيَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ، وَيَصْرُخُ في وَجْهِهِ فَيَخِرُّ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، وَيَظُنُّ أَنَّهُ بَرِيْدُ المَوْتِ، وَرَائِدُ الفَوْتِ، فَيَضْرِبُهُ بِعَظْمٍ مِن تِلْكَ العِظَامِ، فَيَنْثُرُ مِن حَيَاتِهِ النِّظَامَ، وَيَسْتَوْلِي عَلَى مَأْكَلِهِ وَمَشْرَبِهِ، وَيَتَقَوَّى بِهِ عَلَى مَطْلَبِهِ مِنَ الحَيَاةِ وَمَأْرَبِهِ، وَيَعِيْشُ بِهِ دَهْراً، إِنْ عَاماً وَإِنْ شَهْراً، حتَّى إِذَا نَزَلَ غَيْرُهُ أَحَاطَ بِهِ شَرُّهُ وَضَيْرُهُ، وَفَعَلَ بِهِ مِثْلَ الأَوَّلِ، وَلَمْ يَأْلُ وَلَمْ يَتَأَوَّلْ، فَعَاشَ عَلَى ذلِكَ مُدَّةً، وَأَشْهُراً عِدَّةً، لا يُعْوِزُهُ مَأْكَلٌ بِها وَلا مَشْرَبٌ، وَهُوَ بِقَتْلِهِمْ إِلَى اللهِ تَعالَى يَتَقَرَّبُ، فَبَيْنَا هُوَ في بَعْضِ الأَيَّامِ، وَقَدِ اشْتَدَّ بِهِ إِلَى الخَلاصِ الهُيَامُ، وَأَعْيَا صَبْرُهُ وَجَلَدُهُ، وَطَاشَ لُبُّهُ وَخَلَدُهُ، إِذْ سَمِعَ بِأَعْلَى النَّاوُوسِ مِنَ الصِّيَاحِ وَالضَّجِيْجِ، مَا لا يُسْمَعُ مِثْلُهُ مِنَ الحَجِيجِ، وَكَانَ مِن قَدَرِ اللهِ وَقَضَائِهِ، وَحُكْمِهِ في العَالَمِ وَإِمْضَائِهِ، أَنْ مَاتَ مَلِكُ ذلِكَ الإِقْلِيْمِ، وَحَلَّ بِرُوحِهِ العَذَابُ الأَلِيْمُ، وَأُدْلِيَ في تَابُوتٍ مُصَفَّحٍ بِالذَّهَبِ مُرَصَّعٍ بِالجَوَاهِرِ، ذِي مَنْظَرٍ رَائِعٍ وَرَوْنَقٍ باهِرٍ، مَغَطًّى بِمُثْقَلاتِ الدِّيْبَاجِ

---

(١) في الأصل: وللدهر إقبال وإدبار وإقبال.

(٢) هفّت الرّيح هفًا وهَفيفا: هبّت فسُمع صوتُ هُبوبِها.

المُذَهَّبَةِ، مُعَطَّرٍ مِنَ المِسْكِ وَالعَنْبَرِ بِما غَطَّى نَتَنَ تِلْكَ الجِيْفَةِ وَأَذْهَبَهُ، وَأُنْزِلَ مَعَهُ جَمِيْعُ ذَخَائِرِهِ وَمَصُوْنَاتِهِ، وَمُخَبَّآتِهِ وَمَكْنُونَاتِهِ، وَأُنْزِلَتْ زَوْجَتُهُ في نِهايَةِ التَّجَمُّلِ وَالزِّينَةِ وَالنَّفائِسِ وَالأَعْلاقِ الثَّمِينَةِ، وَأُنْزِلَ مَعَهَا مِنَ الأَسْبَابِ العَظِيْمَةِ وَالنِّعَمِ الجَسِيْمَةِ، مَا لا يَسَعُ شَرْحَهُ كِتابٌ وَلا تُحْصِيهِ أَقْلامُ الكُتَّابِ، وَأُرْدِفُوا ذلِكَ بِمَا بِهِ يُعَاشُ، وَيَحْصُلُ الانْتِعاشُ، مِمَّا يُنَافَسُ بِهِ وَيُفْتَخَرُ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُؤَخَّرَ دَهْراً وَيُدَّخَرَ، وَجَعَلُوا ذلِكَ كُلَّهُ في مَوْضِعٍ خالٍ عنِ النَّاسِ، غَيْرِ مُخَالِطٍ لِتِلْكَ الأَخْبَاثِ وَالأَدْنَاسِ، وَأَوْقَدُوا لَهَا شُمُوْعاً كَثِيْرَةً، وَفَرَشُوا لَهَا فُرُشاً وَثِيْرَةً، ثُمَّ أَطْبَقُوا عَلَيْها فَمَ النَّاوُوْسِ، وَأَسْلَمُوها بَعْدَ النَّعِيْمِ إِلَى البُؤْسِ، فَجَعَلَتْ تَنْدُبُ بَدِيْعَ شَبَابِهَا وَتَبْكِي عَلَى فُرْقَةِ أَحْبَابِها، هذَا، وَالشَّابُّ قد قَرُبَ مِنْهَا قَلِيلاً، فَرَأَى مَرْأًى جَمِيلاً، وَحُسْناً فَائِقاً، وَرَوْنَقاً رَائِقاً، وَجَمَالاً بَدِيْعاً، وَكَمَالاً مَرِيْعاً[1]، غَرِيْبَةَ التَّكْوِيْنِ وَالرَّصْفِ، لا يُوْفِي حَقَّهَا نَعْتٌ وَلا وَصْفٌ، فَهَامَ بِهَا قَلْبُهُ، وَطَاشَ عَلَى مُلاقَاتِهَا لُبُّهُ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِاتِّخَاذِهَا قَرِيْنَةً، وَأَنْ تَكُوْنَ لَهُ عَلَى هذِهِ الوَرْطَةِ مُعِيْنَةً، فَتَكَلَّمَ - وَهُوَ في الظَّلامِ - بِمُزْعِجٍ مِن الكَلامِ، فَرَعَبَتْ وَارْتَاعَتْ، وَرُعِدَتْ وَالْتَاعَتْ، وَظَنَّتْ أَنَّهُ الفِرَاقُ الَّذِيْ لا تُغْنِي مِنْهُ عُوْذَةُ[2] أَلْفِ رَاقٍ، وَشَخَصَ مِنْهَا البَصَرُ، وَأَرْهَقَهَا العِيُّ والحَصَرُ، فَلَمَّا رَآى مِنْها تِلْكَ الحَالَةَ وَأَنَّهَا / تَمُوْتُ فَزَعاً لا مَحَالَةَ، تَلافَاهَا بِلَيِّنِ [١٢/أ] المَقَالِ، فَنَشِطَتْ مِنْ ذلِكَ العِقَالِ، وَسَأَلَتْهُ عنْ نَفْسِهِ، وَنَوْعِهِ وَجِنْسِهِ، فقَالَ لَها بَعْدَما ظَهَرَ، وَرَأَتْ مِن حُسْنِهِ مَا بَهَرَ: مَا لَكِ وَالسُّؤَالُ عَنِ القَنْسِ وَالآلِ، وَمَا هُنَا غَيْرُ المُوَافَقَةِ وَالإِلْمَامِ أو المُسَاقَقَةِ وَالحِمَامِ؟ فَتَخَيَّرِي وَلا تَتَحَيَّرِي، وَتَبَصَّرِي وَلا تُقَصِّرِي،

فَإِنَّ الوَقْتَ ضَيِّقٌ، وَالزَّمانَ غَيْرُ رَيِّقٍ[3]، وَالسِّرْبُ لَيْسَ بِآمِنٍ، وَالمَوْتُ في جَنَبَاتِ هذا السَّرَبِ[4] كَامِنٌ، فَقَالَتْ: وَهَلْ في المَوْتِ مَا يُخْتَارُ أَوْ يُشْتَرى أَوْ يُشْتَارُ؟ وَإِنِّي لَكَ أَطْوَعُ مِن نَعْلِكَ، وَأَتْبَعُ مِن ظِلِّكَ، لا تَرى مِنِّي خِلافاً وَلا تَجِدُ لِوَعْدِي إِخْلافاً، فَتَقَارَبَا وَازْدَلَفَا، وَتَجَاذَبَا وَائْتَلَفَا، وَكَانَ مَا كَانَ، وَهَدَأَ الرَّوْعُ وَاسْتَكَانَ، وَاتَّفَقَا عَلَى قَتْلِ النَّازِلِيْنَ إِلَيهِمَا، وَتَحْتِيمِ الحَتْفِ عَلَى الدَّاخِلِيْنَ عَلَيْهِما، فَإِنْ كَانَ النَّازِلُ ذَكَراً قَامَ إِلَيْهِ وَقَضَى عَلَيْهِ، أَوْ أُنْثَى فقدْ أَفْضَتْ نَوْبَتُهَا إِلَيْهَا فَتُجْرِيْ حُكْمَ الحِمَامِ عَلَيْها، وَيَعِيْشَانِ مِمَّا يُصَبِّحُهُمْ مِنَ الأَقْوَاتِ بِالعَشِيَّاتِ وَالغَدَوَاتِ، فَبَقِيَا عَلَى ذلِكَ بُرْهَةً مِن الدَّهْرِ، يُزْجِيَانِ اليَومَ بَعْدَ اليَومِ وَالشَّهْرَ بَعدَ الشَّهْرِ، فَبَيْنَا هُمْ كذلِكَ إِذْ رَأَيَا في صُدُوْرِ النَّاوُوْسِ سِرَاجَيْنِ يَقِدَانِ، فَجَلَسَا مِنَ الخَوْفِ يَرْعُدَانِ، ثُمَّ سَمِعَا صَوْتَ

---

(١) المَرِيع: الخصب، ويقال غيث مريع: تمرع عنه الأرض.

(٢) العُوْذَة: التميمة، والرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون، والجمع عُوَذ.

(٣) الرَّيِّقُ من كل شيء: أفضله.

(٤) السرَب: المسلك في خُفية، أو حفير تحت الأرض لا منفذ له.

عِظَامٍ تُقْضَمُ، وَتُفَضُّ عُرَى التِئَامِهَا وَتُفْصَمُ، فَعَلِمَا أَنَّهُ وَحْشٌ تَوَصَّلَ إِلَى هذَا السِّرداب وَأَيْقَنَا مِنَ الفَرَجِ بِالاقْتِرَابِ، فَقَامَا يَتْبَعَانِهِ وَيُخَوِّفَانِهِ وَيُرَوِّعَانِهِ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى شِقٍّ مِنْهُ دَخَلَ، وخَرَجَ مِنْهُ هَارِباً وَلَمْ يَخَلْ، فَجَاءَا إِلَيْهِ فَتأمّلاه[1]، وَتَحَقَّقَ مَا تَرَجَّيَاهُ مِنَ الخَلاصِ وَأَمَّلاهُ، وَآخَذَا يُوَسِّعَانِهِ بِتِلْكَ العِظامِ، وَيَكْسِرانِ مَا كانَ فِيْهِ مِنَ الأَشْظَامِ[2]، إِلَى أَنْ خَرَجَا مِنْهُ إِلَى فَضَاءٍ مِنَ الأَرْضِ ذِيْ طُولٍ وَعَرْضٍ، فَنَظَرَا فَإِذَا هُمَا بِالسَّاحِلِ وَلَمْ يَبْقَ مِن دُوْنِ السَّلامَةِ مُمَاطِلٌ وَلا مُمَاحِلٌ، فَعَادا وَقَدِ اطْمَأَنَّتْ مِنْهُمَا النُّفُوسُ وَذَهَبَ عَنْهُمَا الغَمُّ وَالبُؤْسُ، وَآخَذَا يَتَخَيَّرَانِ مِمَّا هُنَالِكَ مِن نَفَائِسِ الأَعْلاقِ مَا كَانَ مُصَاناً بِالأَقْفَالِ وَالأَغْلاقِ، وَمَلأَا مِنْهُمَا صَنَادِيقَ عِدَّةً وَنَقَلاهَا إِلَى ذلِكَ السَّاحِلِ بِهِمَمٍ مُجِدَّةٍ، وَرَأَيَا أَنَّهَا حَيَاةٌ مُسْتَجِدَّةٌ وَاسْتَصْحَبَا مَا هُنَالِكَ مِنَ المَعَاشِ وَمَا يَحْصُلُ بِهِ الانْتِعَاشُ، وَلَمْ يُقِيمَا إِلاَّ بَعْضَ يَومٍ وَقَدْ مَرَّ بِهِمَا مَرْكَبٌ مَخَّارٌ في ذلِكَ البَحْرِ الزَّخَّارِ، فَأَشَارَا[3] إِلَى مَنْ فِيهِ بِالاسْتِصْحَابِ، وأَنْ يَكُونَا مِن جُمْلَةِ الصِّحَابِ، فَقَدَّمُوا إِلَيْهِمَا مَرْكَباً صَغِيراً وَسَأَلُوهُمَا عَنِ الحَالِ، فَلَفَّقَاهُمَا[4] زَخَارِفَ المُحَالِ، فَحَمَلُوهُمَا وَمَا مَعَهُمَا مِنَ الأَثْقَالِ، وَنَجَّاهُمَا اللهُ – سُبْحَانَهُ – مِن ذلِكَ الاعْتِقَالِ، وَاسْتَمَرَّ بِهِمُ السَّيْرُ إِلَى سَاحِلِ عُمَانَ، وَقَدْ أَيْقَنَا بِالسَّلامَةِ وَالأَمَانِ، فَبَاعَ الشَّابُّ مِن بَعْضِ تِلكَ الأَسْبَابِ ما بِهِ ارْتَفَقَ، وَصَرَفَ مِنْهُ أُجْرَةَ ذلِكَ المَرْكَبِ وَأَنْعَمَ عَلَى مَنْ رأف وَرَفِقَ، ثُمَّ حَوَّلَ أَمْتِعَتَهُ إِلَى مَرْكَبٍ تَسِيْرُ إِلَى البَصْرَةِ، وَقَدْ وَضَعَ الزَّمَانُ عَنْهُ غِلَّهُ وَإِصْرَهُ، وَأَذْهَبَ ضِيقَهُ وَحَصْرَهُ، فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ أَرْسَوْا بِسَاحِلِ المَدِيْنَةِ، وَحَلُّوْا بِالمَحَالِّ الأَمِيْنَةِ، فَبَادَرَ إِلَى الدَّارِ، وَالفَلَكُ بِسَعَادَتِهِ قَدْ دَارَ، لِيَسْبُرَ الحَالَ وَمَا تَغَيَّرَ وَمَا اسْتَحَالَ، فَقَدِمَ عَلَى أَهْلِهِ قُدُومَ الغَيْثِ بَعْدَ الإِمْحَالِ، وَكَانُوا يُعِدُّوْنَ سَلامَتَهُ مِنَ المُحَالِ، وَتَزَايَدَ شُكْرُهُمْ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَثَنَاؤُهُمْ، وَانْقَضَى عَنْهُمْ كَرْبُهُمْ وَعَنَاؤُهُمْ، وَنَقَلُوا تِلْكَ النَّفَائِسَ وَالأَعْلاقَ، وَجَعَلُوا دُونَهَا الأَقْفَالَ وَالأَغْلاقَ، وَعَمِلُوا لَهُ عُرْساً حَافِلاً، وَرَجَعَ كَوْكَبُ السَّعْدِ طَالِعاً بَعْدَ أَنْ كَانَ آفِلاً، وَآجْزَلُوا الصَّدَقاتِ وَالمَبَارَّ، وَتَسَاوَى في ذلِكَ العَاقُّ وَالبَارُّ، وَعَاشُوا بِنِعْمَةٍ رَاضِيَةٍ إِلَى أَنْ أَتَتْهُمُ القَاضِيَةُ فَكَانَ خَبَرُهُمْ مِن غَرَائِبِ الأَسْمَارِ وَأَعْجَبِ مَا يَتَسَامَرُ بِهِ السُّمَّارُ.

المَقَامَةُ الخَامِسَةُ:

رُوِيَ أَنَّهُ كانَ بِحِمْصِ الشَّامِ شَابٌّ كَثِيْرُ الوَقَارِ وَالاحْتِشَامِ، قَدْ كَسَاهُ / الزَّمَانُ مِن مَلابِسِ [١٢/ب]

---

(١) في الأصل: فتلاماه، والصواب هو المثبت.

(٢) لم أعثر لهذا الجمع على معنى، وقد ورد في اللسان: الشيظم: المسنّ من القنافذ. اللسان (شظم).

(٣) في الأصل: أشار، والصواب المثبت.

(٤) هكذا في الأصل، ولعلها: لفقاهم.

جَمَالِهِ، وَوَهَبَهُ الأَوَانُ مِن مَحَاسِنِ كَمَالِهِ، فَلا مَجْدَ إلاَّ وَلَهُ فِيْهِ غَوْرٌ وَنَجْدٌ[1]، وَلا مَعَالِيَ إلاَّ وَلَهُ فِيْهَا الشَّرَفُ العَالِيْ، وَلا فَخَارَ إلاَّ وَلَهُ فِيْهِ كَنْزٌ وَادِّخَارٌ، يُسَابِقُ الفَضْلَ سَبْقَ الجِيَادِ، وَيَجْعَلُ مِنْهُ قَلائِدَ الأَجْيَادِ، مَعَ أَدَبٍ بَارِعٍ وَحَسَبٍ فَارِعٍ، وَطِيْبِ أُرُوْمَةٍ، وَزَكَاءِ جُرْثُوْمَةٍ، وَطَبْعٍ يَفُوْقُ لُطْفَ النَّسِيْمِ، وَخُلُقٍ لَيْسَ لَهُ مِن مُعَاصِرِيْهِ فِيهِ قَسِيْمٌ، وَنَثْرٍ وَنَظْمٍ، وَحِلْمٍ وَكَظْمٍ، وَحُسْنِ مُعَاشَرَةٍ، وَلُطْفِ مُكَاشَرَةٍ، وَجُوْدٍ يُنْسِي حَاتِماً، وَلا يَرْضَى بِهِ لِخِنْصِرِهِ خَاتَماً، وَذَكَاءٍ يُزْرِي بِإِيَاسٍ، وَيَرْمِي مَن يُمَاثِلُهُ بِاليَأْسِ، ضَاقَ بِهِ فَسِيْحُ بِلادِهِ فَارْتَحَلَ مِنْهُ بِطَارِفِهِ وَتِلادِهِ، وَاخْتَارَ البَيْنَ والفِرَاقَ، وَيَمَّمَ العِرَاقَ، فَأَلْقَى بِالبَصْرَةِ جِرَانَهُ[2]، وَجَعَلَ أَهْلَهَا جِيْرَانَهُ، وَأَقَامَ بِهَا قَرِيْرَ العَيْنِ وَافِرَ الدَّثْرِ[3] وَالعَيْنِ، لاَ يَرُوْعُ الزَّمَانُ سِرْبَهُ وَلاَ يُكَدِّرُ شُرْبَهُ، يَسْتَمْطِرُ مِنَ السُّرُوْرِ طَلَّهُ وَوَبْلَهُ، وَيَتَنَعَّمُ بِالرِّيَاضِ نَهْرَ الأُبُلَّةِ[4]، وَيَتَمَقَّلُ مَا فِيْهَا مِنَ المَحَاسِنِ وَيَرِدُ مِنْ حِيَاضِهَا مَاءً غَيْرَ آسِنٍ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذلِكَ بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ آمِناً مِنَ القَسْرِ والقَهْرِ وَادِعَ البَالِ سَابِغَ السِّرْبَالِ، يَصْحَبُ فِي مَوَاطِنِ الخَلاعَةِ أَرْدَانَهُ، وَيَرُوم فِي مَعَاطِنِ البَطَالَةِ أَحْبَابَهُ وَأَخدانَهُ، لا يَأْتِي لَهُ يَوْمٌ إلاَّ وَهُوَ أَحْسَنُ مِن أَمْسِهِ، وَلا يَنْفَكُّ فِيهِ عَنِ اسْتِجْلاءِ بَدْرِهِ وَشَمْسِهِ، يَأْلَفُ مُعَاقَرَةَ الشَّرَابِ وَمُعَاشَرَةَ الشُّرَّابِ، فَلا يَزَالُ نَدِيْماً لِلشَّهَوَاتِ، مَدِيماً[5] لِلنَّشَوَاتِ، وَشِرَّةُ الشَّبَابِ مُضِرَّةٌ بِالأَلْبَابِ، لا يُسْمَعُ مَعَهَا عَذْلٌ، وَلا يُمْنَعُ فِي شَأْوِهَا بَذْلٌ، وَقَدْ قَالَ القَائِلُ[6]:

تَجْعَلُ الحِلْمَ مِن وَرَاءِ حِجَابِ ... وَتُصِيْرُ السَّفَاهَ لِلأَنْجَابِ
وَتَرُدُّ العَقْلَ الرَّصِيْنَ غَوِيّاً ... وَتُزِيْنُ الضَّلالَ بِالإِعْجَابِ
وَتُعِيْدُ الفَتَى الوَقُوْرَ خَلِيْعاً ... يَتَحَلَّى مِنْهَا بِشَيءٍ عُجَابِ
وَتُفِيْدُ الكَسْلانَ عَزْماً فَلا يَخْـ ... ـشَى صِيَالَ الوُشَاةِ وَالحُجَّابِ
إنَّ مَنْ يُكْفَ شَرَّ شِرَّةِ مَصْبَا ... هُ جَدِيْرٌ مِنَ الدُّعَا بِالمُجَابِ

وَكَانَ بِالبَصْرَةِ نَخَّاسٌ يَتَغَالَى فِي مُشْتَرَى القِيَانِ، وَتَذَخُّرِهِنَّ لِمَن يَرْغَبُ فِيْهِنَّ مِنَ الأَعْيَانِ، دَارُهُ لِلأَقْمَارِ دَارَةٌ، وَقَدْ جَعَلَ قُطْبَ الأُنْسِ عَلَيْهَا مَدَارَهُ، فَلا تَخْلُو مِنَ السَّمِيْرِ وَالنَّدِيْمِ وَالوَاجِدِ

---

(١) الغور: ما انخفض من الأرض، وضده النجد. اللسان (غور).

(٢) الجِرانُ: باطن العُنُق، أو مُقدَّم العنق من مذبح البعير إلى منحره، فإذا برَك البعيرُ ومدّ عنُقَه على الأرض قيل: ألقى جِرانَه بالأرض، والبعير إذا بَرَك واستراح مدّ جِرانَه على الأرض أي عُنُقَه. اللسان (جرن).

(٣) الدَّثْر: المال الكثير. اللسان (دثر).

(٤) والأُبُلَّة: مكان بالبصرة، وهي البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحري. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، ٧٧/١.

(٥) في الأصل: نديماً، ولعل الصواب المثبت، منعاً للتكرار.

(٦) من البحر الخفيف. ولم أعثر على القائل.

وَالعَدِيْمِ، وَيُنْفِقُونَ النَّفَقَاتِ الكَثِيْرَةَ، وَيَصْرِفُوْنَ النَّفَائِسَ الأَثِيْرَةَ، وَهُوَ يُبْرِزُ لَهُمْ تِلكَ القَيْنَاتِ مُتَبَرِّجَاتٍ مُتَزَيِّنَاتٍ، فَيَظَلُّوْنَ سَحَابَةَ يَوْمِهِمْ في المُحَاضَرَةِ وَالمُنَادَمَةِ، وَكَمْ مِنْهُم مَن سَفَكَ بِالمُنَى دَمَهُ! ثُمَّ إذا انْهَارَ بُنْيَانُ ذلكَ النَّهَارِ، رَجَعَ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى وَكْرِهِ وَقَدِ احْتَوَى مَا هُنَاكَ عَلَى عَقْلِهِ وَفِكْرِهِ، فَلا يُصَدِّقُ بِإِسْفَارِ الصَّبَاحِ حَتَّى يَأْتِيَ إِلَى تِلْكَ الوُجُوْهِ الصِّبَاحِ، وَيَسْتَأْنِفَ تِلْكَ الأَعْمَالَ، وَيُنْفِقَ ذلكَ المَالَ، فَإِذَا غَلِقَ الرَّهْنُ[1] بِوَاحِدَةٍ مِن تِلْكَ الغَادَاتِ، فُتِحَتْ فِيْهَا أَبْوَابُ الزِّيَادَاتِ، وَبُذِلَتْ فِيْهَا الرَّغَائِبُ المَحْبُوبَةُ وَالنَّفَائِسُ المَطْلُوْبَةُ، فَإِذَا أُحْكِمَتِ العُقْدَةُ بَيْنَ البَيِّعَيْنِ قَرَّتِ العَيْنُ، وَبُذِلَ العَرَضُ والعَيْنُ، وَحَازَ مَا مَلَكَ، وَقَالَ لِلْعَاذِلِ لا أَمْرَ لَكَ، فَبَلَغَ ذلكَ الشَّابَّ خَبَرُ تِلْكَ القِيَانِ، فَأَرَادَ تَحْقِيْقَهُ بِالعِيَانِ، فَتَوَجَّهَ مَعَ لُمَّةٍ مِنَ الصِّحَابِ إِلَى تِلكَ الرِّحَابِ، فَتُلُقِّيَ بِالتَّأَهُّلِ وَالتِّرْحَابِ، وَسَأَلُوا النَّخَّاسَ أَنْ يُبْرِزَ لَهُمْ أَنْفَسَ مَا اقْتَنَى، وَأَنْ يَكُوْنَ مِمَّنْ بِهِمْ هَمٌّ وَاعْتَنَى، بَعْدَ أَنْ قَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاهُمْ صَدَقَةً وَأَمَامَ فَحْوَاهُمْ مَا يُوَافِقُ وَيُلائِمُ، وَلا يَلْحَقُهُ لَوْمُ لائِمٍ، وَعِنْدَمَا اطْمَأَنَّتْ بِهِمُ المَجَالِسُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ قَائِمٌ أَوْ جَالِسٌ، بَرَزَتْ جَارِيَةٌ عُشَارِيَّةٌ[2] القَدِّ، كَالشِّهَابِ في الوَقْدِ، تَحْمِلُ كُرْسِيًّا مُجَلَّلاً بِغِشَاءٍ مُذَهَّبٍ، لَيْسَ لِلْبَصَرِ عَنْهُ مَذْهَبٌ، فَوَصَلَتْ بِهِ إِلَى نَادِيْهِمْ، وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ أَيَادِيْهِمْ، ثُمَّ غَابَتْ وَحَضَرَتْ، وَعُوْداً لَطِيْفاً أَحْضَرَتْ، وَتَلاهَا في المَجِيْءِ جَارِيَةٌ بَدِيْعَةُ / الجَمَالِ، تَرْفُلُ في بُرُوْدِ الكَمَالِ، فَبَدَأَتْ بِالسَّلامِ بِرَخِيْمِ [١٣/أ] الكَلامِ، وَجَلَسَتْ عَلَى ذلكَ الكُرْسِيِّ المُخْضَرِّ، وَقَدْ أَذْهَلَتْ بِحُسْنِهَا مَن في ذلكَ المَحْضَرِ، وَتَنَاوَلَتِ العُودَ وَأَنْشَدَتْ، فَكَانَ مِمَّا بِهِ شَدَتْ[3]:

يَا مَنْ بِنَادِيْنَا خَطَرْ ... أَوْقَعْتَ نَفْسَكَ في الخَطَرْ
كَيْفَ الخَلاصُ لِمَنْ غَدَا ... يُغْرِيهِ بِالنَّظَرِ البَطَرْ
أَشْغَلْتَ قَلْبَكَ بِالَّذِي ... فَطَرَ القُلُوْبَ وَمَا انْفَطَرْ
وَطَفِقْتَ تَسْتَسْقِي الجِهَا ... مَ، وَلَيْسَ يَسْحَقُ[1] بِالمَطَرْ
وَإِذَا تُلامُ عَلَى الغَرَا ... مِ وَدَمْعُ عَيْنِكَ قَدْ قَطَرْ
كَانَ الجَوَابُ بِأَنَّ ذَا ... شَيءٌ قَدِيْماً مُسْتَطَرْ
أَوَّاهُ مِمَّا خَطَّهُ الْـ ... ـقَلَمُ القَدِيْمُ وَمَا سَطَرْ

---

(١) غَلِقَ الرهنُ: إذا لم يوجد له تخلص وبقي في يد المرتهن لا يقدر راهنه على تخليصه، والمعنى أنه لا يستحقه المرتهن إذا لم يَستَفِكَّه صاحبُه. وكان هذا من فعل الجاهلية أن الراهن إذا لم يُؤدِّ ما عليه في الوقت المعين مَلَكَ المرتهنُ الرَّهْنَ، فأبطله الإسلام. اللسان (غلق).

(٢) عشارية القد: تامة القد، طويلته، وقد يراد بها ذات عُكنٍ عشر من جانبي البطن، حمس من كل جانب. اللسان (عشر). و (خمس)

(٣) من مجزوء البحر الكامل.

وَعِنْدَمَا فَرَغَتْ مِمَّا أَنْشَدَتْ، وَأَتَمَّتْ مَا بِهِ شَدَتْ، اسْتَغْرَبَ ذلِكَ الجَمْعُ مَا حَازَهُ مِنهَا السَّمْعُ، وَحَيَّاهَا[٢] كُلٌّ مِنْهُمْ وَفَدَاهَا، وَتَمَنَّى أَنْ يَكُوْنَ بَيْنَ لُحْمَتِهَا وَسَدَاهَا[٣]. هذَا، وَنَظَرُهَا كُلُّهُ مَقْصُورٌ عَلَى ذلِكَ الشَّابِّ، وَقَدْ مَحَضَتْهُ صَفْوَ وُدٍّ غَيْرِ مُشَابٍ، وَعَلِمَ مِنْهَا ذلِكَ فَوَافَاهَا، وَصَرَفَ وُجْهَةَ قَلْبِهِ إِلَيْهَا وَكَافَاهَا، وَلَمْ يَزَالاَ يَتَنَاشَدَانِ الأَشْعَارَ، وَقَدِ اشْتَدَّتْ نَارُ المَحَبَّةِ بَيْنَهُمَا بِالاسْتِعَارِ، إِلَى أَنْ طَوَى النَّهَارُ أَعْلاَمَهُ، وَنَشَرَ اللَّيْلُ ظَلاَمَهُ، فَتَفَرَّقُوْا إِلَى الأَوْكَارِ، وتجمعتْ منهم الأفكار، وأما ذلك الشابُّ فباتَ بليل هَمٍّ ناصبٍ وعذابِ هيامٍ واصب، يُسامِرُ الدراري ويُسايِرُ بأجفانه الخنَّسَ الجواري، وقدِ اشْتَدَّتْ أَوَاخِي هُمُوْمِهِ، وَتَرَاكَمَتْ غُيُوْمُ غُمُوْمِهِ، فَهُوَ لا يَجِدُ هُدُوْءاً وَلا قَرَاراً، وَلا يَذُوْقُ النَّوْمَ إِلاَّ غِرَاراً[٤]، وَلَمْ يَزَلْ يُراقِبُ الصَّبَاحَ إِلَى أَنِ انْقَضَّتْ دَوْلَةُ المِصْبَاحِ، فَأَيْقَظَ إِخْوَانَهُ، وَاسْتَنْهَضَ أَنْصَارَهُ وَأَعْوَانَهُ، وَمَضَوا لِتَجْدِيدِ تِلْكَ الصُّحْبَةِ، وَتَأْكِيْدِ عَهْدِ المَحَبَّةِ، وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى دَارِ النَّخَّاسِ لَقِيَهُمْ طَلْقَ المُحَيَّا، وَرَحَّبَ وَحَيَّا، وَجَدَّدَ ما[٥] دَرَسَ مِن تلكَ الرُّسُوْمِ المَاضِيَةِ، وَأَعَادَ لَهُمْ مَا كانُوا فِيْهِ مِنَ العِيْشَةِ الرَّاضِيَةِ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ مُسامِرَتَهُمْ بِالأَمْسِ وَهِيَ أَبْهَى مِنَ الشَّمْسِ، فغدَّتْ وَحَيَّتْ، وَلا أَحْجَمَتْ ولاَ استَحْيَتْ، وَلِهذَا قَالَ[٦]:

فَعَادَ لَهُمْ حُلْوُ المَعَاشِ الَّذِيْ سَرَّا ... كَأَنْ لَمْ يَكُنْ يَوْماً تَنَغَّصَ أَوْ مَرَّا
وَأَضْحَوا يُدِيرُونَ الخَلاعَةَ بَيْنَهُمْ ... وَلَمْ يَرْقُبُوا فِي ذَاكَ زَيْداً وَلا عَمْرَا
وَدَارَتْ عَلَيْهِمْ قَهْوَةٌ بَابِلِيَّةٌ[٧] ... يُسَمُّونَهَا مُذْ خَامَرَتْ عَقْلَهُمْ خَمْرَا
وَأَرْدَفَهَا سِحْرُ اللِّحَاظِ بِمِثْلِهَا ... مِنَ الحُبِّ لَمْ نَعْرِفْ زَبِيْباً وَلا تَمْرَا

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها من (السحق) وهو: السحاب الرقيق. أو من (السحيقة) وهي المطْرة العظيمة تجرف ما مرت به.

(٢) في الأصل: وحياهم. والصواب ما أثبته.

(٣) اللُّحْمةُ من الثوب، بالفتح والضم: ما سُدِّيَ بين السَّدَيَيْن، قال الأزهري: "ولُحْمةُ الثوب الأعْلى". أي الأعلى من الثوب. وفي المثل: ألْحِمْ ما أسْدَيْتَ، أي: تَمِّمْ ما ابْتَدَأْتَه من الإحسان. اللسان (لحم). والسُّدى: خلاف لُحْمة الثوب، وقيل: أسفله، وقيل: ما مُدَّ منه، واحدته سَداةٌ. اللسان (سدا).

(٤) غِراراً: غِرارُ النومِ: قِلَّتُه. اللسان (غرر).

(٥) في الأصل: وجددها. وهو خطأ.

(٦) من البحر الطويل.

(٧) بابلية: نسبة إلى (بابل) موضع في العراق، وهي مدينة قديمة يُنْسب إليها السِّحرُ والخمر، وورد ذكرها في القرآن الكريم. انظر: معجم البلدان ١/ ٣٠٩، وهي اليوم محافظة عراقية كبيرة، من مدنها الكوفة والحلة.

فَأَمْسَوا نَشَاوَى قَهْوَةٍ وَصَبَابَةٍ وَمَا بَيْنَ ذا السُّكْرَينِ قدْ أَنْفَقُوا[1] العُمْرَا

وَكَانَ حِيْنَ تَمَلَّى مِنْ غَرَامِهَا شِبَعاً وَرِيًّا، أَخْبَرَتْهُ أَنَّ اسْمَهَا الثُّرَيَّا، وَمَضَى لَهُمْ فِي ذلِكَ اليَوْمِ مِنَ البَسْطِ مَا أَرْبَى عَلَى الأَمْسِ، إِلَى أَنْ غَرُبَتِ الشَّمْسُ، فَفَرَّقَهُمْ هُجُوْمُ اللَّيْلِ، وَشَمَّرَ مِن أَنْسِهِمُ الذَّيْلَ، فَتَفَرَّقُوا عازِمِينَ عَلَى الاصْطِبَاحِ عِنْدَ إِسْفَارِ الصَّبَاحِ، ثُمَّ لَمَّا سَلَّ الفَجْرُ حُسَامَهُ المُشْرِقَ مِنْ جَفنِ المَشْرِقِ تَراكَضُوا إِلَى تِلكَ الدِّيَارِ تَسُوقُهُمُ الأَقْدَارُ، فَعِنْدَمَا دَخَلُوْهَا فَدَّاهُمُ[2] النَّخَّاسُ وَحَيَّاهُمْ، وَكَأَنَّمَا أَنْعَشَهُمْ وَأَحْيَاهُمْ، وَبَسَطَ لَهُمْ بُسُطَ الانْشِرَاحِ المُؤْذِنَةِ بِزَوَالِ الأَتْرَاحِ، فَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ، وَحَيَّوا مُجَالِسَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ خَرَجَ لَهُمْ غَيْرُ صَاحِبَتِهِمُ المَعْهُوْدَةِ، وَطِلْبَتِهِمُ[3] المَشْهُوْدَةِ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ بِبَيْعِهَا لِرَاغِبٍ وَرَدَ عَلَيْهَا لَيْلاً، وَأَوْسَعَهُ عَطَاءً وَنَيلاً، فَانْصَرَفُوا خَائِبِيْنَ، وَلِفَعْلَتِهِ عَائِبِيْنَ، وَأَمَّا ذلِكَ الشَّابُّ فَذَهَبَتْ أَفْرَاحُهُ، وَتَزَايَدَتْ أَتْرَاحُهُ، وَقَامَ يَجُرُّ بِرِجْلَيْهِ وَهُوَ كَالمُعْمَى عَلَيْهِ، وَلَزِمَ الوِسَادَ مَرِيْضاً، وَأَوْرَثَهُ الحُزْنُ دَاءً طَوِيلاً عَرِيْضاً، وَتَرَدَّدَ إِلَيْهِ إِخْوَانُهُ، وَأَنْصَارُهُ وَأَعْوَانُهُ، يُوْرِدُوْنَهُ مَوَارِدَ الصَّبْرِ وَالسُّلُوِّ، وَيَسْلُكُوْنَ فِيْهِ طُرُقَ المُبَالَغَةِ وَالغُلُوِّ، وَهُوَ لا يَزْدَادُ إِلاَّ وَجْداً وَكَلَفاً، وَغَرَاماً وَصَلَفاً، إِلَى أَنْ نَحَلَ جِسْمُهُ، / وَكَادَ يَعْفِي[4] أَثَرُهُ وَرَسْمُهُ، وَلَهُ فِي المَعْنَى[5]: [١٣/ب]

وَصَارَ كَالشَّنِّ[6] العَتِيْقِ البَالِيْ مِن وَصْمَةِ الغَرَامِ وَالبَلْبَالِ

وَلَهُ فِي المَعْنَى:

وَصْمَةِ الغَرَامِ وَالبَلْبَالِ لَوْ حُطَّ مَا فِيْهِ عَلَى الجِبَالِ
لَمْ تَخْطُرِ البُقْيَا لَهُ بِبَالِ مَا حَالُ مَن يُخْنَقُ بِالحِبَالِ
أَوْ يُلْقَ فِي يَدَيْ أَبِي الأَشْبَالِ أَوْ يُرْمَ بِالمَسْمُوْمِ مِنْ نِبَالِ
كَعَسِيرِ فاقِدِ الإِقْبَالِ فَهْوَ بِفَقْدِ الرُّوْحِ لا يُبَالِيْ

ثُمَّ إِنَّهُ أَفَاقَ بَعْضَ الإِفَاقَةِ – وَهُوَ عَلَى غَايَةٍ مِنَ الفَاقَةِ – فَأُشِيْرَ عَلَيْهِ بِقَصْدِ بَغْدَادَ دارِ السَّلامِ، فَرَآهُ مِنْ سَدِيْدِ الكَلامِ، فَوَجَّهَ إِلَيْهَا مَسْرَاهُ، وَوَاصَلَ نَحْوَهَا سُرَاهُ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ فِي رَيْعَانِ الشَّبَابِ، وَرَيْحَانِ الشَّبَابِ[7]، وَجِبَاهُ المُلُوكُ فِي أَثْرِهَا تُعَفَّرُ، بِدَوْلَةِ بانِيْهَا الخَلِيْفَةِ

---

(١) في الأصل: أنفق. والمثبت هو الصواب.

(٢) في الأصل: فداتهم. والصواب المثبت.

(٣) الطِّلْبة: المطلوب.

(٤) هكذا في الأصل، وصوابه: يعفُو، وعَفا الأثَرُ، بمعنى دَرَس وامَّحَى. اللسان (عفا).

(٥) من البحر الرجز.

(٦) الشَّنُّ: الخَلَقُ من كل آنية صُنِعَتْ من جلد، وجمعها شِنَانٌ. اللسان (شنن).

(٧) الشِّباب: ما أُوقد به.

المَنْصُورِ أَبِي جَعْفَرٍ، فَحِينَ حَلَّ بِوَادِيهَا أَمِنَ مِنَ النَّوائِبِ وَعَوَادِيهَا، وَأَيْقَنَ أَنَّ صُبْحَ سَعَادَتِهِ قَدْ سَفَرَ، فَأَزَالَ عَنْهُ وَعْثَاءَ السَّفَرِ، وَقَصَدَ دَارَ الوَزِيرِ مُدِلاً بِفَضْلِهِ الغَزِيرِ، وَعِنْدَمَا وَاجَهَهُ وَحَيَّاهُ، أَرَاهُ طَلاَقَةَ مُحَيَّاهُ، وَأَهَّلَ وَرَحَّبَ، وَأَوْسَعَ صَدْرَهُ وَأَرْحَبَ، وَسَأَلَ عَنِ الأَصْلِ وَالأَرُومَةِ، وَالمَحْتِدِ وَالجُرْثُومَةِ، فَتَسَمَّى لَهُ وَانْتَسَبَ، وَعَرَّفَهُ بِالمَجْدِ وَالحَسَبِ، وَأَعْرَبَ عَنْ بَلاَغَةٍ وَفَصَاحَةٍ وَسَلاَمَةٍ وَنَصَاحَةٍ، فَسُرَّ بِوُرُودِهِ سُرُورَ الأَحْبَابِ بِلِقَاءِ الأَحْبَابِ، وَمَدَّ لَهُ مِن أَنْوَاعِ المَعِيشَةِ الأَسْبَابَ، وَاتَّخَذَهُ صَدِيقاً، وَتَصَوَّرَ لَهُ صِدِّيقاً، وَاسْتَعْمَلَهُ فِي أَكْبَرِ سِلاَرْ عن[1] الدِّيْوَانِ العَزِيزِ، فَأَبْرَزَهَا كَالدِّيْوَانِ الإِبْرِيزِ، بِالمَعْنَى البَسِيطِ وَاللَّفْظِ الوَجِيزِ، هذَا، وَهُوَ مَشْغُولُ البَالِ، زَائِدُ البَلْبَالِ، لا يَرُوقُهُ جَمْعٌ، وَلا يُصْغِي مِنْهُ إِلَى عَذُولٍ سَمْعٌ، وَلا تَنْقَضِي لَهُ مِن أَهْلِ اللِّقَاءِ المَطَامِعُ، وَيَجْمَعُهُ وَالهَمَّ وَاللَّيْلَ جَامِعٌ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَتَرَ بِالتَّجَلُّدِ حَالَهُ، وَغَشَّى بِالتَّصَبُّرِ مَا غَيَّرَهُ اللَّيْلُ وَأَحَالَهُ، وَكَانَ مِمَّا قَدَّرَهُ اللهُ مِن سَعْدِهِ، وَأَنْجَزَ لَهُ مِن وَعْدِهِ، أَنْ طَلَبَ الخَلِيفَةُ مِن وَزِيرِهِ كَاتِباً ذَا بَلاَغَةٍ وَفَصَاحَةٍ، وَرَصَانَةٍ وَرَجَاحَةٍ، يُلازِمُ بَابَ قَصْرِهِ لِكِتَابَةِ مَا يعْرِضُ عَن مَدِّهِ وَقَصْرِهِ، بَرِيئاً مِنَ المَعَارِّ وَالتُّهمَاتِ، يُعْتَمَدُ عَلَى مِثْلِهِ فِي المُهِمَّاتِ، فَأَنْطَقَهُ اللهُ بِوَصْفِ ذلِكَ الرَّجُلِ الغَرِيبِ، الأَدِيبِ الأَرِيبِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ المُرَادِ، وَمِنَ الفَضَائِلِ مُخْتَصِبُ المَرَادِ، فَأَمَرَ بِوَصْفِهِ إِلَيْهِ، وَعَرْضِهِ عَلَيْهِ، فَعِنْدَمَا رَآهُ[2] أَعْجَبَهُ مَرْآهُ وَاسْتَنْطَقَهُ فَأَعْرَبَ عنْ فَحْوَاهُ، وَأَفْصَحَ عَنْ سِرِّ عِلْمِهِ وَنَجْوَاهُ، فَاتَّخَذَهُ سَمِيراً وَنَدِيماً، وَرَفَعَهُ عَن أَنْ يَكُونَ خَدِيماً، وَاتَّخَذَهُ عبيَّةً لأَسْرَارِهِ وَاعْتَمَدَهُ لإِضْمَارِهِ وَإِظْهَارِهِ، وَنَوَّلَهُ مِنَ السَّعَادَةِ سِهَامَهُ، وَأَغْدَقَ لَهُ مِن غَمَامِ الفَضْلِ وَبْلَهُ وَرِهَامَهُ، وَأَدَرَّ لَهُ أَخْلاَفَ السَّعْدِ، وَأَنْجَزَ لَهُ الدَّهْرُ مَا سَبَقَ مِنَ الوَعْدِ، فَأَصْبَحَ وَالنَّجْمُ دُونَ مَحَلِّهِ، وَقَدْ هَزَمَ صُبْحُ الخِصْبِ لَيْلَ مَحْلِهِ، وَنَاجَتْهُ النِّعَمُ بِبُشْرَاهَا، فَحَمِدَ عِنْدَ صَبَاحِ الإِقْبَالِ مَسْرَاهَا. وفِي المَعْنَى[3]:

وَإِذَا مَا الحَظُّ وَافَى مُحْرِمَاً[4] ... عَادَ مَثْوَى الخَوْفِ مِنْهُ حَرَمَا
وَأَتَى الدَّهْرُ لَهُ مُعْتَذِراً ... بَاذِلاً بِالْبُخْلِ مِنْهُ كَرَمَا
وَإِلَيْهِ السَّعْدُ وَافَى خَادِماً ... بَعْدَمَا كَانَ حَفِيًّا مُصْرِمَا[5]
وَاسْتَرَاحَ البَالُ مِنْ بَلْبَالِهِ ... وَلَقَدْ كَانَ شَقِيًّا مُغْرَمَا
وَلَعَمْرِي مَنْ بِهِ الحَظُّ اعْتَنَى ... زِيدَ مَا قَدْ كَانَ مِنْهُ مُحْرَمَا

---

(١) كذا في الأصل. ولو جعل "في" بدل "عن" لكان أولى. و"سلار" و"سالار" لقب يطلق على الآمر الأعلى أو الرئيس في العصر المملوكي. (انظر معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، لمحمد دهمان: ص٩١، ٨٨).

(٢) في الأصل: أراه. والمثبت هو الصواب.

(٣) من البحر الرمل.

(٤) مُحْرَما: يقصد: مَحروما، وهو الشقي الَّذِيْ لا يصيب خيراً من وجه يتوجه إليه. اللسان (حرم).

(٥) مصرماً: يقال: رجل مُصْرِمٌ: قليل المال من ذلك. اللسان (صرم).

وَلَمْ يَزَلْ رَاتِعاً في مَرَاتِعِ الفَضْلِ وَالكَرَمِ، آمِنَ السِّرْبِ مِنْ ذلِكَ الحرَمِ، لا يُقَعْقَعُ لَهُ بِشِنَانٍ[1]، وَلا يُقْدَرُ لَهُ عَلَى شَنَآنٍ، إِلَى أَنْ دَعَاهُ الخَلِيفَةُ في بَعْضِ الأَيَّامِ وَقَدْ قُوِّضَتْ مِنَ النَّهَارِ الخِيَامُ، / وَأَخَذَ يُعَدِّدُ لَهُ صَنَائِعَهُ الحَسَنَةَ، وَبَدَائِعَهُ المُسْتَحْسَنَةَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنِّي اخْتَرْتُكَ لِمُهِمٍّ أَهَمَّنِي، وَمُلِمٍّ أَكْرَبَنِي وَغَمَّنِي، وَهُوَ عَدُوٌّ لي مُخْتَفٍ بِالبَصْرَةِ وَضَوَاحِيهَا مُسْتَتِرٌ في جَوَانِبِهَا وَنَوَاحِيهَا، وَكُلٌّ مَن نَدَبْتُهُ لِكِفَايَةِ أَمْرِهِ، وَعَدِمَ مُرَاعَاةَ زَيْدِهِ وَعَمْرِهِ، لا أَرَى مِنْهُ إِلاَّ غِشّاً، وَكَانَ مِمَّنْ مَوَّهَ في كَلامِهِ وَوَشَّى، وَقَدْ أَعْدَدْتُكَ لِكِفَايَتِهِ ذُخْراً، وجَعَلْتُ لَكَ مِن الوِلايَةِ مَا تَزْدَادُ بِهِ فَخْراً، وَقَدْ فَوَّضْتُ إِلَيْكَ وِلايَةَ البَصْرَةِ وَأَعْمَالِهَا، وَالنَّظَرَ في تَفْصِيلِهَا وَإِجْمَالِهَا، وَوَثِقْتُ مِنْكَ بِنَصَاحَةِ الجَيْبِ، وَالبَرَاءَةِ مِنَ العَيْبِ، فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَأُعِيذُكَ بِاللهِ أَنْ تَعْتَدِيَ بِمَكْرِ المَاكِرِينَ، وَمَتَى حَصَلَتِ الضَّالَّةُ المَنْشُودَةُ، والبُغْيَةُ المَقْصُودَةُ، ازددتَ مِنِّي تَقَرُّباً، وَنَوَّهْتُ بِاسْمِكَ شَرْقاً وَغرباً[2]، ثُمَّ نَاوَلَهُ عَهْدَ الوِلايَةِ وَعَقَدَ لَهُ بِالإِمَارَةِ رَايَةً، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى دَارِهِ وَمَحَلِّ قَرَارِهِ، فَأَتْبَعَهُ بِمَا تَقَرُّ بِهِ العَيْنُ، مِنَ الخُلَعِ وَالعِيْنِ، ثُمَّ لَمَّا احْلَوْلَكَ مِنَ اللَّيْلِ الإِهَابُ[3]، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ ضَوْءُ الشِّهَابِ، دَخَلَ إِلَيْهِ بَعْضُ خَدَمِهِ المُعَدِّيْنَ لِحَوَائِجِهِ وَخِدَمِهِ، وَأَخْبَرَهُ بِوُصُولِ أَبِي المِسْكِ كافُورٍ[4] خادِمِ أَمِيرِ المُؤْمِنِيْنَ، وَمَعَهُ عِدَّةُ خَدَمٍ مِنَ البَنَاتِ وَالبَنِيْنَ، وَأَسْبَابٌ كَثِيْرَةٌ وَفُرُشٌ وَثِيْرَةٌ، وَأَنْوَاعٌ مِنْ فَاخِرِ الأَطْعِمَةِ، وَدَسَاتِجُ[5] بِلَذِيذِ الأَشْرِبَةِ مُفْعَمَةٌ، فَخَرَجَ إِلَى[6] لِقَائِهِ، وَتَزَايَدَ مِنْهُ الدُّعَاءُ بِطُولِ سَلامَتِهِ وَبَقَائِهِ، وَتَسَلَّمَ مَا أَتَى عَلَى يَدِهِ مِنَ النِّعَمِ، وَدَخَلَ إِلَى دَارِهِ وَقَدَ شَمَلَهُ السُّرُورُ وَعَمَّ، وَدَخَلَتْ تِلْكَ الجَوَارِيْ كالنُّجُومِ الدَّرَارِي، وَبَيْنَهُنَّ وَاحِدَةٌ كَأَنَّها لَهُنَّ رَئِيسَةٌ، وَقَدْ أَثْقَلَهَا المَلابِسُ الفَاخِرَةُ النَّفِيسَةُ، وَفَرَشُوا الدَّارَ بِتِلْكَ الفُرُشِ الرَّفِيعَةِ ذَوَاتِ النُّقُوشِ البَدِيعَةِ، وَنَصَبُوا مَوَائِدَ الطَّعَامِ، وَنَضَّدُوا عَلَيْهَا مَا أَتَوْا بِهِ مِنَ الأَنْعَامِ، هذَا، وَرئِيستُهُنَّ قَدْ وَصْوَصَتْ[7] النِّقَابَ وَوَالَتِ الارْتِقَابَ، وَهِيَ تَنْهَى وَتَأْمُرُ، وَتُخَرِّبُ مَا لا يُعْجِبُها مِنْ وَضْعِهِنَّ

[٢١٤/أ]

---

(١) الشِّنان: جمع شَنٍ والشَّنّ: القربة البالية، يحركونها إذا أرادوا حث السير لتفزع الدابة فتسرع، قال النابغة:

كأنك من جمال بني أقيش يقعقع خلف رجليه بشن

وفي المثل: ما يقعقع له بالشِّنان، يضرب لمن لا يتضع لما ينزل به من حوادث الدهر. انظر: مجمع الأمثال، للميداني ٣/ ٢٣٨.

(٢) كان الأولى أن يقول: "ومغرباً"، لتتفق السجعة مع "تقرباً"، أو أن يقول في الأولى: "قرباً"، لتتفق مع "غرباً".

(٣) في الأصل: الإرهاب. وهو خطأ.

(٤) كافور: لم أعثر له على ترجمة، وهو ليس كافوراً الإخشيدي صاحب المتنبي، إذ المقصود في المتن شخص آخر خدم في بلاط أبي جعفر المنصور، وأظنه شخصية رمزية غير حقيقية.

(٥) الدَّساتج: جمع دَسْتَجَة، كلمة معرّبة، معناها الإناء الكبير.

(٦) تكررت "إلى" في الأصل سهواً.

(٧) وَصْوَصَت الجاريةُ إذا لم يُرَ مِنْ قِناعها إلا عيناها. اللسان (وصص).

وَتُعمِّرُ، وَهُوَ يَتعَجَّبُ مِمَّا تُبْدِيهِ، وَتَلْحُمُهُ وَتُسْدِيهِ، مِنْ نَقْضٍ وَإِبْرَامٍ، وَتَحَكُّمٍ في مُرَادٍ وَمَرَامٍ، فِعْلَ مَن سَبَقَتْ لَهُ مُعَاشَرَةٌ، أَوْ تَقَدَّمَتْ لَهُ مُصَاحَبَةٌ وَمُكَاشَرَةٌ، ثُمَّ وَاجَهَتْهُ بِالعَزِيمَةِ إِلَى تِلْكَ الوَلِيمَةِ، وَهِيَ مَعَ تَرْكِ الاستِحْيَا، لا تُسفِرُ عَنِ المُحَيَّا، وَعِندَمَا جَلَسَا لِلتَّنَاوُلِ مِن ذلِكَ الطَّعَامِ، وَالتَّنَبُّطِ[1] في نَعِيمِ ذلِكَ الإنعَامِ أَمَاطَتْ عَنْ وَجْهِهَا الحِجَابَ، وَقَالَتْ بِلِسَانِ الإعْجَابِ[2]:

يَا مَنْ تَبَدَّى سَرِيًّا أَهَلْ نَسِيتَ الثُّرَيَّا؟!

فَعِنْدَمَا حَقَّقَ رُؤْيَاهَا، وَاستَنْشَقَ رَيَّاهَا، أَخَذَتْهُ غَشْيَةٌ أَحْدَثَتْ مِن فَوْتِهِ خَشْيَةً، وَبَعْدَ لأْيٍ أَفَاقَ وَتَعَجَّبَ مِن غَرِيبِ هذا الاتِّفَاقِ، وَبَاتَا بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ قَدْ كُفِيَا حَرَبَ الزَّمَانِ وَوَيْلَهُ، ثُمَّ لَمْ يرث[3] أَنْ تَوَجَّهَ إِلَى عَمَلِهِ مُبَلِّغاً غَايَةَ أَمَلِهِ، وَبَذَلَ الجُهْدَ فِيمَا نُدِبَ إِلَيْهِ، وَعُوِّلَ فِيهِ عَلَيْهِ، إِلَى أَنْ تَيَسَّرَ وَتَسَهَّلَ، بَعْدَ أَنْ أَحْزَنَ في طَلَبِهِ وَأَسْهَلَ، وَازْدَادَ حُظْوَةً عِنْدَ الخَلِيفَةِ، وَجَعَلَهُ سَمِيرَهُ وَحَلِيفَهُ، إِلَى أَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا المَوْتُ وَغَالَهُمَا الفَوْتُ. فَمَا سُمِعَ بِمِثْلِ هذَا السَّمَرِ في الأَسْمَارِ، وَلا تَسَامَرَ بِنَظِيرِهِ السُّمَّارُ.

المَقَامَةُ السَّادِسَةُ (الوَاسِطِيَّةُ):

حَدَّثَ بَعْضُهُمْ قالَ: كانَ في جِوارِيْ بِواسِطَ شَابٌّ حَسَنٌ، ذُوْ بَلاغَةٍ وَلَسَنٌ، غَيْرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ استَهْوَاهُ وَامتَحَنَهُ بِمُعَاقَرَةِ الشَّرَابِ وَأَغْوَاهُ، فَكَانَ لا يَصْحُوْ مِنْ خُمَارٍ، وَلا يُفَارِقُ حَانَةَ خَمَّارٍ، يَقْطَعُ المَسَاءَ وَالصَّبَاحَ في الاغْتِبَاقِ وَالاصْطِبَاحِ، وَيَصِلُ النَّهَارَ بِاللَّيلِ وَهُوَ في ذلِكَ مُشَمِّرُ الذَّيْلِ لا يُصْغِي لِلَوْمِ لائِمٍ، وَلا يَنْفَكُّ عَنْ عَمَلِ الوَلائِمِ، وَلَمْ يَزَلْ مُستَصْحِباً لِهذَا الحالِ في الخِصْبِ وَالإمْحَالِ إِلَى أَنْ أَتْلَفَ مَالَهُ في المَالِ وَالكَبَابِ[4]، وَالشَّرَابِ وَمُعَاشَرَةِ الأَتْرَابِ، وَأَصْبَحَ فَقِيراً لا يَمْلِكُ فَتِيلاً وَلا نَقِيراً يَرْثِيْ لَهُ الشَّامِتُ وَالحَسُودُ، وَيَرِقُّ لَهُ السَّيِّدُ وَالمَسُودُ، يَتَلَهَّبُ في جَمَرَاتِ فَقْرٍ مُدْقِعٍ، وَيَتَقَلَّبُ في غَمَرَاتِ بُؤْسٍ في كُلِّ بَلاءٍ يُوقِعُ، فَلَبِثَ عَلَى ذلِكَ حِيناً / مِنَ الدَّهْرِ يَتَجَرَّعُ غُصَصَ القَسْرِ وَالقَهْرِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ بَعْدَ مُدَّةٍ، وَالسَّعْدُ قَدْ أَمَدَّهُ، وَتَرَاجَعَتْ [١٤/ب] حَالُهُ وَأَخْصَبَ إِمْحَالُهُ، وَأَقْلَعَ وَتَابَ وَلاذَ بِالمَتَابِ، وَأَصْبَحَ مَلِيًّا غَنِيًّا مُكَرَّماً سَرِيًّا، فَسَأَلْتُهُ عَنْ سَبَبِ الغِنَى وَمَا الَّذِيْ أَرَاحَهُ مِن ذلِكَ، فَدَافَعَنِي عَنِ الجَوَابِ فَمَا انْدَفَعَتْ، وَسَأَلَنِي أَنْ أَرْفَعَ عَنْهُ سُؤَالِي فَمَا رَفَعْتُ، وَبَالَغْتُ وَأَبْرَمْتُ، وَأَجَّجْتُ نَارَ المَسْأَلَةِ وَأَضْرَمْتُ، فَلَمَّا رَأَى مِنِّيْ الجِدَّ وَحَالَةَ

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: التبسّط، أي التنزه.

(٢) من البحر المجتث.

(٣) يرث: يبطئ.

(٤) الكباب: هو الطَّباهجة، وجاء في اللسان: الطَّباهِجَةُ: فارسيٌّ معرَّب، ضربٌ من قليّ اللحم. اللسان (كبب) و (طبهج).

المُجْتَهِدِ المُجِدِّ، [قالَ:] [1] أُخبِرُكَ بِشَرْطِ الكِتْمَانِ، وَأَنْ تُعْطِيَنِي مِنَ الإِذَاعَةِ الأَمَانَ، فَعَاهَدتُهُ عَلَى ذلِكَ وَسَتْرِ مَا هُنَالِكَ، فقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ مِنَ الفَاقَةِ، وَالحالَةِ الَّتي لَمْ أَجِدْ مِنْ أَلَمِهَا إِفَاقَةً، وَقُدِّرَ أَنْ وَلَدَتِ الزَّوْجَةُ بَعْدَ العِشَاءِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا شَيءٌ مِنَ العَشَاءِ، فَقَالَتِ: انْظُرْ لي طَعَاماً أَحْسُو مِنْهُ مَا يُمْسِكُ رَمَقِي، وَيُسْعِفُ مِن قُوَّتِي مَا بَقِيَ، وَكَانَ الوَقْتُ [2] بارِداً وَسَهْمُ الزَّمْهَرِيْرِ صَارِداً [3]، فَخَرَجْتُ عَلَى وَجْهِي أَطْلُبُ مَن يَتَصَدَّقُ عَلَيَّ أَوْ يَنْظُرُ بِعَينِ الرَّحْمَةِ إِلَيَّ، وَمَالَ بِيَ السَّيْرُ إِلَى زُقَاقٍ طَوِيلٍ غَيْرِ نَافِذٍ، لا تَسلُكُهُ مِن ظُلْمَتِهِ القَنَافِذُ، وَفِي صَدْرِهِ بَابٌ مَفْتُوحٌ، وَضِمْنَهُ سِرَاجٌ يَلُوحُ، فَقُلْتُ لِنَفْسِي: البِدَارَ البِدَارَ، وَتَقَحَّمْتُ الدَّارَ، وَإِذَا في صَدْرِهَا رَجُلٌ يُوقِدُ ضِرَاماً وَقَدْ وَضَعَ عَلَيْهِ قِدْراً بِرَاماً [4]، فَعِنْدَمَا رَآنِي صَاحَ صَيْحَةً مُنْكَرَةً، وَقَالَ: أَتَظُنُّ هذِهِ الدَّارَ الدَّسْكَرَةَ [5]، فَتَدْخُلُ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، وَتَتَعَرَّضُ لِعَرْكِ الآذَانِ؟! فَقَصَّيْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِي، وَمَا تَجَرَّعْتُ مِن غُصَّتِي، فَأَدْرَكَتْهُ رَأْفَةٌ عَلَيَّ، وَنَظَرَ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ إِلَيَّ، وَقَالَ: امْضِ إِلَى ذلِكَ البَيْتِ وَاسْتَرِحْ فِيهِ قَلِيْلاً، وَعَلِّلْ نَفْسَكَ بِالمُنَى تَعْلِيلاً، إِلَى أَنْ يَسْتَوِيَ هذا الطَّعَامُ، وَأُعْطِيَكَ مِنْهُ ما يَكْفِيْكَ الاسْتِطْعَامَ، وَأَهَبُكَ نَفَقَةً تَكْفِيْكَ أَيَّاماً، وَتَبَرُّ بِهَا يَتَامى وَأَيَامى، وَدَفَعَ إِلَيَّ كِسَاً، وَقَالَ: تَغَطَّ بِهِ مِنْ هذا البَرْدِ الَّذِيْ عَسَا [6]، وَكُنْتُ بِقَمِيْصٍ، وَالجَوْفُ خَمِيْصٌ، فَلَمْ يَطْرُقْنِي النَّوْمُ جَزَعاً وَخَوْفاً وَفَزَعاً، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ جَاءَ رَجُلٌ عَارِيْ الجِسْمِ، مُوفِرٌ مِنَ الشَّقَاوَةِ القِسْمِ، يَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهِ شَيْئاً ثَقِيلاً، وَجَعَلَ سَبَبَ قُوَاهُ كَلِيلاً، فَقَامَ إِلَيْهِ الذِي كَانَ يَطْبُخُ وَأَنْزَلَهُ عَنْ رَأْسِهِ، وَاسْتَوْثَقَ مِنَ البَابِ بِأَغْلاقِهِ وَأَمْرَاسِهِ [7]، وَأَخَذَ يَسْأَلُهُ عَنْ إِبْطَائِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ قَدْ يَئِسَ مِن لِقَائِهِ، فَقَالَ: إِنِّيْ كُنْتُ يَوْمِي وَلَيْلَتِي خَلْفَ حَطَبٍ لَهُمْ مُخْتَفِياً، وَكَانَ الأَمْنُ عَنْ نَفْسِي مُنْتَفِياً، إِلَى أَنْ تَمَكَّنْتُ مِنْ أَخْذِ هذِهِ البَدْرَةِ، وَلَمْ أَدْرِ هَلْ حَوَتْ شَمْسَ النَّقْدِ أَمْ بَدْرَهُ، وَقَدْ مِتُّ جُوْعاً، وَفَقَدتُّ قَراراً وَهُجُوْعاً، فَانْظُرْ إِلَى مَا يَسُدُّ جُوْعِي، وَيُسَبِّبُ هُجُوْعِي، وَمَضَى فَلَبِسَ عَلَيْهِ شَيَّاً، وَقَامَ ذاكَ فَغَرَفَ مِنَ الطَّعَامِ مَا تَهَيَّأَ، وَجَلَسَا يَأْكُلانِ وَيَتَحَادَثَانِ، وَيَتَحَاسَبَانِ كَأَنَّهُمَا مُتَوَارِثَانِ، وَقَدْ جَزِعَتْ نَفْسِي جَزَعاً، وَصَارَ عَقْلِي فَزِعاً، وَصِرْتُ مُتَحَيِّراً لا أَدْرِيْ مَا أَصْنَعُ، وَلا

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) في الأصل: "الوقت الوقت" وهو سهو.

(٣) الصارد: البارد. اللسان (صرد).

(٤) برام: البُرْمَةُ: قِدْر من حجارة، والجمع بَرَمٌ وبِرامٌ وبُرْمٌ. اللسان (برم).

(٥) الدَّسْكَرَةُ: بناءٌ كالقَصْرِ حولَه بيوت للأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي. اللسان (دسكر).

(٦) عَسا: اشتدّ. اللسان (عسا).

(٧) المَرَسة: الحبل، والجمع مَرَسٌ وأمْراس. اللسان (مرس).

كَيْفَ أَدْرَأُ عَن نَفْسِي وَأَمْنَعُ[1]، وَلَمْ أَرَ غَيْرَ التَّنَاوُمِ حِيلَةً، إِذْ كُلُّ صُورَةٍ صَوَّرْتُها أَرَاهَا مُسْتَحِيلَةً، وَسَلَّمْتُ نَفْسِيَ لِلأَقْدَارِ وَمَا يَجْرِي بِهِ الفَلَكُ الدَّوَّارُ، وَأَخَذَا يَتَنَادمان عَلَى شَرَابٍ أَخْرَجَاهُ بَعْدَمَا مَزَجَاهُ، وَأَقْبَلَ الَّذِي كَانَ عُرْيَاناً مِنْهُ يَسْتَكْثِرُ، وَلا يَدَعُ لِصَاحِبِهِ وَلا يُؤْثِرُ، وَصَاحِبُهُ يُحَسِّنُ لَهُ ذلِكَ وَيَقُولُ: عَسَاهُ يَدْفَعُ عَنْكَ سَوْرَةَ البَرْدِ، فَإِنَّهُ يَدْفَعُ ما لا تَدْفَعُهُ مُقَدِّرَاتُ السَّرْدِ[2]، إِلَى أَنْ سَكِرَ وَنَامَ، وَسَقَطَ إِلَى الأَرْضِ مِنْهُ السَّنَامُ، وَقَامَ الأَوَّلُ في الدَّارِ يَطُوفُ كالبَاشِقِ الخَطُوفُ، ثُمَّ جَاءَنِي وَكَلَّمَنِي فَمَا نَبَسْتُ، وَمَسَكْتُ نَفْسِي وَحَبَسْتُ، فَرَقاً مِن أَنْ يَعْلَمَ اطِّلاَعي عَلَى المَسْلُوبِ وَالمالِ المَجْلُوبِ، فَيُلْحِقَنِي بِمَنْ فاتَ مِن آفَاتِ العِظَامِ الرُّفَاتِ، فَتَحَقَّقَ نَوْمِي، وَأَمِنَ لَوْمِي، وَذَهَبَ إِلَى ذلِكَ النَّائِمِ وَقَدْ فَغَرَ فاهُ، فَذَبَحَهُ مِن قَفَاهُ، وَلَفَّهُ في كِسَاءٍ وَاحْتَمَلَهُ، وَتَرَكَ البابَ مَفْتُوحاً وَأَهْمَلَهُ، فَقُلْتُ في نَفْسِي: مَا ذَا القُعُودُ وَقَدْ أَسْفَرَتِ السُّعُودُ؟ فَقُمْتُ إِلَى تِلْكَ البِدْرَةِ وَلَفَفْتُها في الكِسَا، وَتَرَكْتُ قَوْلَ لَعَلَّ وَعَسَى، وَخَرَجْتُ أَسْعَى أَشَدَّ السَّعْيِ، وَلَمْ يَبْقَ مَعِي شَيءٌ مِنَ الوَعْيِ، فَلَمْ أُطِلْ حَتَّى رَأَيْتُ / إِنْسَاناً خَرَجَ مِنْ بابِ مَسْجِدٍ للحَاجَةِ، فَخَالَفْتُهُ [١٥/أ] إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ وَيُحْكِمَ رِتَاجَهُ، وَوَضَعْتُ مَا حَمَلْتُ، وَتَصَبَّرْتُ وَاحْتَمَلْتُ، وَجَاءَ الَّذِي خَرَجَ مِن المَسْجِدِ وَأَغْلَقَ بَابَهُ وَتَفَقَّدَ أَسْبَابَهُ، وَعِنْدَمَا رَآنِي أَنْكَرَ دُخُولِي وَسَأَلَنِي عَن سَبَبِ حُلُولِي، فَقُلْتُ: رَجُلٌ غَرِيبٌ جِئْتُ مِن السَّوَادِ[3] السَّاعَةَ، وَمَعِي بَعْضُ بِضَاعَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ في الإِمْكَانِ أَنْ أَتَجاوَزَ هذَا المَكَانَ، فَأَجِرْنِي يا إِنْسَانُ، وَتَمِّمِ الإِحْسَانَ. فَقَالَ: نَمْ مَكانَكَ فَقَدْ بَلَغْتَ أَمَانَكَ. فَلَمْ أُطِلْ حَتَّى سَمِعتُ في الطَّرِيقِ حَرَكَةَ سَعْيٍ شَدِيدٍ وَصَوْتَ رَجُلٍ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ صَوْتُ صَاحِبِي بِعَيْنِهِ أَدَامَ اللهُ مُدَّةَ بَيْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: فَعَلَهَا ابْنُ الزَّانِيَةِ! مَنْ لِي بِأَنْ أُلْقَاهُ ثَانِيَةً؟ وَيْلِي عَلَى دَمِهِ، وَلا أَمُوتُ بِنَدَمِهِ. فَأَبْصَرْتُ مِن شِبَاكِ المَسْجِدِ، وَإِذَا في يَدِهِ خِنْجَرٌ مُجَرَّدٌ، وَهُوَ بِصُورَةِ المُطَرَّدِ المُشَرَّدِ، يَتَرَدَّدُ جائِياً وَذَاهِباً، لا وَجِلاً وَلا رَاهِباً، وَيُعْمِيْ اللهُ عَن بابِ المَسْجِدِ بَصَرَهُ، وَيُرِيْنِي مِن لُطْفِهِ آيةً مُبْصِرَةً، إِلَى أَنْ أَيِسَ وَمَضَى، وَقَدْ قَضَى اللهُ عَلَيهِ ما قَضَى، وَلَمْ أَزَلْ طُوْلَ لَيْلَتِي سَاهِرَ الأَجْفَانِ، مُلازِمَ الرَّجَفَانِ، إِشْفَاقاً مِن غِيلَةِ ذلِكَ المُعْتَدِي، وَخَوْفاً عَلَى ما دَخَلَ في يَدِيْ، إِلَى أَنْ أَضَاءَ الصَّبَاحُ، وَانْقَضَتْ دَوْلَةُ المِصْبَاحِ، وَأُذِّنَ في المَسْجِدِ فَخَرَجْتُ كَأَنِّي أَتَوَضَّأُ لِلصَّلاةِ، وَحَمَلْتُ ما قُدِّرَ لي مِنَ الصِّلاتِ، وَمَشَيْتُ في الطَّرِيْقِ وَقَدْ كَثُرَ مَشْيُ النَّاسِ، وَتَبَدَّلَتِ الوَحْشَةُ بِالاسْتِئْنَاسِ، حتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى البَيْتِ، وَقَدْ حَصَلْتُ عَلَى ما سَبَيْتُ، فَأَخْفَيْتُهُ عَنِ العُيُونِ، فِعْلَ المُفْلِسِ المَدْيُونِ، وَأَصْلَحْتُ بِقَلِيْلٍ مِنْهُ حالَ الزَّوْجَةِ وَحَالِي، وَآزَلْتُ بِالخِصْبِ

---

(١) في الأصل: وأصنع. والمثبت هو الصواب.

(٢) السَّرد: اسم جامع للدروع وسائر الحلق. اللسان (سرد).

(٣) السَّواد: ما حول المدن من قرى ورساتيق. اللسان (سود).

مِنْهُ دَرَنَ إِمْحَالِي، وَكَانَ لأَبِي ضَيْعَةٌ قَدْ خَرِبَتْ، وَتَلاشَتْ أَحْوَالُها وَاضطَرَبَتْ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهَا، وَصَرَفْتُ[1] - غَالِبَ أَوْقَاتِي - المالِ عَلَيْها، إِلَى أَنْ أُصْلِحَتْ حالُهَا وَعَمَرَتْ، وَازْدَهَرَتْ أَدْوَاحُها وَأَثْمَرَتْ، وَتَرَاجَعَ ضِيْقُ الحالِ إِلَى السَّعَةِ، وَبَقِيْنَا مَعَهُ في خَفْضٍ وَدَعَةٍ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لا يَقَعُ إِليّ أَبَداً[2] مِثْلُ هذا الاتِّفَاقِ، فَتَرَكْتُ الإِسْرَافَ في الإِنْفَاقِ، وَلَزِمْتُ التَّقْوَى، فَمَا[3] أَقْفَرَ لي مَنْزِلٌ مِنَ الخَيْرِ وَلا أَقْوَى.

وَقَالَ الرَّاوِيْ: فَلَمَّا فَرَغَ مِن قَوْلِهِ، وَمَا قَاسَاهُ مِن قَسْوَةِ ذلِكَ الظَّالِمِ وَهَوْلِهِ، ومَا ساقَتْهُ إِلَيْهِ الأَقْدَارُ، حتَّى خَلَصَ مِن تِلْكَ الأَكْدارِ، وَوَفَيْتُ لَهُ بِعَهْدِ الكِتْمَانِ، وَلَمْ أُحَدِّثْ بِهِ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ غَدَرَ[4] به الزَّمَانُ، وَطَوَيْتُ اسْمَهُ طَيَّ السِّجِلِّ لِلكِتَابِ. وَاللهُ يُوَفِّقُنَا لِلمَتَابِ.

المَقَامَةُ السَّابِعَةُ:

إِنَّ مِنْ عَجِيْبِ الأَسْمَارِ، وَغَرِيبِ ما يَتَسَامَرُ بِهِ السُّمَّارِ، ما حَكَاهُ قباث بنُ رزينٍ اللَّخميُّ[5] عَنْ نَفْسِهِ، وَمَا وَقَعَ لَهُ في أَسْرِهِ وَحَبْسِهِ، قالَ: أُسِرْتُ في خِلاَفَةِ مُعَاوِيَةَ، عِنْدَ كِلابِ الرُّوْمِ العَاوِيَةِ، وَكَانَ طاغِيَتُهُمْ إِذْ ذاكَ أَشَدَّ الكُفَّارِ عَدَاوَةً لِلإِسْلامِ وَأَهْلِهِ، إِلاَّ أَنَّهُ كانَ حَلِيْماً في حَزْنِهِ وَسَهْلِهِ، وَكانَ أَسْرَى المُسْلِمِيْنَ في أَيَّامِهِ أَحْسَنَ حَالاً، وَأَقَلَّ جَدْباً وَإِمْحَالاً، ثُمَّ لَمَّا هَلَكَ، وَتَغَلَّبَ ابنُهُ وملَكَ، قالَ: إِنَّ الأَسْرَى إِذا طَالَ مُكْثُهُمْ بِبَلَدٍ - وَلَوْ كانَ رَدِيًّا - صَارَ لَهُمْ كالوَطَنِ، وَأَلِفُوْهُ كمَا يُؤْلَفُ العَطَنُ، وَلا شَيْءَ أَنْكَى لِقُلُوْبِهِمْ مِن نَقْلِهِمْ مِن بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَأَنَّهُمْ لا يُمَكَّنُوْنَ[6] مِنِ اتِّخَاذِ زَوْجَةٍ وَلا وَلَدٍ. وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ اثْنَيْ عَشَرَ قِدْحاً[7] بِعَدَدِ بَطارِقَتِهِ الكِبَارِ، وَكَتَبَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا اسْمَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِمَا يَرُوْمُهُ مِنَ الاعْتِبَارِ، وَيَضْرِبُ بِتِلْكَ القِدَاحِ في كُلِّ سَنَةٍ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَيَنْظُرُ مَا يَخْرُجُ في تِلْكَ الكَرَّاتِ، فَمَنْ خَرَجَ بِاسْمِهِ القِدْحُ الأَوَّلُ حُوِّلَ المُسْلِمُوْنَ إِلَيْهِ، وَعَوَّلَ في حِفْظِهِمْ عَلَيْهِ، فَاحْتَبَسَهُمْ عِنْدَهُ شَهْراً، وَآذَاقَهُمْ نَكَالاً وَقَهْراً،

---

(١) في الأصل: أصرفت. والصواب المثبت.

(٢) في الأصل: أبد. وهو خطأ.

(٣) في الأصل: فلما.

(٤) في الأصل: بعد أن عن غدر. وعن هنا زائدة.

(٥) في الأصل: قباب. قال في القاموس المحيط، للفيروزآبادي، تحقيق محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤٢٤هـ ١/٢٢٢: "قبث به يقبث قبض، وقباث -كسحاب- ابن رزين اللخمي: محدّث". وفي كتاب المعرفة والتاريخ للفسوي: "وقال ابن بكير: توفي قباث بن رزين اللخمي سنة سبع أو ثمان وخمسين ومائة، ثم بلغني أنه عرض كتابي على ابن بكير فقال: سنة ست أو سبع". ١/٨.

(٦) في الأصل: يمكنوا.

(٧) في الأصل: قدح. وهو خطأ.

وَمَن خَرَجَ بِاسْمِهِ القِدْحُ الثَّانِي ذَهَبُوا بِهِمْ إِلَيْهِ وَقَدْ تَعَوَّذُوا مِن شَرِّهِ بِالسَّبْعِ المَثَانِي، وهكَذَا يَفْعَلُوْنَ في الثَّالِثِ وَهُمْ يَتَلاهَوْنَ بِالمَثَانِي وَالمَثَالِثِ، ثُمَّ تُعَادُ القِدَاحُ بَعْدَ ذلِكَ وَيَسْلُكُوْنَ بِهَا تِلْكَ المَسَالِكَ. قَالَ: فَكُنَّا لا نَصِيْرُ إِلَى وَاحِدٍ مِن أُولئِكَ المَلاحِدِ إِلاَّ قَالَ: احْمَدُوا اللهَ خَالِقَ الإِنْسِ والجَانِّ حِيْنَ لَمْ يَبْتَلِكُمْ بِبِطْرِيْقِ ثَغْرِ البرجان. قال: فَكُنَّا نَرْتَاعُ لذكرِهِ، ونُداومُ عَلَى حَمْدِ اللهِ وشُكْرِهِ، إِذْ لم يُرَوِّعْنا / بِرُؤْيَتِه، ولم يُبَلِّغْهُ مِنَ التَّحَكُّمِ فِينَا مَدَارِكَ أُمْنِيَّتِهِ، فَمَكَثْنَا [١٥/ب] عَلَى ذلِكَ سِنِيْنَ وَنَحْنُ في حُكْمِ الآمِنِيْنَ، ثُمَّ لَمَّا ضَرَبَ بالقِدَاحِ فَخَرَجَ الأَوَّلُ وَالثَّانِي لاثْنَيْنِ مِنَ البَطَارِقَةِ، وَخَرَجَ الثَّالِثُ لِبِطْرِيْقِ ثَغْرِ البرجانِ الَّذِيْ كُنَّا نَخْشَى طَوَارِقَهُ، فَمَرَّ بِنَا في الشَّهْرَيْنِ غَمٌّ كَثِيْرٌ، وَهَمٌّ وَثِيْرٌ، إِلَى أَنْ مَضَيَا، وَفَرَغَا وَانْقَضَيَا، فَحُمِلْنَا إِلَيْهِ، وَعُوِّلَ في إِيذَائِنَا عَلَيْهِ، فَرَأَيْنَا عَلَى بابِهِ مِنَ الجَمْعِ فَوْقَ ما كانَ يَطْرُقُ السَّمْعَ، وَعَانينا مِن زَبَانِيَتِهِ مِنَ الفَظَاظَةِ، وَالقَسْوَةِ وَالغَلاظَةِ، مَا لَمْ نَرَهُ قَبْلُ مِمَّنْ كُنَّا نَغْشَاهُ، وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى ما كُنَّا نَحْذَرُهُ وَنَخْشَاهُ، وَعِنْدَمَا وَصَلْنا إِلَيهِ، وَوَقَعَ بَصَرُنا عَلَيهِ، شَاهَدْنا مِن فَظَاظَتِهِ وَقَسْوَتِهِ وَغَلاظَتِهِ، مَا أَيْقَنَّا مَعَهُ بالتَّبَارِ، وعَدَمِ الاصْطِبَارِ، دَعَا بِصَانِعِ الحَدِيْدِ، وَأَمَرَهُ في المُسْلِمِيْنَ بِأَضْعَافِ التَّقْيِيْدِ وَالتَّشْدِيْدِ، فَلَمْ يَزَلِ الحَدِيْدُ يُوضَعُ في رِجْلِ وَاحِدٍ واحِدٍ، بِأَمْرِ ذلِكَ الكَافِرِ الجَاحِدِ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَيَّ، وَرَامَ طَرْحَ الحَدِيْدِ عَلَيَّ، فَنَظَرْتُ في وَجْهِ البِطريقِ فَرَأَيْتُهُ قدْ نَظَرَ إِلَيَّ بِعَيْنِ رِفْقٍ ولُطْفٍ، وَحُنُوٍّ وَعَطْفٍ، وَسَأَلَنِي بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ عَنِ اسْمِيْ وَنَسَبِيْ، وَوَطَنِي وَحَسَبِيْ، فَصَدَقْتُهُ عَنْ سُؤَالِهِ بِاخْتِصَارِ القَوْلِ وَإِجْمَالِهِ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ تَحْفَظُ القُرْآنَ فَاقْرَأْ لِيْ مِن سُوْرَةِ آلِ عِمْرَانَ، فَقَرَأْتُ مِنْهَا نَحْوَ خَمْسِيْنَ آيَةً، إِلَى أَنْ بَلَغْتُ تِلْكَ الغَايَةَ، فقالَ: إِنَّكَ لَفَصِيْحٌ بِتِلاوَةِ التَّنْزِيْلِ، حَرِيٌّ بِالتَّكْرِيْمِ وَالتَّبْجِيْلِ. وَاسْتَنْشَدَنِيْ شَيْئاً مِنَ الشِّعْرِ فَأَنْشَدْتُهُ، وَاسْتَزَادَنِي فَزِدْتُهُ، فَاسْتَحْسَنَ ذلِكَ مِنِّي وَأَعْجَبَهُ، وَمَدَحَهُ وَرَحَّبَهُ، ثُمَّ قالَ لِخَلِيْفَتِهِ: قَدْ وَثِقْتُ بِهذَا الرَّجُلِ فَلا تُقَيِّدْهُ بِالحَدِيْدِ، وَآمِدَّهُ مِنِّي بِالخَيْرِ المَدِيْدِ. ثُمَّ قَالَ: وَلَيْسَ مِنَ الإِنْصَافِ أَنْ أُسَوِّءَهُ في أَصْحَابِهِ وَخُلاَّنِهِ، وَآخْدَانِهِ وَإِخْوَانِهِ. فَأَمَرَ بِفَكِّ الحَدِيْدِ عَنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ، وَمَتَّعَهُمْ بِالعَيْشِ الرَّغِيْدِ وَالمَاءِ المَعِيْنِ، ثُمَّ دَعَا صَاحِبَ مَطْبَخِهِ فقالَ لَهُ: لَسْتُ أَطْعَمُ طَعَاماً مَا دَامَ هذا العَرَبِيُّ عِنْدَ الإِمَّعَةِ[1]، وَأُشْرِكُهُ مَعِي في العَيْشِ الرَّخِيِّ وَالدَّعَةِ، وَاحْذَرْ أَنْ تُدْخِلَ لِلْمَطْبَخِ ما لا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِيْنَ أَكْلُهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَ الخَمْرَ في شَيءٍ مِنَ الطَّعَامِ فَإِنَّ المُسْلِمَ لا يَسْتَحِلُّهُ. وَاسْتَدْنانِي وَأَجْلَسَنِي عَلَى مَرْتَبَتِهِ، وَسَاوَانِي مَعَهُ في رُتْبَتِهِ، فَعِنْدَمَا رَأَيْتُ إِكْرَامَهُ، وَتَوْقِيْرَهُ وَاحْتِرَامَهُ، وَآنَسْتُ نارَ أُنْسِهِ، وَدَلَّنِي

(١) هكذا في الأصل، والمعنى غير واضح.

فِعلُهُ عَلَى كَرَمِ قنسِهِ، قُلْتُ[1] لَهُ: فَدَتْكَ نَفْسِي أَيُّ العَرَبِ لَكَ أَرُوْمَةٌ، فَإِنَّكَ لَمِنْ أَكْرَمِ جُرثُوْمَةٍ؟ فَضَحِكَ وَقَالَ: لَسْتُ أَعْرِفُ لِمَسأَلَتِكَ جَوَاباً، إِذْ لَسْتُ عَرَبِيّاً لِلْقِفَارِ جَوَّاباً. فَقُلْتُ: مَعَ هذِهِ الفَصَاحَةِ بِالعَرَبِيَّةِ، وَالنَّفْسِ الكَرِيْمَةِ الأَبِيَّةِ؟! فَقَالَ: إِن كَانَ العِلْمُ بِاللِّسَانِ مِن جِنْسٍ إِلَى جِنْسٍ يَنْقُلُ الإِنْسَانَ، فَأَنْتَ إِذاً رُوْمِيُّ الجِنْسِ، لَسْتَ بِعَرَبِيِّ القَنْسِ، إِذْ فَصَاحَتُكَ بِلِسانِ الرُّوْمِ لَيْسَتْ بدون فَصَاحَتِي بِلِسَانِ العَرَبِ، فَعَلَى قِيَاسِ قَوْلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُوْنَ رُوْمِيّاً وَأَكُوْنَ عَرَبِيّاً، وَيَتَبَدَّلُ النَّبْعُ بِالغَرْبِ. فَقُلْتُ: صَدَقْتَ فِيمَا بِهِ نَطقْتَ. وَأَقَمْتُ عِنْدَهُ خَمْسَةَ عَشرَ يَوْماً لَمْ أَكُنْ مُنْذُ خُلِقْتُ في نِعْمَةٍ أَكْثَرَ مِنْها وَلا أَرْغَدَ، وَلا يَمْضِي يَوْمٌ إِلاَّ وَيَأْتِي أَحْسَنَ مِنْهُ الغَدُ، وَفِي اللَّيْلَةِ السَّادِسَةَ عَشرَةَ[2] فَكَّرْتُ في مُضِيِّ نِصْفِ الشَّهْرِ، وَأَنَّ الأَيَّامَ تُقَرِّبُنِي مِنَ الانْتِقَالِ إِلَى غَيْرِهِ وَأَعُودُ إِلَى الغَمِّ وَالقَهْرِ، فَبِتُّ بِلَيْلَةٍ كَلَيْلَةِ زِيَادٍ[3]، وَالوَسْوَاسُ يُتْحِفُنِي مِنَ الكَرْبِ بِالازْدِيَادِ، فَلَمَّا طُفِئَ المِصْبَاحُ وَأَسْفَرَ الصَّبَاحُ، دَعَانِي رَسُوْلُهُ لِحُضُوْرِ طَعَامِهِ وَمَوَائِدِ إِنْعَامِهِ، وَعِنْدَمَا وُضِعَ الخِوَانُ، وَجَلَسَ الإِخْوَانُ، رَأَى يَدِي قَصَرَتْ عَن طُوْلِهَا المَعْهُوْدِ، وَانْقَبَضَتْ عَن تبسّطِهَا المَشْهُوْدِ، فَضَحِكَ وَأَخْبَرَنِي عَمَّا في ضَمِيْرِي، كَأَنَّهُ كَانَ مُجَالِسِي وَسَمِيْرِي، فَقُلْتُ له: لَقَدْ صَدَقَتْ فِرَاسَتُكَ – دَامَتْ حِرَاسَتُكَ –. فقالَ: ما أَنَا بِخَبِيْرٍ إِنْ لَمْ أُحْسِنِ الاخْتِبَارَ لِلْخَلِيْلِ، وَأَنْظُرْ في حَالِهِ الدَّقِيْقِ وَالجَلِيْلِ، فَطِبْ نَفْساً وَقَرَّ عَيْناً، فَلَسْتَ تَرَى أَسًى وَلاَ بَيْناً، فَإِنِّي لَمْ أَبِتْ في اليَومِ الَّذِي رَمَقْتُكَ فِيهِ إِلاَّ وَتَلافَيْتُ أَمْرَكَ بِأَحْسَنِ تَلافِيْهِ. وَسَأَلْتُ المَلِكَ قَصْرَكَ عِنْدِي مَا لَبِثْتَ في أَرْضِ / الرُّوْمِ، فَلَسْتَ تَرَى إِلاَّ مَا تُحِبُّ وَتَرُوْمُ، وَلاَ تَخْرُجُ مِن يَدِي إِلاَّ إِلَى [١٦/أ] وَطَنِكَ وَمَحَلِّ عَطَنِكَ، فَطَابَتْ نَفْسِي وَفَرِحَتْ، وَاطْمَأَنَّتْ وَانْشَرَحَتْ، ثُمَّ لَمَّا قَوَّضَ الشَّهْرُ خِيَامَهُ، وَقَضَى أَيَّامَهُ، ضَرَبَ بالقِدَاحِ عَلَى العَادَةِ، وَنَقَلَ أَصْحَابِي إِلَى بِطرِيقٍ آخَرَ وَقَدْ زَالَتْ عَنهُمُ

---

(١) في الأصل: فقلت. والمثبت هو الصواب.

(٢) في الأصل: السادسة عشر.

(٣) زياد: هو النابغة الذبياني، يقال: (ليلة النابغة)، وقد حدث أبو العيناء عن الأصمعي أنه قال: انصرفت ليلة من دار الرشيد وأنا أشكو علة، ثم غدوت إليه فقال لي يا أصمعي، كيف بتَّ؟ فقلت: بليلة النابغة يا أمير المؤمنين. فقال: إنا لله، هو قوله:

فبتّ كأني ساورتني ضئيلةٌ من الرقش في أنيابها السمُّ ناقعُ

فقلت: والله يا أمير المؤمنين ما أخبرت خبره، وإنما أردتُ قوله:

كليني لهمٍّ –يا أميمة– ناصبِ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ٦٣٤/١ – ٦٣٥.

السَّعَادَةُ، وَتَغَدَّيتُ ذلِكَ اليَوْمَ معَ البطريقِ، وَصِرْتُ وَحِيداً مِنَ الرَّفِيقِ وَالفَرِيقِ، وَكانَ مِن عادَتِي المَأْلُوفَةِ، وَحالَتِي المَعْرُوفَةِ، أنْ أنْصَرِفَ بَعْدَ الغَدَاءِ إِلَى مَحَلِّ أخْدَانِي وَأصحَابِي وَخُلَّانِي، فَنَتَعَلَّلُ بِالحَدِيثِ، وَنَتَفَكَّرُ حالَنا القَدِيمَ وَالحدِيثَ، وَنَتَذاكَرُ الفَرَائضَ وَنَجْمَعُ الصَّلَواتِ، وَيَسْمَعُ بَعْضُنا مِن بَعضٍ ما حَفِظَ مِنَ العِلمِ في تِلكَ الخَلَواتِ، فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى ذلِكَ المكانِ المَعْهُودِ، والمَحلِّ الَّذِيْ كُنَّا نَتَذَكَّرُ فيهِ تِلْكَ العُهُودَ، رَأَيْتُهُ قدْ صَفِرَ مِنَ الرِّفَاقِ وأَهْلِ الوِفَاقِ، وَلَمْ أَرَ إلَّا أَهْلَ الخِلافِ مِن أولئِكَ الأَغْلافِ[1]، فَضَاقَ بي فَسِيحُ الأَرْضِ ذاتِ الطُّوْلِ وَالعَرْضِ، وَتَمَنَّيتُ لَوْ كُنتُ رَفِيْقَهُمْ، وَسَاهَمْتُهُمْ كَرْبَهُمْ وَضِيْقَهُمْ، وَبِتُّ بِلَيْلَةِ أَنقَدَ[2]، أُسَامِرُ الفَرْقَدَ، وَأَصْبَحْتُ أَكْسَفَ خَلْقِ اللهِ بالاً، وَأَشَدَّهُمْ خَبَالاً، وصارَ إِلَيَّ رَسُولُ البطريقِ وَقْتَ الغَدا، وَبَسَطَ عَيْشاً رَغداً، فَتَبَيَّنَ في وَجهِي مَا أَجَنَّهُ الضَّمِيرُ مِنَ الكُروبِ، وَأَسَرَّهُ مِن مُسامَرَةِ الخُطُوبِ، وَرَأَى يَدِي لَمْ تَنْبَسِطْ إِلَى الطَّعَامِ، ولا تَمتَدُّ إِلَى وافِرِ ذلِكَ الإِنْعَامِ، فَضَحِكَ ثُمَّ قالَ: أَحْسَبُكَ اغْتَمَمْتَ لِفِراقِ رِفاقِكَ، وَما فَقَدُوْهُ مِن إِرْفَاقِكَ، [فَشَكَوْتُ] [3] لَهُ ما اعْتَرَانِي مِنَ الهُمُومِ وَسَاوَرَنِي مِنَ الغُمُومِ، وَسَأَلْتُهُ: هلْ مِن حِيلَةٍ في رَدِّهِمْ إِلَيْهِ وَالتَّعْوِيلِ في حِرَاسَتِهِمْ عَلَيهِ؟ فقالَ: إِنَّ المَلِكَ لَمْ يُرِدْ بِنَقْلِهِمْ مِن مَكانٍ إِلَى مَكانٍ إِلاَّ لِيغمَّهُمْ[4] وَيُضَيِّقَ عَلَيهِمْ حَسَبَ الإِمْكَانِ، وَمِنَ المُحالِ أَنْ يَدَعَ تَدْبِيرَهُ في الإِضْرارِ بِهِمْ لأَجْلِي وَلَو جَلَبْتُ في الشَّفَاعَةِ عِندَهُ بِخَيلِي وَرَجْلِي. فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَسْأَلَ المَلِكَ في ضَمِّي إِلَى أَصْحَابِي لأَكُونَ مَعَهُمْ حَيْثُ كانُوا، وَأَشْرَكَهُمْ فِيما عَزُّوا بِهِ وَهَانُوا، فقالَ: إِنِّي لا أَستَجِيزُ[5] أَنْ أَنْقُلَكَ إِلَى الضِّيْقِ مِنَ السَّعَةِ، وإِلَى الهَوَانِ مِنَ الكَرَامَةِ وَالدَّعَةِ. فَلَمَّا قالَ ذلِكَ تَبَيَّنَ فيَّ الانكِسَارُ، وَذُلُّ الحُكْمِ والانْبِتارُ، فقالَ: بَيِّنْ لي قَدْرَ ما بَلَغَ بِكَ الأَلَمُ مِن هذا الخَطْبِ الَّذِيْ أَلَمَّ. فقُلتُ: بَلَغَ بِي ما حَبَّبَ إِلَيَّ المَوْتَ وَرَغَّبَنِي في الفَوتِ، لِعِلْمِي أَنْ لا رَاحَةَ لي في غَيْرِهِ مِن أَلَمِهِ وَضَيْرِهِ. فقَالَ: إِنْ كُنْتَ صادِقاً فقَدْ دَنا فَرَجُكَ وَفَرَحُكَ، وَانْقَضَى كَرْبُكَ وَتَرَحُكَ، وَإِنِّي لا أُقِيمُ لكَ الحُجَّةَ عَلَى وُضُوحِ هذِهِ المَحَجَّةِ، بِمَا وَقَعَ لي قَدِيماً، وَعَرَكَ مِنِّي أَدِيماً، اعلَمْ أَنَّ بَطْرَقَةَ هذا المَوْضِعِ لَمْ تزَلْ مُنْذُ مائتَيْنِ مِن السِّنِيْنِ، يُورِّثُها آباؤنَا لِمَنْ

---

(١) الأغلاف: هم من لم يُختنوا، يقال: غَلِف الصبيّ. اللسان (غلف).

(٢) الأنقَد: القنفذ، ومنه في المثل: أسرى من أنقد، لأن القنفذ لا ينام الليل كله، ومنه أيضاً قولهم: بات بليل أنقَدَ: لم ينم. المعجم الوسيط – أصدره مجمع اللغة العربية –: نقد، الأنقد).

(٣) زيادة يستقيم بها الكلام.

(٤) في الأصل: لعهم. وأثبتّ ما رأيته صواباً. ومعنى يغمُّهم: يحزنهم.

(٥) في الأصل: فقال: إني لا أستخبر. وهو خطأ. والمثبت أقرب إلى الصواب.

يَخلُفُونَهُ مِنَ البَنِيْنَ، وَكَانُوا كَثِيْرِي العَدَدِ، غَزِيْرِيْ المَدَدِ، فَتَفَانَوا ولَمْ يَبْقَ مِنهُم سِوَى الأبِ والعَمِّ، وكانَ هُوَ الأكْبَرَ، فَاستَوْلَى عَلَى ما خَصَّ وَعَمَّ، وَأبْطَأ عَلَيْهِما الوَلَدُ وقَدْ أعيَاهُما عَلَى ذلِكَ الصَّبْرُ والجَلَدُ، فَرَقَّا مِنَ الهُلْكِ وَزَوَالِ المُلْكِ، فَبَذَلا للأطِبَّاءِ أمْوَالاً جَمَّةً، لِيُعِيدُوا لَهُمَا ما حَصَدَهُ الكِبَرُ وَجَمَّهُ، فَأمَّا العَمُّ فَلَمْ يَنْجَعْ فيهِ دَوَاءٌ، وَغَلَبَتْ عَلَيهِ مِنَ الكِبَرِ الأدْوَاءُ، فَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى مُعَالَجَةِ أبِي، فَعَلِقَتْ أُمِّي بِي، فَجَمَعَ العَمُّ عِدَّةً[1] مِنَ النِّسَاءِ الحَبَالَى مُخْتَلِفاتِ الأَلْسُنِ، وَرَتَّبَ لَهُنَّ في دارِهِ مَا يَجْمُلُ بِهِ حالُهُنَّ وَيَحْسُنُ، فكانَ فِيهِنَّ عَرَبِيَّاتٌ وَرُومِيَّاتٌ وَفِرَنْجِيَّاتٌ وَصِقِلِّيَّاتٌ وَخَزَرِيَّاتٌ، ثُمَّ لَمَّا وَضَعَتْنِي أُمِّي أَمَرَ بِتَيْسِيرِ تِلْكَ النِّسْوَةِ كُلِّهِنَّ لإرْضَاعِي، وَمُراعَاةِ أوْضَاعِي، وَأمَرَ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ أَلاَّ تُكَلِّمَنِي إلاَّ بِلِسَانِها، لأُحْسِنَهُ كإحْسَانِها، فَلَمْ[2] تَسْتَتِمَّ لي أرْبَعُ سِنِيْنَ، حتَّى تَكَلَّمْتُ بِألْسِنَةِ مُرْضِعاتِي أجْمَعِينَ، ثُمَّ سَيَّرَ إليَّ المُؤَدِّبِينَ والمُلاعِبِينَ مِن تلكَ الأجْنَاسِ، مِمَّنْ لهُ اعْتِبارٌ في صِنَاعَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ، فَكَانُوا يُعَلِّمُونَنِي أنواعَ الكِتابَةِ وَقِرَاءَةَ كُتُبِ الأديانِ، وَيُبَيِّنُونَ لي مَا يَجِبُ مِن البيَانِ، فلَمْ تَمْضِ لي تِسْعُ سِنِينَ حتَّى جَمِيعَ ذلِكَ تعلَّمْتُ وَأيْقَنْتُ وَأحْكَمْتُ، ثُمَّ أمَرَ عَمِّي أنْ أُضافَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أربَابِ الفُرُوسِيَّةِ والشَّجاعَةِ، فأتْقَنْتُ مِنْهُم صِناعَةَ الحَرْبِ، والطَّعنِ والضَّربِ، وتَقَدَّمَ بِمَنْعِي مِن سُكُونِ غَيْرِ المَضَارِبِ وَالخِيَامِ مُدَّةَ ما عاشَ مِنَ الأيَّامِ، وألاَّ آكُلَ مِنَ اللُّحُومِ إلاَّ مَا أصِيدُهُ بِيَدِي / وَأنا سائرٌ، [١٦/ب]
مِن وَحْشٍ وطَائِرٍ، فَبَقِيْتُ عَلَى تِلْكَ الحالَةِ حتَّى كَمُلَتْ لي عَشْرُ سِنِينَ عِدَّةً، ومَاتَ العَمُّ وَفَرَغَتْ أيَّامُ أجَلِهِ المُعَدَّةُ، وَوَلِيَ البَطْرَقَةَ أبِي بَعْدَهُ فأمَرَنِي بالقُدُومِ إِلَى بابِهِ، والتَّقَرُّبِ مِن جَنابِهِ، فَعِندَما رأى ما أُوتِيتُهُ مِنَ الآدابِ والعُلُومِ، وَحُسْنِ الأخْلاقِ وَالحُلُومِ، ازْدَادَ بِي إعْجَاباً، وَغَدَا سَحَابُ الغَمِّ عَنْهُ مُنْجاباً، وَتَسَمَّحَ لي بِغَيْرِ المَعْهُودِ، مِمَّا لَمْ تَكُنْ مُلُوكُ الرُّومِ تَسْمَحُ بِهِ لوُلاةِ العُهُودِ، مِن خِيامِ دِيْباجٍ وَمَضَارِبَ، وَآوانٍ[3] مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ لِلمَآكِلِ والمَشَارِبِ، وَزِيادَةٍ مِنَ الخَدَمِ والعَبِيْدِ، وَأمَرَنِي بِالابْتِعادِ عَن مَنَازِلِهِ في البِيْدِ.

قالَ: فَلَمَّا تَمَّتْ لِي خَمْسَ[4] عَشرةَ سَنَةً كَأنَّها سِنَةٌ، رَكِبْتُ يَوْماً لارْتِيَادِ مَنْزِلٍ، وَأبْعَدتُ لأكُونَ عَنِ النَّاسِ بِمَعْزِلٍ، فَبَصُرْتُ بِغَدِيرِ مَاءٍ طُولُهُ ألْفُ ذِراعٍ تَقْدِيراً، وَعَرْضُهُ مِنَ الثَّلاثِمائَةِ ذِراعٍ إِلَى الأرْبَعِمائَةِ تَخْمِيناً لا تَحْرِيراً، فَأمَرْتُ بِضَرْبِ مَضَارِبِي عَلَى ذلِكَ الغَدِيْرِ، لِتَنْفُذَ فيَّ سِهَامُ

---

(١) في الأصل: عدة عدة من النساء، وهو سهو.

(٢) في الأصل: فلمَّا.

(٣) في الأصل: وأواني.

(٤) من الأخطاء النحوية في الأصل: خمسة عشر سنة، والصواب ما ذكر.

التَّقْدِيرِ، وَتَوَجَّهْتُ لِطَلَبِ الصَّيْدِ، وَأَعْمَلْتُ فيهِ الحِيلَةَ والكَيْدَ، فَرُزِقتُ مِنهُ ما لم أَطْمَعْ في مِثْلِهِ كَثْرَةً، وَلَمْ أَلْقَ في ذلكَ كَبْوَةً ولا عَثْرَةً، وَنَزَلْتُ وقدْ تَمَّ ضَرْبُ المَضَارِبِ، وأُمِنَتْ غِيلَةُ المُخَاتِلِ والمُحَارِبِ، وَأَمَرْتُ الطبَّاخِينَ فطَبَخُوا لي ما اشْتَهَيْتُ مِنَ الطَّعامِ، ونَصَبُوا بَينَ يدَيَّ مَوائِدَ ذلكَ الإنْعامِ، وَإِذَا بِصَيْحَةٍ قدْ عَلَتْ، وَأَزْعَجَتِ القُلُوبَ وَأَوْجَلَتْ، فَنَظَرتُ وإذا بِرُؤوسِ أَصْحابِي تَسَاقَطَتْ عَنِ الجُسُومِ، وقَدْ أَحاطَ بِهِمُ القَدَرُ المَحْتُومُ، فَتَنَحَّيتُ عَن مَكَانِي، ولَبِسْتُ ثِيابَ بعضِ غِلْمَانِي، ونَظَرْتُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً فَرأَيْتُ أَمراً مَهُولاً، وَلَمْ أَرَ حَوْلِي إلاَّ مَقْتُولاً، وإذا فاعِلُ ذَلِكَ مِنْسَرٌ[1] مِن مَنَاسِرِ البرجانِ، كأَنَّهمُ الجَانُّ، وَأَسِرْتُ كأَسْرِ العَبِيدِ، وَحُمِلْتُ مُقَيَّداً مِن تلكَ البِيدِ، واستُولِيَ عَلَى جَمِيعِ ما كانَ مَعِي مِن خيامٍ ومالٍ وخَيْلٍ وَبِغالٍ وجِمالٍ، وَصَارُوا بي إِلَى مَلِكِ البرجانِ أَسِيراً أَسِيفاً حَسِيراً، ولَمْ يَكُنْ لهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ، فَحِينَ نظرَ إليَّ أَمَرَ بالتَّوْسِعَةِ عَلَيَّ، ووَعَدَنِي وَمَنَّانِي، وبِابنِهِ سَمَّانِي، وَكانَ لهُ ابْنَةٌ كانَ بِها مُغْرَماً، ولَها مُعْظِماً ومُكْرِماً، وَكَانَ قدْ عَلَّمَها الفُرُوسِيَّةَ والشَّجاعَةَ، فَبَرَعَتْ في ذلكَ غايَةَ البَراعَةِ، فقالَ يَوْماً – وأَنا حَاضِرٌ – لِجَمْعٍ مِن بَطارِقَتِهِ المُقَرَّبِينَ: مَن مِنكُمْ يَتَوَجَّهُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ فَيَأْتِيَنِي بكاتِبٍ مِنَ الكاتِبِينَ، فَيُعَلِّمَ ابْنَتِي صَنْعَةَ الكِتابَةِ، وَيُعَجِّلَ إِلَى مَلِيكِهِ مُكْرِماً إِيَابَهُ؟ فَأَعْلَمْتُهُ بأَنَّ رَسُولَهُ لا يأتِيهِ بأَحْسَنَ مِنِّي خَطًّا، سَواءٌ عَجَّلَ أَوْ أَبْطَأَ. فَاسْتَكْتَبَنِي فكَتَبْتُ ما أَعْجَبَهُ، وقابَلَهُ بِما كانَ يأتِي إِلَيْهِ مِنَ الرَّقِّ بِخَطِّ الكَتَبَةِ، فاسْتَحْسَنَ خَطِّي وَاستَجَادَهُ، وشَهِدَ لي كُلُّ مَن رآهُ بالإجادَةِ، فَسَلَّمَ ابْنَتَهُ إِلَيَّ، وعَوَّلَ في تَعْلِيمِها الكِتابَةَ عَلَيَّ، فَهَوَيْتُها وَهَوِيَتْنِي، واسْتَغْوَيتُها واسْتَغْوَتْنِي، وَمَكَثْتُ عَلَى ذلكَ إِلَى أَنْ بَلَغْتُ سِتَّ عشرةَ سَنَةً[2] وأنا مَعَها عَلَى عِشْرَةٍ حَسَنَةٍ، تَقْنَعُ بالنَّظَرِ، وَترجِي الأَمَلَ المُنْتَظَرَ، فَجَاءتْنِي يَوْماً وَهِيَ باكِيَةٌ، ومِمَّا وَرَدَ عَلَيْهَا شاكِيَةٌ، فَسَأَلْتُها عَمَّا أَثَارَ هذِهِ الآثَارَ، فقالَتْ: إِنِّي كُنْتُ اللَّيْلَةَ جالِسَةً بَيْنَ أَبِي وَأُمِّي – وأنا في كَرْبِي مِن هَوَاكَ وَغَمِّي – فَغَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ نَوْماً خَفِيفاً، وأنا أَسْمَعُ لصَوْتِهِما حَفِيفاً، وإذا بِأَبِي يَقُولُ: إِنَّ ابْنَتَكَ قدْ قارَبَتِ البُلُوغَ، واجْتِمَاعُها بهذا الرُّومِيِّ لا يَجُوزُ ولا يَسُوغُ، وهو أَيْضاً قَدْ غَلَظَ صوتُهُ كَصَوتِ الرِّجالِ، وَلَمْ يَبْقَ لاجتِماعِهِما مَجالٌ، فإذا جَلَسا غداً مَعاً، فَابْعَثِي مَن يَمْنَعُهُما بَعْدَها أَنْ يَجْتَمِعا.

قالَ: ومِنْ سُنَّةِ البرجانِ أَنَّ الأَبَ يَخطُبُ الزَّوْجَ لابنتِهِ، وَيَتَخيَّرُ لَها طِيبَ أَصْلِهِ وَمَنْبَتِهِ، وَلَيْسَ

---

(١) والمِنْسَر: قطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكبير. اللسان (نسر).

(٢) في الأصل: ستة عشر، والصواب ما ذكر.

يُزوّجُها إلاَّ بِمَنْ يَقَعُ اختيارُهَا عَلَيْهِ وَيَنْصَرِفُ نَظَرُها إلَيْهِ، فَقُلتُ لَها: إذا قالَ لكَ أبُوكِ: مَن تَخْتارينَ مِنَ الأزْوَاجِ وتَرُوْمِين؟[1] فَقُولِي: لَسْتُ أرُوْمُ إلاَّ هذا الرُّوْمِيَّ، فَانْحَرَجَتْ وَغَضِبَتْ، وَعَبَسَتْ وقَطَّبَتْ، وقالَتْ: كَيْفَ يَجُوزُ أنْ أسْأَلَهُ خِطْبَتَكَ لِي وأنْتَ عَبْدٌ مِنَ العَبِيدِ، أُتِيَ بكَ إلَيْهِ أسِيراً مِنَ البِيْدِ، أتُرِيدُ أنْ تَقْتُلَني وَيَقْتُلَكَ، وَيَخْتِلَنِي[2] وَيَخْتِلَكَ؟ فقُلتُ: لَمْ يَجْعَلْنِي اللهُ عَبْداً لأحَدٍ، ولا أنْكَرَ أصْلِي أحَدٌ وَلا جَحَدَ، فَلا تَنْقُضِي هذَا الأمْرَ المَبْرُوْمَ، فإنَّ أبِي مَلِكُ الرُّوْمِ. قالَ: ومِن عادَةِ أهْلِ البرجانِ أنْ يُسَمُّوا البِطْرِيْقَ / الَّذِيْ يَلِي تَغْرَهُمْ بِهذا الاسْمِ، وَيَسِمُونَهُ بِهذا [١٧/أ] الوَسْمِ. فقالَتْ[3]: أحَقاً ما تَقُوْلُ؟ قُلْتُ: بَلَى - وَمَنْ خَلَقَ العُقُولَ -. فَمَا انْقَضَى ذلكَ اليَوْمُ حتَّى أتَى مَن فرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَها، وَآذَاقَنِي نَأيَها وبَيْنَها، ولَمْ يَمْضِ عَلَى ذلكَ إلاَّ ثلاثةُ أيَّامٍ، وأنا في غَايَةِ الوَجْدِ والهُيَامِ، حتَّى دَعَانِي المَلِكُ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إلَيْهِ، وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، رأيْتُ أمَاراتِ الشَّرِّ في وَجْهِهِ مُسْتَحْكِمَةً، وقَدْ أبرَمَ لي أمْراً مِنَ السُّوءِ وَأحْكَمَهُ، فقَالَ لِي: يا شَقِيُّ، مَا حَمَلَكَ عَلَى الكَذِبِ في الأنْسَابِ، وأنا أحْكُمُ بالقَتْلِ عَلَى مَنْ كذَبَ في الانْتِسَابِ؟ فَقُلْتُ لهُ: ما قُلْتُ إلاَّ حَقاً، وَفَتِّشْ عَلَى ذلكَ تَرَنِي مُحِقّاً. فقالَ: إنِّي لا أسْتَكْشِفُ خبَرَكَ إلاَّ بالامْتِحانِ، فَإنْ ظَهَرَ صِدْقُكَ وَإلاَّ فالأجَلُ قَرُبَ وحَانَ. فَقُلْتُ: افْعَلْ ما تُرِيْدُ، فَلَسْتُ بِعَاصٍ وَلاَ مَرِيدٍ. فَأمَرَ بإحْضَارِ فَرَسٍ وَسَرْجٍ وَلِجامٍ، وَأمَرَنِي بالإسْرَاجِ وَالإلْجَامِ، فَقَابَلْتُ أمْرَهُ بالامْتِثالِ، ومَا عَلَّمَنِيهِ أبِي عَمِلْتُهُ عَلَى ذلكَ المِثالِ، ثُمَّ أمَرَنِي بالرُّكُوبِ وَالمَسِيْرِ، فَفَعَلْتُ وَلَمْ يَكُنْ ذلكَ عَلَيَّ بِعَسِيرٍ، فقالَ عِندَ ذلكَ: أشْهَدُ أنَّكَ ابْنُ مَالِكِ الرُّومِ، وَقَدْ بَلَّغَهُ اللهُ مِنِّي ما يَرُومُ، فإنَّ الَّذِيْ فَعَلَهُ فِعلُ المُلُوكِ، لا فِعْلُ المَرْقُوقِ وَالمَمْلُوكِ، وَقَدْ خَرَجَ مِن عُهْدَةِ الامْتِحانِ، وَجاءَ وَقْتُ مُصَاهَرته وَحانَ. ثُمَّ قالَ: ألا تَشْهَدُوا، ومَا أقُوْلُ ذلكَ رَغْبَةً عَنهُ وَلا فِراراً مِنْهُ، وَإنَّما لِتَزْوِيْجِنَا شُرُوطٌ لا بُدَّ مِن ذِكْرِها، وَإحَاطَتِهِ بِخَبَرِها وخُبْرِها، وَهِيَ أنَّ مِن سُنَنِنا الَّتي سَنَنَّاهَا، وَبِدْعَتِنا الَّتي ابْتَدَعْنَاها، أنَّ مَن ماتَ مِنَ الزَّوْجَيْنِ يُدْفَنُ الآخَرُ مَعَهُ حيّاً ولا يُتْرَكُ في الأحْيَا، ولَنا بِئرٌ كَبِيْرَةٌ، نُدَلِّيهِمَا فِيها بالحِبَالِ، وَنُسْلِمُهما إلَى الوَبَالِ، وَنُنْزِلُ للحَيِّ قُوتَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، وَبَعدَها يَنامُ مَعَ النِّيَامِ، فإنْ قَبِلَ عَلَى ذلكَ فَمَرْحَباً وَأهْلاً، وَقَدْ سَلَكَ إلَى مُرَادِهِ طَرِيقاً سَهلاً، وإنْ لَم يَرْضَ بذلكَ فَهِيَ أيْضاً لا تَرْضَى بِهِ، ولا نَتْرُكُ نَحْنُ سُنَّتَنا بِسَبَبِهِ، فَألْجَأتْنِي الصَّبابَةُ بِها إلَى الرِّضا، والانْقِيادِ إلَى ما لا يُحَبُّ وَلا يُرْضَى،

---

(١) في الأصل: وترومي. والمثبت هو الصواب.

(٢) يختله: خَتَله: خَدَعه عن غَفْلة. اللسان (ختل).

(٣) في الأصل: فقلت. وهو خطأ، والصواب المثبت.

فَأَمَرَ عِندَ ذلِكَ بِعَمَلِ الوَلائِمِ، وَلَمْ يَلتَفِتْ لِلَوْمِ لائِمٍ، وَدَخَلْتُ بها فَكَأَنَّما دَخَلْتُ الجَنَّةَ، وَنَسِيتُ عَواقِبَ تِلكَ السُّنَّةِ، وَأَقَمْتُ مَعَهَا أَربَعِينَ مِنَ الأَيَّامِ، وَأَنا وَإِيَّاها في غَمَراتِ الوَجْدِ والهُيَامِ، يَرى كُلُّ واحِدٍ مِنَّا أَنَّهُ مَلَكَ المُلْكَ، وَأَمِنَ البَوارَ والهُلْكَ، ثُمَّ إِنَّها اعتَلَّتْ عِلَّةً كانَتْ مَعَها غَشْيَةٌ، فجاءَ ما كانَ يُحْذَرُ مِنَ الخَشْيَةِ، وَلَمْ يَشُكَّ جَمِيعُ مَن رآهَا أَنَّهُ المَوْتُ، والعَدَمُ والفَوْتُ، فَجُهِّزَتْ بِمَفاخِرِ ثِيابِهَا وجُهِّزْتُ كَذلِكَ، وحُمِلْتُ مَعَها في نَعْشٍ واحِدٍ إِلَى تِلْكَ المَهالِكِ، وَرَكِبَ المَلِكُ وأَهْلُ المَمْلَكَةِ وَشَيَّعُوها إِلَى تِلكَ البِئْرِ المَعْهُودَةِ، ومَوَاطِنِ المَنايَا المَشْهُودَةِ، ثُمَّ شَدُّوا أَسافِلَ السَّرِيرِ بالحِبالِ المُعَدَّةِ للوُصُولِ إِلَى الوَبالِ، وَجَعَلُوا مَعَنا في النَّعْشِ الطَّعامَ والشَّرابَ، وَأَدلَوْنا إِلَى أَنْ وَصَلْنا إِلَى قَرارِ ذلِكَ السِّرابِ، ثُمَّ أَلْقَوُا الحِبالَ فَسَقَطَ مِنْهَا حَبْلٌ عَلَى وَجْهِ الجارِيَةِ، فكَانَ سَبَباً لإِفاقَتِها مِن تِلكَ الغَشْيَةِ الغاشِيَةِ، فلَمَّا شَاهَدتُ حيَاتها، وَأَمِنْتُ فَوَاتَها، رَأَيتُ أَنَّ الدُّنْيا كُلَّها إِليَّ اجتَمَعَتْ، وانجَابَتْ عَنِّي سَحَائِبُ تِلْكَ الغُمُومِ وأَقْلَعَتْ، وأَلِفَتْ عَيْنِي تِلْكَ الظُّلْمَةَ، وتَبَيَّنْتُ خَبَرَ ما هُناكَ وَعِلْمَهُ، وَرَأَيتُ حَوْلِي مِنَ الخُبْزِ اليابِسِ والخمرِ ما تَرَكَهُ مَن تَمَّ عليه الأَمْرُ، فاتَّخَذْناهُ قُوتاً، وَأَمِنَّا مِنهُ فَوتاً، وَكُنَّا لا نَعْدَمُ في يَوْمٍ سَرِيراً يُدْلِي بِمَيِّتٍ وَحَيٍّ، وَمَعَهُما مِن الطَّعامِ وَالشَّرَابِ شَيْءٌ، فَإِنْ كانَ الحَيُّ رَجُلاً قُمتُ إِلَيْهِ وَقَتَلْتُهُ وَأَعدَمْتُهُ مِنَ الحَيَاةِ وَاغْتَلْتُهُ، وإِنْ كانَتِ امْرَأَةً تَوَلَّتْ هيَ قَتْلَهَا وَاغْتِيَالَها وَخَتْلَها، غَيْرَةً مِنِّي وَمِنها أَنْ يَكُونَ مَعَنا مَن يُوتِرُ شَفْعَنا وَطَمَعاً فِيما يَكُونُ مَعَهُمَا مِنَ القُوتِ، وَإِنْ كانَ ذلِكَ الفِعلُ هُوَ المَبْغُوضَ المَمْقُوتَ، فَمَكَّنَا وَهذِهِ حالُنَا أَكْثَرَ مِن سَنَةٍ وأَنا أَستَحْسِنُ حَيَاتِي مَعَها وَلَو كانَتْ غَيْرَ حَسَنَةٍ، فَبَيْنا نَحْنُ ذاتَ يَوْمٍ وقَدْ أَيِسْنَا أَنْ نَعِيشَ مَعَ القَوْمِ، أَوْ نَرَى الدُّنْيا ولَوْ في النَّومِ، إِذْ أُدْلِيَ في البِئرِ دَلْوٌ كَبِيرٌ فَقُلتُ: إِنَّ مُدْلِيَهُ لا يَكُونُ مِن غَيْرِ الرُّومِ، وَإِنَّهُ أَخْذَ الماءِ يَرُومُ، فَوقَعَ لِي أَنْ أُقَدِّمَ الجارِيَةَ قَبْلِي لِلطُّلُوعِ، وَهِيَ تُخْبِرُهُمْ بِخَبَرِنا / المَرُوعِ، فَيُدْلُوا الدَّلْوَ مَرَّةً ثانِيَةً [١٧/ب] فَنَخْلُصَ جَمِيعاً، وَلَعَلَّ مَن فِيهِمْ يَكُونُ مُجِيباً وَسَمِيعاً، قَالَ: فَحَمَلتُ ابْنَةَ المَلِكِ وَوَضَعْتُها في الدَّلْوِ بِكُسْوَتِها وَحِلْيَتِها، وَجَوهَرِهَا وَزِينَتِها، وَاجتَذَبَ القَوْمُ الدَّلْوَ فَخَرَجَتْ إِلَيْهِمُ الجارِيَةُ وَدُموعُهَا جارِيةٌ، وَإِذا القَوْمُ مَمالِيكُ لأَبِي، فَمُذْ رَأَوْها وَجَدُوهَا غَنِيمَةً بارِدَةً، وَضَالَّةً شارِدَةً، وَكَانُوا قدْ رَأَوا أَبِي وأُمِّي وَمَا هُمَا[1] فيهِ مِن غَلَبَةِ الحُزْنِ والالْتِياعِ، وشِدَّةِ الإِشفَاقِ وَالارْتِياعِ، فَتَدَبَّرُوا بِالمَصِيرِ بِها إِلَيْهِما لِيَتَّخِذُوا بِها عِندَهُما يَداً، وَيَتَّخِذاهَا وَلَداً، وَكانَتِ ابْنَةُ المَلِكِ عِندَ

(١) في الأصل: وما هم. والمثبت هو الصواب.

طُلُوعِها خَافَتْ مِنْهُم وَوَجِلَتْ، وَعَنْ إخْبارِهِمْ بِحَالِي ذُهِلَتْ، فما كانَ أسْرَعَ[1] مِن وُصُولِهِمْ بِها إلَيهِمَا فَسِرًّا بِقُدُومِها، وَهِيَ في كُرَبِها وَغُمُومِها، تَهَابُ أنْ تَتَكَلَّمَ أوْ تُخْبِرَ بِما تَعلَمُ، وقَدْ كانَ لأبِي صديقٌ صَاحِبُ حِكَمٍ ومَعَارِفٍ، وَهُوَ بِفَنِّ التَّصْوِيرِ عَارِفٌ، فَصَوَّرَ صُورَتِي في لَوْحٍ مِنَ السَّاجِ[2] وَأتْقَنَها، وَوَشَّاها وَزَيَّنَها، وَجَعَلَها لَهُما في بَيْتٍ فَكانَا إذَا تَزَايَدَ بِهِما أَلَمُ البَيْنِ، دَخَلا إلَى تِلكَ الصُّورَةِ مُتَبَاكِيَينِ، فَيَخِفُّ عَنْهُما بِالنَّظَرِ إلَيْهَا بَعْضُ الحالِ، وَيَتَعلَّلانِ مِنهَا بِالمُحَالِ، فَرَأتْهُما ابْنَةُ المَلِكِ يَدخُلانِ إلَى ذلِكَ البَيْتِ[3] وَيَنُوحانِ وَيَنْعَيانِ، فَدَخلَتْ في أثَرِ دُخُولِهِما فَلَمَّا نَظَرَتْ إلَى تِلْكَ الصُّورَةِ لَطَمَتْ وَجْهَها وصَاحَتْ، وَنَتَفَتْ شَعرَها وَنَاحَتْ، وَمَزَّقَتْ ما عَلَيْها مِن الثِّيَابِ، وَسَقطَتْ مَغْشِيَّةً عِندَ البابِ، فَأخَذَهُما العَجَبُ، وَسألاهَا عَمَّا بِهِ ذلِكَ وَجَبَ، فَقالَتْ: هذِهِ صُورَةُ زَوْجِي. وَأخْبَرَتْهُما بِاسْمِهِ واسْمِ أبِيه وَأُمِّهِ، فَسألاها أيْنَ تَرَكْتِهِ؟ وفي أيِّ مَحَلٍّ غَادَرْتِهِ؟ فَأخْبَرَتْهُما بِأنَّهُ في البِيرِ، وأنَّهُ هو الَّذِي دبَّرَ في خُرُوجِها ذلِكَ التَّدْبِيرَ، فَرَكِبَ أبِي وأُمِّي وغَالِبُ أهْلِ البَلَدِ إلَى أنْ وَافَوْا ذلِكَ المَحَلَّ، وَقَدْ آنَ أوانُ الفَرَجِ وَحَلَّ، وَأدْلَوُا الدَّلوَ لِلإخْراجِ، وقَدْ دَنا وَقْتُ الانفِرَاجِ، قالَ: وقَدْ كُنْتُ في تِلكَ السَّاعَةِ قدْ تَوَارَدَتْ عَلَيَّ الهُمُومُ، وَتَواتَرَتْ نَوائِبُ الغُمُومِ، حتَّى شَرَعْتُ في أسْبَابِ المَوْتِ، ومَا يُحْدِثُ الفَوْتَ، وسَلَلْتُ سَيْفِي الَّذِي أُنْزِلَ مَعِي مِن غِمْدِهِ، وَوَضعْتُ ذُبَابَتَهُ بَيْنَ ثَدْيَيَّ لأتَحامَلَ عَلَى حَدِّهِ فَيَخْرُجَ مِن ظَهرِي، وَأخْلُصَ مِن غَمِّي وَقَهْرِي، وَإذا بِالدَّلْوِ[4] وصَلَ، فَانْزاحَ الغَمُّ وَانْفَصَلَ، وَوَثَبْتُ فَقَعَدتُ فِيهِ وَقُلْتُ: آتِي المَقْدُومَ وَأستَوفِيهِ، فمَا كانَ بِأسْرَعَ مِن أنْ ظَهَرْتُ مِنَ البِئْرِ، وإذَا بأبِي وَأُمِّي وَزَوْجَتِي عَلَى ذلِكَ الشَّفِيرِ، فلا تَسألْ عَن ساعَةِ لِقاءِ الأحْبَابِ، وَكَيْفَ سَبَّبَتِ المقادِيرُ لَها الأسبَابَ، ثُمَّ قُلْتُ لأبِي: لا أبْرَحُ مِن هذا المَكانِ، أوْ تُرْسِلُ لأبِ الزَّوجَةِ لِيَحْضُرَ ويُشاهِدَ ما كانَ، وتَقَرَّ بِابْنَتِهِ مِنْهُ العَيْنُ، وَيَنْفُضَ عن قَلْبِهِ غُبارَ البَيْنِ، فمَا كانَ بِأسْرَعَ مِن حُضُورِهِ، مُبْدِياً تَباشِيرَ سُرُورِهِ، وأقَامَ لابْنَتِهِ عُرْساً حَافِلاً ثُمَّ انْثَنى إلَى مَمْلَكَتِهِ قافِلاً بَعْدَ أنْ حَصَلَتِ المُهادَنَةُ بَيْنَ المَمْلَكَتَيْنِ ثلاثِيْنَ سَنَةً، وَعُدْنا إلَى مَمْلَكَتِنا بِتِلْكَ الصُّورَةِ الحَسَنَةِ، ثُمَّ ماتَ أبِي وَوَرِثْتُ مِنهُ هذهِ البِلادَ، وَرُزِقْتُ مِن

---

(١) في الأصل: أسرع أسرع، وهو سهو.

(٢) السَّاجُ: خَشَبٌ يجلب من الهند، واحدته ساجَةٌ. والسَّاجُ: شجر يعْظم جداً، ويذهبُ طولاً وعرضاً، وله ورق أمثال التِّراسِ الدَّيْلَمِيَّةِ، يتغطى الرجل بورقةٍ منه فتَكِنهُ من المطر، وله رائحة طيبة تُشابهُ رائحةَ ورق الجَوْزِ مع رقة ونَعْمَةٍ. اللسان (سوج).

(٣) في الأصل: يدخلان إلَى ذلك البيت ويدخلان.

(٤) في الأصل: بالولد. والصواب ما أثبتّه.

بِنْتِ مَلِكِ البرجان الأَوْلادَ، وَهذِهِ عَادَةُ اللهِ في الشَّدَائِدِ، أنْ يَعْقُبَها الفَرَجُ المُتَزايِدِ، وأنْتَ – يا عَرَبِيُّ – إنْ كانَ تَنَاهَى عَنْكَ الضِّيْقُ وَالحَرَجُ، فهوَ أمَارَةُ قُرْبِ الفَرَجِ، فمَاانقضى كَلامُهُ حتَّى جاءَهُ رَسُولُ المَلِكِ بِدَعْوَةٍ لَهُم تجدَّدُ، وَضَمَّ ما تَفَرَّقَ مِنْهُ وَتَبَدَّدَ، فَتَوَجَّهَ إليهِ ثُمَّ عادَ وقالَ: يا عَرَبِيُّ، أبْشِرِ بالإسعاف والإسْعَادِ، إنِّي كُنْتُ بَيْنَ يَدَيِ المَلِكِ وَجَرَى ذِكرُ العَرَبِ، فأخَذَ البَطارِقَةُ في ذَمِّهِمْ بِمَا تَباعَدَ وَاقْتَرَبَ، وَنَفَوْهُم مِنَ الآدابِ والعُلُومِ، والعُقولِ وَالحُلُومِ، وَأنَّهمْ لا يَعْرِفونَ القَبِيْلَ مِن الدَّبِيرِ، وَإنَّما غَلَبَتُهمْ بِحُسْنِ الطَّالِعِ لا بِجَودَةِ الرَّأْيِ والتَّدبِيرِ، فقلت له: إنَّ الأمْرَ بِخِلافِ مَا زَعَمُوا، وإنَّ هؤلاءِ ما خَبَرُوا عُقُولَهُم ولا عَلِمُوا، وَأنَّ لَهُم عُقُولاً وَأذهاناً يَتَلاشَى عِنْدَها عَقْلُ أعْلَمِنا وأدْهَانا، فقالَ المَلِكُ: أنْتَ لِمَحَبَّتِكَ لِضَيفِكَ العَرَبِيِّ تُرِيدُ أنْ تَمْدَحَ العرَبَ وتُفضِّلها، وَتُعْطِيَها ما لَيْسَ لَها. فقُلتُ لهُ: إنْ رأى المَلِكُ أنْ يَأذَنَ في إحْضَارِ العَرَبِيِّ بَيْنَ يَدَيهِ لِلْمُكالَمَةِ معَ هؤلاءِ والمُنَاظَرَةِ، لِيَعْلَمَ الفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَينَ مَنْ ناظَرَهُ. فَأمَرَنِي بِحَمْلِكَ إلَيْهِ، وَإدْخالِكَ عَلَيهِ. فقُلتُ لَهُ: لَم تُحْسِنْ لِيَ الصَّنِيعَ، وَأخْرَجْتَنِي إلَى الهَوَانِ بَعْدَ جَنَابِكَ المَنِيعِ، فَإنِّي أخَافُ – إنْ غُلِبْتُ – مِنَ الازْدِراءِ والاحتِقَارِ، / وَزَوَالِ الحُرْمَةِ وَالوَقارِ، وإنْ غُلِبْتُ فَلَسْتُ [١٨/أ] مِن غَضَبِهِ في أمانٍ، ولا مِن بَطْشِهِ في ضَمَانٍ، فقالَ: ما ذَكَرْتَهُ صِفَةُ العَامَّةِ لا المُلُوكِ، وَهُم يَسْلُكُونَ بإنْصَافِهِمْ غَيْرَ هذا السُّلُوكِ. إنَّكَ إنْ غَلَبْتَ عَظُمْتَ في عَيْنِهِ وَلَزِمَهُ قَضاءُ حُقُوقِكَ، وَمَنَعَتْهُ الأخلاقُ المُلُوكِيَّةُ عنْ قَطْعِكَ وعُقُوقِكَ، وإنْ غُلِبْتَ سَرَّهُ غَلَبَةُ أهْلِ دِينِهِ، وازْدَادَ قُوَّةً في اعتقادِهِ وَيَقِينِهِ، وَأوْجَبَ لكَ ذلكَ عَلَيْهِ ذِمَاماً يَقْضِي لكَ بِهِ حاجَةً، وتَنْقَطِعُ الخُصُومَةُ واللَّجَاجَةُ، وعَلَى كِلا الحَالَيْنِ فَسَلَهُ إخْراجَكَ مِن مُلْكِهِ إلَى وطَنِكَ، وَرَدَّكَ إلَى مَأْلَفِكَ وعَطَنِكَ، فإنَّهُ سَيَفْعَلُ ذلكَ، وَتَسْهُلُ لكَ المَسَالِكُ. قالَ: فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَى المَلِكِ اسْتَدْنانِي وَقَرَّبَنِي ومَنَّانِي، وقالَ: ناظِرْ هؤلاءِ البَطارِقَةَ بِما أُوتِيتَهُ مِن العِلمِ، فإنَّا لا نُعامِلُكَ إلاَّ بِالحِلْمِ. فقُلتُ: إنِّي لا أرْضَى لِنَفْسِي إلاَّ مُناظَرَةَ البَطْرَكِ الكَبِيرِ، صاحِبِ الرَّأيِ وَالتَّدْبِيرِ. فَلَمَّا حَضَرَ الْتَفَتُّ إلَيْهِ، وَسَلَّمتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلتُ لهُ: يا شَيْخُ كيفَ أنْتَ؟ فقالَ: في عافِيةٍ وَنِعمةٍ غَيْرِ خَافِيَةٍ. فقُلتُ: كَيفَ حالُ وَلَدِكَ وحُشَاشَةِ كَبِدِكَ؟ فتضاحَكَ البَطَارِقَةُ وقالُوا: زَعَمَ البِطرِيْقُ – يعْنُونَ صاحِبِي – أنَّ هذا لهُ عَقْلٌ وفَهْمٌ، وقدْ وَفَرَ لهُ مِنَ الأدَبِ السَّهْمُ، وهوَ لا يَعْلَمُ بِجَهْلِهِ المُرَكَّبِ، وعَقْلِهِ الَّذِي عَدَلَ بِهِ عنِ الصَّوَابِ وَنَكَبَ، أنَّ اللهَ قدْ صانَ البَطْرَكَ عنِ الأولادِ، ووَفَّرَ سَهْمَهُ مِن طارِفِ العِلْمِ والتِّلادِ. فَقُلْتُ لَهُم: كأنَّكُم تَرْفَعُون البَطْرَكَ عن نِسبَةِ الوَلَدِ إلَيْهِ، وأنْ يكُونَ ذلِكَ وَصْمَةً عَلَيْهِ. فقالُوا: إنَّا لَنَرْفَعُهُ عنْ ذلكَ إذِ اللهُ عنْهُ رَفَعَهُ، وأجَلَّ قَدْرَهُ عَنْهُ ومَا وضعه.

فَقُلتُ: وا عَجَباً! أتُجِلُّونَ عَبْداً مِن عَبيدِ اللهِ عنِ الأَوْلادِ، ولا تُجِلُّونَ اللهَ الَّذِيْ خَلَقَ العِبادَ والبِلادَ[1]؟! قالَ: فَنَخَرَ البَطْرَكُ نَخْرَةً أزعَجَتني، وَأخافَتْني ورَوَّعَتْني، ثُمَّ قالَ: أيُّها المَلِكُ، أخْرِجْ هذا السَّاعَةَ عنْ بَلَدِكَ، لِئَلاَّ يُفْسِدَ عَلَيْكَ أهْلَهُ، وَلا تُعْطِ في ذلكَ تَهاوُناً وَلا مُهْلَةً. فَدَعا المَلِكُ بفُرْسانٍ ضَمَّنِي إلَيْهِم، وَعَوَّلَ في حِفْظِي عَلَيهِمْ، وأمَرَ بِحَمْلِي عَلَى دَوَابِّ البَرِيدِ، وأنْ يُنْفَقَ عليَّ ما أشْتَهِي وأُرِيدُ، إلَى أنْ أُسلِّمَ[2] إلَى أهْلِ الإسْلامِ، وأُدْخَلَ بِلادَهُم بسلامٍ، فأُوْصِلتُ إلَى ثَغْرٍ مِن ثُغُورِ المُسْلِمِينَ، فتَلَقَّوْنِي مُهَنِّئِينَ ومُسَلِّمِينَ، فَتَأمَّلْ عُذُوبةَ هذا السَّمَرِ، وما حَلا فيْهِ ومَا مَرَّ[3].

---

(١) أسلوب جميل في المناظرة مع النصارى واستدلال مفحم.

(٢) في الأصل: أن سلم. والصواب المثبت.

(٣) أصل هذه القصة في كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي، ١/١١٦-١٢٠:

"أسره الروم في أيام معاوية وأطلقوه في أيام عبد الملك: روى حميد، كاتب إبراهيم بن المهدي، أن إبراهيم حدثه، أن مخلداً الطبري، كاتب المهدي على ديوان السر، حدثه، أن سالماً مولى هشام بن عبد الملك، وكاتبه على ديوان الرسائل، أخبره، أنه كان في ديوان عبد الملك يتعلم كما يتعلم الأحداث في الدواوين، إذ ورد كتاب صاحب بريد الثغور الشامية، على عبد الملك، يخبره فيه أن خيلاً من الروم تراءت للمسلمين، فنفروا إليها، ثم عادوا ومعهم رجل كان قد أسر في أيام معاوية بن أبي سفيان، فذكر أن الروم لما توافقوا مع المسلمين، أخبروهم أنهم لم يأتوا لحرب، وإنما جاؤوا بهذا المسلم ليسلموه إلى المسلمين، لأن عظيم الروم أمرهم بذلك. وذكر صاحب البريد، أن النافرين ذكروا، أنهم سألوا المسلم عما قال الروم، فوافق قوله قولهم، وذكر أن الروم قد أحسنوا إليه، فانصرفوا عنهم، وإني سألته عن سبب مخرجه، فذكر أنه لا يخبر بذلك أحدًا دون أمير المؤمنين، فأمر عبد الملك بإشخاص المسلم إليه، فأشخص إلى دمشق. فلما دخل على عبد الملك، قال له: من أنت؟ قال: قتات بن رزين اللخمي. قال مؤلف هذا الكتاب، كذا كان في الأصل الذي نقلت منه: قتات، وأظنه خطأ، لأن المشهور قباث بن رزين اللخمي، وقد روى الحديث عن علي بن رباح اللخمي، عن عقبة بن عامر الجهني، أو لعله غيره والله أعلم. أسرت في زمن معاوية، وطاغية الروم - إذ ذاك - توما بن مرزوق. فقال له عبد الملك: فكيف كان فعله بكم؟ قال: لم أجد أحدا أشد عداوة للإسلام وأهله منه، إلا أنه كان حليما، فكان المسلمون في أيامه أحسن أحوالاً منهم في أيام غيره، إلى أن أفضى الأمر إلى ابنه ليون، فقال - في أول ما ملك - إن الأسرى إذا طال أسرهم في بلد، أنسوا به، ولو كان على غاية الرداءة، وليس شيء أنكأ لقلوبهم من نقلهم من بلد إلى بلد، فأمر باثني عشر قدحاً، فكتب على رأس كل قدح اسم بطريق من بطارقة البلدان، ويضرب بالقداح في كل سنة أربع مرات، فمن خرج اسمه في القدح الأول، حول إليه المسلمون، فاحتبسهم عنده شهراً، ثم إلى الثاني، ثم إلى الثالث، ثم تعاد القداح بعد ذلك. فكنا لا نصير عند أحد من البطارقة، إلا قال لنا: احمدوا الله حيث لم يبتلكم ببطريق البرجان، فنرتاع لذكره، ونحمد ربنا إذ لم يبتلنا به فمكثنا على ذلك سنين. ثم ضربت القداح..." ثم ساق القصة كاملة بحذافيرها كما وردت في مقامات العباسي بكل تفاصيلها.

المَقَامةُ الثّامنَةُ (البَغداديّةُ):

ذُكِرَ أنَّهُ كانَ بِمَدينَةِ بَغْدَادَ دَارِ السَّلامِ وَمَوطِنِ المَجْدِ وَالشَّرَفِ وَقُبَّةِ الإسْلامِ، صَيْرَفِيٌّ نَقَّادٌ مَشْهُورٌ بِالمَعْرِفَةِ كالكَوْكَبِ الوَقَّادِ، وكانَ لَهُ سُمْعَةٌ وَوجاهَةٌ، وَخِبْرَةٌ وَنَباهَةٌ، وسَعَةٌ وتُراثٌ وَكَسْبٌ واحْتِرَاثٌ، وَلَم يَزَلْ عَلَى ذلِكَ الحالِ لا يُدَانِي خِصبَهُ إمْحَالٌ، ولا يُكَدِّرُ صَفْوَهُ بِحالٍ، قدْ نامَتْ عَنْهُ عُيُونُ الدَّهْرِ وَتَحامَتْهُ عُيونُ القَهْرِ، وسالَمَتْهُ اللَّيالِي فاغْتَرَّ، وَكَشَّرَ لهُ الدَّهرُ عَن نابِهِ وافْتَرَّ، يُمْسِي ويُصْبِحُ في أمْنٍ وأمَانٍ، وَكَفالَةٍ مِنَ الأيَّامِ وَضَمَانٍ، إلَى أنِ انْعَكَسَتْ سُعُودُهُ وانْتَكَسَتْ مِنَ السَّعادَةِ عُهُودُهُ، وَانْحَلَّ أمْرُهُ المُبْرَمُ وَآلَ العَكْسُ في فَلاكَتِهِ وَأبْرَمَ، فانْقَلَبَ رِبْحُهُ خَساراً وَيَسارُهُ إعْسَاراً، وَعادَ نَمِيرُهُ وَشَلاً[1] وَارتَدَّ إقْدَامُهُ فَشَلاً، فَأصْبَحَ بَعْدَ الغِنَى فقيراً لا يَمْلِكُ فَتِيلاً وَلا نَقِيراً، تَتَقاذَفُهُ الأبْوَابُ، ولا يَلُمُّ شَعَثَهُ أوَّاهٌ وَلا أوَّابٌ، قدْ زَلَّتْ بِهِ القَدَمُ، وَفقدَ الأهْلَ والخَدَمَ، ما عَدَا جَارِيَةٍ دُمُوعُها عَلَى الخُدُودِ جَارِيَةٌ، فَصَبَرَتْ مَعَهُ عَلَى بُؤسِهِ، وَتَجرَّعَتْ مَرَارَةَ إعْرَاضِ الدَّهْرِ وعُبُوسِهِ، وقَاسَمَتْهُ ذلِكَ المُصَابَ، وَسَاهَمَتْهُ فِيما اعْتَراهُ مِنَ الأوْصَابِ، وَقَليلاً ما يَصْبِرُ عَلَى اللَّأْوَاءِ صاحِبٌ، أوْ يَبْقَى عَلَى البَأساءِ مُصَاحِبٌ، فالنَّاسُ إخْوَانُ الرَّخَاءِ والنِّعَمِ، وَهُم لَهُ الإخْوَانُ ما الوَطْبُ انفَعَمَ[2]، أمّا إذا أظَلَّ إقْلالٌ وعَمَّ، تَشَرَّدُوا عَنْهُ كَسُرَّاقِ النَّعَمِ، وكانَ مِن سِرِّ اللهِ المَكْتُومِ، وقَدَرِهِ المَحْتُومِ، أنِ اشْتَمَلَتْ تِلكَ الجارِيَةُ مِنْهُ عَلَى حَمْلٍ، وَصارَتْ مِن ثِقْلِهِ تَمشِي مِشْيَةَ النَّمْلِ، ثُمَّ لَمَّا جاءها المَخَاضُ – وقَدْ عامَ / سَيِّدُها في بَحْرِ [١٨/ب] الكروب ومَا خاضَ – تَوارَدَتْ عَلَيْهِ الهمُومُ، وتَبادَرَتْ إلَيْهِ مُؤْلِماتُ الغُمُومِ، وأخَذَ يُفَكِّرُ في ذلكَ الحَالِ، ومَا تَغَيَّرَ إلَيْهِ واسْتَحالَ، وقَدْ سُدَّتْ دُونَهُ أبْوَابُ الحِيَلِ، واغْتالَتْهُ بِغُبُونِها الغِيَلُ، فطَلَبَتْ مِنْهُ عِنْدَ الوِلادَةِ ما جَرَتْ للنُّفَساءِ بِهِ العادَةُ، مِمَّا يَجْبُرُ ذلِكَ الصَّدْعَ، وَيَحْصُلُ بِهِ لِمولِمِها الزَّجْرُ والرَّدْعُ، وكانَ اللَّيْلُ قدْ مَدَّ أطْنَابَهُ السُّودَ، واشْتَبَهَ فيهِ السَّيِّدُ بِالمَسُودِ، فَأوْهَمَها أنَّهُ يَخْرُجُ لِتَحصِيلِ الأرَبِ، ولَمْ تَكُن لهُ هِمَّةٌ إلاَّ الهَرَبُ، فاتَّخَذَ اللَّيْلَ جَمَلاً، وَخَيَّبَ مِنها رَجاءً وأمَلاً، وصَادَفَ قافِلَةً تَخْرُجُ إلَى خُراسَانَ، فَاصْطَحَبَ مِنها مَعَ مَن تَوَهَّمُ فيهِ الإحْسَانَ، وصَارَ يَطْوِي الفَيَافِيَ طَيًّا، ويَقولُ لِوارِداتِ كُروبِهِ: هيًّا، إلَى أنْ وصَلَ إلَى هَرَاةَ، وقَدْ لَغَبَ[3] مِمَّا انْتابَهُ وَعَرَاهُ،

---

(١) الوَشَل: الماءُ القليل يَتَحلَّب من جبل أو صخْرة يقطُر منه قليلاً قليلاً، لا يَتَّصِلُ قطْره، وكذلك المطر المتقطع والقليل. اللسان (وشل).

(٢) الوَطْب: سقاء اللبن، جمعه أوطاب ووطاب. وفعمَ الإناء: ملأه وبالغ في ملئه. اللسان (فعم).

(٣) لَغَبَ: أعْيا أشدَّ الإعْياءِ. اللسان (لغب).

وَعَرَاهُ، فَأَلْقَى بِها عَصَا التَّسْيَارِ، وخلَعَ عَنْهُ غَيْرَ تِلْكَ الأَغْيَارِ[1]:

وَقَـــالَ لِلـــنَّفْسِ: القَـــرَارَ القَـــرَارْ ... فَقَـــدْ تَجَـــاوَزْتِ المَـــدَى فـــي الفِـــرَارْ
وَارْضَـــيْ مِـــنَ الحَـــظِّ بِإِطْلامِـــهِ ... فَبَـــدْرُهُ قَـــدْ ظَـــلَّ تَحْـــتَ الـــسِّرَارْ
وَامْـــشِي مَـــعَ الـــدَّهْرِ وأبنائِـــهِ ... وَاسْتَـــصْحِبِي الأَخْيَـــارَ دُونَ الـــشِّرَارْ
وَاحْتَمِلِـــي الغُرْبَـــةَ لَـــوْ أَنَّهَـــا ... تَرْمِيـــكِ مِـــنْ نِيْرَانِهَـــا بِالـــشَّرَارْ
وَصَـــاحِبِي فِيهَـــا فُنُـــونَ الأَسَـــى ... صُـــحْبَةَ مَـــنْ يُلْجِئُـــهُ الإِضْـــطِرَارْ
وَاصْـــطَبِرِي إِنْ بُـــدِّلَ المِـــسْكُ بِالْـــ ... ـمُـــسْكِ[2] وَعَاضُـــوا بِالثُّمَـــامِ العَـــرَارْ[3]
وَاقْتَنِعِـــي بِالطَّـــلِّ بَعْـــدَ الحَيَـــا ... وَارْضَـــيْ مِـــنَ النَّـــوْمِ بِـــأَدْنَى الغِـــرَارْ
وَانْتَظِـــرِي مِـــنْ فَـــرَجِ اللهِ مَـــا ... يَـــأْتِي، وَلَـــوْ أَوْرَثَـــكِ الإِصْـــفِرارْ

ثُمَّ إِنَّهُ شَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ الجِدِّ، وفَعَلَ فِعلَ الحَدِبِ المُجِدِّ، وَاحْتَرَفَ واكْتَسَبَ، ولا فَاخَرَ وَلا انْتَسَبَ، وَالغُرْبَةُ مَعَ الحِرْفَةِ تُعَلِّمُ الحِرْفَةَ[4]، وَإِذَا صَفِرَ الوِطَابُ سَهُلَ ما كانَ شَقَّ وَطَابَ، فَحَصَّلَ وَأَثْرَى، وَصَارَ قُلُّهُ[5] كُثْراً، وَتَراجَعَ إِلَيْهِ حَالُهُ، وذَهَبَ بَالخِصْبِ إِمْحَالُهُ، وَافْتَرَّ لهُ ثَغْرُ السَّعْدِ، وَوَفَّى لهُ الدَّهْرُ بِالوَعْدِ، وَاعْتَاضَ بِسُعْدَى عَنْ دَعْدَ، وَبَسَبَطَ الحِبَالَ عَنِ الجَعْدِ، واتَّفَقَ أَنْ حَدَثَتْ فِتَنٌ بَيْنَ خُرَاسَانَ وَالعِراقِ مَنَعَتْ مِن الاسْتِطْرَاقِ، فَطَالَ بِهَا مَقَامُهُ، وَتَمادَتْ بِهَا أَيَّامُهُ، إِلَى أَنِ انْجَلَتْ الفِتَنُ عنْ قِيامِ المَأْمُونِ وَقَتْلِ الأَمِينِ، وَتَحلَّتِ الأَيَّامُ الأَمْنَ الثَّمِينَ، فَحَثَّهُ الشَّوْقُ إِلَى الوَطَنِ، والحَنِينُ إِلَى العَطَنِ، عَلَى شَدِّ الرِّحَالِ وَالسَّفَرِ وَالارْتِحَالِ، وَحَمَلَ كُلَّ مُدَّخَرٍ وَمَخزُونٍ، ومَذْرُوعٍ ومَوْزُونٍ، فَلَمَّا ضَمِنَ مَا اصْطَفَاهُ وَرَزَمَ، شَمَّرَ عن ذِرَاعِ الحَزْمِ وَعَزَمَ، وَصَحِبَ قَافِلَةً تَسِيْرُ إِلَى العِراقِ، وَقَدْ سَئِمَ الغُرْبَةَ وَالافْتِرَاقَ، وَأَرَاقَ كَأْسَ الكَرَى، وَنَضَى الرِّكَابَ لِلسُّرَى، وَجَابَ في سَيْرِهِ وُعُوراً لَمْ تَدُسْهَا الخُطَى، ولا تَهْتَدِي إِلَيْهَا القَطَا، إِلَى أَنْ قَارَبَ حِمَى الخِلافَةِ، وَشَارَفَ قُرْبَهُ وَازْدِلافَهُ، طَلَعَ عَلَى القَافِلَةِ جَمْعٌ كَبِيرٌ مِن اللُّصُوصِ، كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ، فَاسْتَوْلَوا عَلَى القَافِلَةِ[6]، وَشفعُوا الفَرِيْضَةَ بِالنَّافِلَةِ، وَاسْتَحْوَذُوا عَلَى

---

(١) من البحر السريع.

(٢) المِسْك: ضرب من الطيب يتخذ من ضرب من الغزلان. والمُسْك: ما يمسك الأبدان من الطعام والشراب. اللسان (مسك).

(٣) الثُّمام: عشب من الفصيلة النجيلية يسمو إِلَى مائة و خمسين سنتمتراً، فروعه مزدحمة متجمعة. والعَرار: نبات طيب الرائحة. اللسان (ثمم) و (عرر).

(٤) الحرفة (الأولى): الدأب والجد فيه يقال: حرفته أن يفعل كذا): دأبه وديدنه. والحرفة (الثانية) الكسب من زراعة وصناعة وتجارة وغيرها.

(٥) القُلّ: القليل.

(٦) في الأصل: جمعٌ كبيرٌ من اللصوص كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ فاستَولَوا عَلَى القافلة جمع كبير من اللصوص، وهو تكرار سببه السهو.

ما فيها مِنَ المَالِ، وحَازُوا الجِمَالَ بِمَا عَلَيْها مِنَ الحِمَالِ، وَسَلِمَ مِنَ القَتْلِ مَن سَلِمَ يَأْتِي القُرَى وَيَستَجْدِي مِن أَهْلِها القِرَى، إِلَى أَنْ وَصَلُوا إِلَى المَدِيْنَةِ بالنُّفُوسِ البَاكِيَةِ الحَزِيْنَةِ، فَدَخَلَها ذلكَ المِسْكِيْنُ كَمَا خَرَجَ، وَلَمْ يَخْرُجْ عنْ دائرَةِ الحَرَجِ، وَإِذا كانَتِ المِحَنُ فَجَّةً لَمْ يَهْتَدِ الوَاقِعُ فِيها إِلَى مَحَجَّةٍ، وَلَمْ يَكُنْ لهُ دَأْبٌ غَيْرُ البِدَارِ إِلَى جِهَةِ الدَّارِ، لِيَنْظُرَ ما دارَ بِهِ الفَلَكُ المُدَارُ، فَعِنْدَما وَصَلَ إِلَيْهَا وَوَقَعَ نظَرُهُ عَلَيْهَا، رأَى دَاراً عَالِيَةَ البِنَاءِ، واسِعَةَ الفِناءِ، وبِبَابِها جُمُوعٌ مِنَ النَّاسِ مُخْتَلِفُوْ الأَجْنَاسِ، فَخَفَقَ قلبُهُ، وَطَاشَ لُبُّهُ، إِذْ لَم يَعْرِفْ لأَهْلِهِ خَبَراً، وَلَم يَجِدْ عَنهُمْ مُخْبِراً، غَيْرَ أَنَّهُ أَتَى حانُوتاً عَلَى بابِ مَحَلِّهِ، راجِياً أَنْ يَكُونَ عِنْدَ صاحِبِها فَكٌّ ما اشْتَبَهَ عَلَيْهِ وأَنْ يُرِيَهُ حَلَّهُ، فسأَلَهُ عنْ تِلكَ الدَّارِ، ومَا إِلَيْهِ حالُها / اسْتَدَارَ فقَالَ: إِنَّ لَها نَبأً مِن أَغْرَبِ الأَنْباءِ، [١٩/أ] يُحيِّرُ فِكْرَ الأَلِبَّاءِ، أَخبَرَنِي أَبِي أَنَّ صَاحِبَ هذهِ الدَّارِ كانَ ذا غُنْيَةٍ واقتدارٍ، فدَارَتْ بِفَلاكَتِهِ الأَفْلاَكُ، وانْقَطَعَ سِلْكُ سعَادَتِهِ مِن بَينِ الأَسْلاكِ، فصَارَ فَقِيراً، لا يَمْلِكُ فَتِيْلاً وَلا نَقِيْراً، وكانَ لَهُ جَارِيَةٌ حامِلٌ فَوَضَعَتْ لَيْلاً، وطَلَبَتْ مِنْهُ مَا يُذْهِبُ حَرَباً وَوَيْلاً، فَنَزَلَ مِن عِندِها وَاللَّيْلُ مَسْبُولُ الذَّيلِ، فَلَمْ يُعلَمْ لهُ خبرٌ، وَلا يُدْرَى أَهُوَ فِي الأَحْيَاءِ أَمْ فِيْمَنِ انْقَبرَ، وَسَمِعَ أَبِي بتِلْكَ القِصَّةِ وما تَجَرَّعَتْ مِن الغُصَّةِ، فأَرْسَلَ إِلَيْها ما رَمَّ حَالَها وأَخْصَبَ إِمْحَالَهَا، وكانَ مِن قَدَرِ اللهِ المَحْتُومِ وسِرِّ غَيْبِهِ المَكْتُومِ، أَنْ وُلِدَ تِلكَ اللَّيْلَةَ لِلخَلِيفَةِ وَلَدٌ ذَكَرٌ، وَحُرِّمَتْ عَلَيهِ المَراضِعُ فحَارَتْ في أَمْرِهِ الفِكَرُ، وَعَرَضُوا عَلَيهِ عِدَّةً مِنهُنَّ فلَمْ يَقْبَلْ مِن واحِدَةٍ ثَدْياً، ولَم يَجِدُوا إِلَى ما يُوَافِقُ مِزَاجَهُ هَدْياً، وكانَ مِن آخِرِ أَمْرِ ما عَرَضُوا عَلَيهِ ثَدْيَ تلكَ الجَارِيَةِ فتقبَّلَهُ، وقدْ أَرْخَى اللهُ عَلَيها وعَلَى وَلَدِهَا سِتْرَ السَّعَادَةِ وأَسْبَلَهُ، فانْتَعَشَتْ أَتَمَّ انْتِعاشٍ، وعَاشَتْ أَكْرَمَ مَعَاشٍ، ونَشَأَ وَلَدُها في حِجْرِ الخِلافةِ، وقَدْ رزقَهُ اللهُ مِن وَلَدِ الخَلِيفَةِ مَحبَّتَهُ وإِيْلافَهُ، ولَمْ يَزَلْ يُعامِلُهُ مُعامَلَةَ الأَخِ الشَّقِيقِ، وَيَنْظُرُ في الجَلِيلِ مِن أَحْوَالِهِ والدَّقِيْقِ، إِلَى أَنْ أَفْضَتْ إِلَيهِ الخِلافَةُ، وأَمِنَ جَوْرَ الدَّهْرِ وإِخْلافَهُ، فَصَيَّرَهُ رَئِيسَ صَيَارِفَةِ بيتِ المالِ، وَفَوَّضَ إِلَيهِ النَّظَرَ في تلكَ الأَعْمَالِ، وَبَنَى بأَحْسَنِ البِناءِ دَارَهُ، وأَحَاطَ بِها مِن دَوائِرِ السَّعَادَةِ دَارَهُ، فهُوَ في تَحصِيلِ الأَمْوَالِ السُّلطانِيَّةِ المُشَارُ إِلَيهِ والمُعَوَّلُ في ضَبْطِها ونَقْدِها عَلَيْهِ، فكادَ يَطِيْرِ مِمَّا سَمِعَ فَرَحاً، وَيَستَطِيْرُ[1] جَذَلاً وَمَرَحاً، وتوَجَّهَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ عَلَيهِ، وَشاهَدَ ما وَصلَ مِنَ النِّعمَةِ إِلَيهِ، وَالأَمْوَالُ بَيْنَ يَدَيهِ مَنْثُورَةٌ، ودفَاتِرُ الكُتَّابِ بأَيْدِيهِمْ مَطْوِيَّةٌ ومنشُوْرَةٌ، فوَقَفَ معَ جُمْلَةِ الواقِفِينَ وَدُمُوعُهُ تتحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، وهوَ يَتعجَّبُ مِن لُطفِ اللهِ تعالَى بهِ في مِحْنَتِهِ، إِلَى أَنْ تَقَوَّضَ ذلكَ الجَمْعُ الجَلِيلُ، ولَم يَبْقَ مِنهُم إِلاَّ القَلِيلُ، فَلاحَتْ مِنهُ التِفَاتَةٌ إِلَيهِ، وعَطَفَتْهُ عاطِفَةٌ عَلَيهِ، فقالَ لهُ: أَيُّها الشَّيْخُ،

---

(١) استطار: تفرّق وذهبَ. اللسان (طير).

هلْ لكَ مِن حاجَةٍ فتُقْضَى؟ أو مُهِمَّةٍ فتُمْضَى؟ فاذْكُر ما تُريدُ تَجِدْهُ أقربَ إلَيكَ مِن حَبْلِ الوَرِيدِ، فَإنّي أجِدُ في قَلْبِي مَيْلاً إلَيكَ وشفَقَةً علَيْكَ. فقالَ: إنّي مِمَّنْ عَضَّهُ الدَّهْرُ، وخَبَرِي لا يَحْتَمِلُ الجَهْرَ، فقَلِّلْ بقيَّةَ هذا الجَمْعِ، وفرِّغْ مِن نفْسِكَ ليَ القَلبَ والسَّمْعَ، لأقُصَّ علَيكَ ما عِنْدِي من القَصَصِ، وأبُثَّكَ [ما](1) تجرَّعْتُهُ مِنَ الغُصَصِ. فنظَرَ نَظْرَةً فإذا ذلكَ الجَمْعُ قدْ تفرَّقَ، ولَمْ يَبْقَ مِنهُ(2) مَفْرِقٌ، فَقَالَ: إنّي أنَا نَاجِلُكَ(3)، ومشاقكَ في النَّسَبِ ومُسَاجِلُكَ(4). فَعِنْدَما سَمِعَ ما بَدَّ فاهُ، أوْلاهُ قَفَاهُ، ودخلَ مُسْرِعاً إلَى أُمِّهِ، وَأخْبَرَهَا بِمُهِمِّهِ، فقالتْ: إنَّ لي فيهِ سِمَاتٍ لَيْسَتْ بِمُبْهَمَاتٍ، فَمُرِ الْخَدَمَ بِتَقْرِيبِهِ لأَلْمَحَهُ مِن خصائصِ البابِ، وأتبيَّنَ القِشرَ مِن اللُّبابِ. فعِندَما لَمَحَتْهُ عَرفتْهُ معَ شُحوبِ حالِهِ، وتَزايُدِ إمْحالِهِ، فلَمْ تَملِكْ نَفْسَها أنْ خَرَجتْ إلَيهِ، وألْقَتْ نَفْسَها علَيهِ، فتناحَبَا وتباكَيا، ومِن أَلَمِ الفُرْقَةِ تشاكَيَا، وبلَغَ الوَلَدَ الخَبَرُ فأخذتْهُ عَبْرَةٌ وأمرَ الخدَمَ بإدْخَالِهِ حَمَّامَ الدَّارِ، وبِسعَادَتِهِ فَلَكُ السَّعْدِ دارَ، وأفاضُوا علَيهِ مِنَ المَلابِسِ الجَلِيلَةِ ما عادَ بِهِ إلَى هَيْئَتِهِ الجَمِيلَةِ، ثُمَّ ذَهبُوا به إلَى ابْنِهِ فتَلَقَّاهُ بِالتَّرْحيبِ والإكْرامِ، والتَّوْقِيرِ والاحْتِرامِ، وركِبا مَعاً إلَى قَصْرِ الخَلِيفَةِ، وأوْصَلَهُ إلَى سُدَّتِهِ المُنِيفَةِ، وعَرَضَ عليهِ حَدِيثَهُ وقَصَّ علَيهِ قَدِيمَ حالِهِ وحَدِيثَهُ، فأخذَهُ مِن ذلكَ العَجَبُ وقالَ: قدْ تَحَتَّمَ النَّظَرُ في حالِهِ ووَجَبَ. وخلَعَ علَيهِ خِلْعَةً سَنِيَّةً، ورَسَمَ لَهُ مِن المالِ ما عَادَتْ بِهِ عِيْشَتُهُ هَنِيَّةً، وَفوَّضَ إلَيْهِ النَّظَرَ فِيما كانَ ابْنُهُ يَنْظُرُ فِيهِ مِنَ الأعْمَالِ، فأصْبَحَ وكأنَّ الدَّهرَ ما جَارَ علَيهِ ولا مَالَ، ورُقِّيَ الوَلَدُ إلَى رُتْبَةٍ هيَ أعْلَى وأسْنَى، وعامَلَ كُلاً مِنهُمَا بِالحُسْنَى، واستَمَرَّا علَى ذلكَ مُتَفَيِّئَيْنِ بسَابِغِ تلكَ الظِّلالِ، متعَامِلَيْنِ بالإكْرَامِ والإجْلالِ، إلَى أنْ بَلَغَ الأجَلُ التَّمَامَ، ووَافَاهُمَا بالوَفاةِ الحِمَامُ، فَيَا لَهُ مِن سَمَرٍ غَرِيبٍ يَقْضِي فِيهِ بالعَجِيبِ الأَرِيبُ.

[١٩/ب]

المَقَامَةُ / التَّاسِعةُ (القُسْطَنْطِينِيَّةُ):

قالَ لي بَعضُهُمْ لَمَّا ساقَتْنِي الأقْدارُ المَحْتُومَةُ وَأسْبابُ الغُيُوبِ المَكْتُومَةِ إلَى مَدِينَةِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ العظمى، ذاتِ المَحَلِّ الأعْلَى والمقَامِ الأسْمَى، تخْتِ(5) المُلكِ المُعَظَّمِ ومَحَلِّ المَجْدِ الأعْظَمِ، ومَدِينَةِ العِلْمِ، وقَرارَةِ الحِلْمِ، وَمَحَطِّ الرِّحَالِ، ومُنْتَهى التِّرْحَالِ، وَأقْصَى

---

(1) زيادة يستقيم بها الكلام.

(2) في الأصل: من منه. وهو سهو من الناسخ.

(3) ناجلك: ناسلك، يقال (نجل الوالدَ): نسلَه.

(4) مشاقك: مُغالبك، ومساجلك: مفاخرك.

(5) التخت: المكان المرتفع يجلس عليه الملك، حتى لا يساوي غيره من جلسائه. (انظر معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، لمحمد دهمان: ص ٤٢).

المَطَالِبِ وَمُنْتَهى القَاصِدِ والطَّالِبِ، مَظْهَرِ شُمُوسِ السِّيَادَةِ، ومَقَرِّ نَفِيسِ السَّعادةِ، آياتُ مَحَاسِنِها لَم تَزَلْ بِأَلْسُنِ السُّمَّارِ مَتْلُوَّةً، وعَرائسُ بَدائعِهَا لَم تَبرح عَلَى أَعْيُنِ النُّظَّارِ مَجْلُوَّةً، أَجَلُّ ما فُتِحَ مِن البِلادِ، وأَعْظَمِ ما اقْتُنِيَ مِن طارِفِ الآثارِ وَالتِّلادِ، لا زالَتْ دارَ الإسْلَامِ وَالإيْمَانِ، وَمَحَلَّ الأَمْنِ والأَمَانِ، بِدَولَةِ مَلِكِ العَصْرِ سُلَيْمَانِ[1] الزَّمَانِ، لا بَرِحَتْ دَولَتُهُ مُخلَّدةً خُلُودَ الأَبْرارِ في دارِ القَرَارِ، مَا تَجَدَّدَ العَصْرُ وَالأوانُ، وَتَعاقَبَ المَلَوانِ، قالَ: فَبَينَما أنا أَمْشِي في مَحَالِّها الوَسِيعَةِ، وأُجِيلُ الطَّرْفَ في قُصُورِها الرَّفِيعَةِ، وَأَتأمَّلُ تَشْيِيْدَ مَبانِيْها، وتَرْتِيبَ مَغانِيها، إذْ قَرَعَ سَمْعِي صَوتٌ مُطْرِبٌ مِن مُنْشِدٍ يَلْحَنُ وَيُعْرِبُ، فَوَجَّهتُ[2] نَحوَ الصَّوتِ، وأَسْرَعتُ خَوْفَ الفَوْتِ، وإذا بِشَابٍّ حَسَنٍ ذِي بَلاغَةٍ وَلَسَنٍ، قدْ أَبْرَزَ رأسَهُ مِن طاقٍ عَالِيَةٍ، وهوَ بِصُورَةٍ خَالِيَةٍ، فأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ بِسَمْعِي، وجَمَعْتُ لهُ جَمْعِي، لأَفْهَمَ ما يَقُولُ مِن مَعْقُولٍ أَوْ غَيرِ مَعْقُولٍ، فإذا هُوَ يَنْتَقِلُ مِن شُجُونٍ إِلَى شُجُونٍ، وَيَخْلِطُ الجِدَّ بِالمُجُونِ، وَيَشُوبُ العَقْلَ بالأَفَنِ[3]، وَيَتَحَرَّكُ كَحَرَكَاتِ الزَّفْنِ[4]، ويَقُولُ[5]:

وَا عَجَبـــاً وَا عَجَبَـــا ... لِمَـــنْ يُحِـــسُّ وَجَبَـــا
وَحَـادَ عَـن نَهْـجِ الهُـدَى ... ولا انْتَحَـى مَـا وَجَبَـا
وَلا دَرَى هَـــلْ جَـــارُهُ ... شَـــعْبَانُ وَالاَّ رَجَبَـــا
مَـــا ذَاكَ إلاَّ أَنَّـــهُ ... عَـنِ الـصَّوَابِ انْحَجَبَـا
لِحِكَمَـــةٍ بَالِغَـــةٍ ... تُـوْلِي اللَّبِيْـبَ العَجَبَـا
فَهْـــوَ بِمَـــا يَفْعَلُـــهُ ... مِـــنَ المَـــلامِ أَوْجَبَـــا

ثُمَّ أَمْسَكَ لِسانَهُ وَجَلَسَ، وَسَكَتَ وما نَبَسَ، فَعَجِبتُ مِمَّا سَمِعتُ، ورَغِبتُ في الازْدِيَادِ مِنهُ وَطَمِعْتُ وَقُلْتُ لهُ: هَاتِ مِن هذهِ التُّرْهَاتِ. فقالَ: أَلَمْ يُنْبِئْكَ عَمَّا في الصَّحِيفَةِ العُنوَانُ؟ فَعِندِي مِنهُ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنوَانٍ، وَصُنوفٌ مُخْتَلِفةُ الأَلْوَانِ. فقُلتُ: وَاهاً لِجَمالِكَ مِنْ نَقْصٍ كَمَالِكَ! كَيفَ تُبدِي البَرَاعةَ وتَشُقُّ بِها بالرَّقَاعَةِ؟ أَمْ كيفَ تُبْدِي الحَذَاقَةَ وتَمْذُقُهَا[6] [بالحَمَاقَةِ؟][7] أَمَا

---

(١) هو سليمان الأول (المعروف بالقانوني) بن سليم الأول بن بايزيد الثاني، من سلاطين الدولة العثمانية المشهورين، ولد سنة ٩٠٠هـ، وولي الحكم من سنة ٩٢٦هـ إلى وفاته سنة ٩٧٤هـ. (راجع ترجمته في: تاريخ سلاطين آل عثمان، ليوسف آصاف، تحقيق بسام الجابي، ط٣/ ١٤٠٥هـ: ص ٧٢-٧٩).

(٢) وجَّهت: توجهت. أو: وليت وجهي إليه.

(٣) الأفن: ضعف العقل. اللسان (أفَن).

(٤) الزَّفْنُ: الرَّقْصُ. اللسان (زفن).

(٥) من مجزوء الرجز.

(٦) تمذقها: المَذْق: المزج والخلط. اللسان (مذق).

(٧) في الأصل: بالجماعة، والصواب المعدل في المتن (بالحماقة)، بدليل ما سيأتي في السطر الَّذِي يليه، في قوله: واللهِ لستُ بأحمق، وأيضاً لموافقة منهج المؤلف في التزام ما لا يلزم.

إنَّ هذا لَلْعَجَبُ العُجابُ، والنِّداءُ الَّذِيْ هُوَ غيْرُ مُجابٍ[1]. فقالَ: وَاللّهِ لَسْتُ بأَحْمَقَ ولا أَرْعَنَ، وقَدْ أَقرَّ لي بالحِذْقِ مَن بَرَعَ في الأدَبِ وأَذْعَنَ، الأحمقُ – وَاللّهِ – مَنْ فضَّلَ العَجَمَ [على] العُرْب[2]، واعْتاضَ عَنِ النَّبْعِ بالغَرْبِ، وَتَمادى في الإعْرَاضِ واللَّيِّ، وقَدْ تَبيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ، واتَّبَعَ هَوَاهُ، وأَوْقَعَ نَفْسَهُ مِنَ الباطِلِ في مَهْوَاهُ، وبَاضَ الشَّيطانُ في قلبِهِ وفرَّخَ، واسْتعَانَ بِشَيَاطِينِهِ في إغْوائِهِ واسْتَصْرَخَ، فانْقادَ لَهُ انْقِيادَ البَعِيْرِ المَخْزُوْمِ[3] وَلَم يَعْرِفْ بَنِي هاشِمٍ مِن بَنِي مَخْزُومٍ، وأَظْهَرَ اللّهُ ما كانَ يَحِيدُ عنْ إعْلانِهِ عَلَى صَفحَاتِ وَجهِهِ وفَلَتاتِ لِسانِهِ، فافْتُضِحَ بَيْنَ جَمٍّ غَفِيْرٍ وَجَمْعٍ لا يُجْمَعُ مِثْلُهُ بالنَّفيرِ[4]، فَعَجِبوا مِن حُمْقِهِ، وأَعْرَضُوا عَن لَمْحِهِ ورَمْقِهِ، وصَارَ بَينَ الناس مُثْلَةً، وأَقْسَمُوا بأَنَّهُمْ لَم يَرَوا في جِهته [مِثْلَهُ] [5]، فَقُلْتُ له: مَن صاحِبُ هذا النَّعْتِ وَالوَصْفِ الَّذِيْ أَسْمَعْتَ؟ فإنَّ النَّفْسَ تَشَوَّقتْ إلَى تَعْيِينِهِ، وَتلفَّتَتْ إلَى إيْضَاحِهِ وَتَبْيِينِهِ، فأفْصِحْ عَمَّنْ تَعْنِي، وَلا تُتْعِبِ الخاطِرَ بِحَدْسِهِ ولا تُعْنِيْ. فقالَ: وهَلْ يَخْفَى باطِلٌ عَلَى ناقِلٍ؟ وَحَقٌّ مَن قدَّرَ الأَوْقاتَ وَالمَواسِمَ، وزَيَّنَ الثُّغُوْرَ بِالمَبَاسِمِ، وخلَقَ ذَوَاتِ الحَوَافِرِ والمَنَاسِمِ، إنَّهُ لَلْمَدْعُوُّ شَاهَ قَاسِم[6]. فَقُلْتُ: إذَنْ لا يدْعَ ولا عَجَبَ، إذا قَضَى لِسِنْخِهِ[7] ما عَلَيهِ وَجَبَ، وَمَن ذا الذي لا يَنْتَصِرُ لأَرُوْمَتِهِ، أَوْ يُدَافِعُ عَن جُرثُوْمَتِهِ، أَوْ يُناضِلُ عَن نَسَبِهِ، أَوْ يُقاتِلُ عَن حَسَبِهِ، وهذا – لَعَمْرِي – شائِعٌ بَيْنَ القَبائِلِ، كَما وقعَ لِتَغْلِبَ ووَائِلَ، وَلَقَدْ شُنَّتْ عَلَى مِثلِ ذلِكَ غَاراتٌ، وطُلِبَتْ به دُخُولٌ وثَاراتٌ، وقُطِّعَتْ رُؤوسٌ، وَفَنِيَتْ نُفوسٌ، وتَعاظَمَتْ خُطوبٌ، وتَفاقَمَتْ / كُرُوبٌ، [٢٠/أ] فقالَ: صَدَقْتَ فِيمَا بِهِ نَطَقْتَ، غَيْرَ أنَّ ذلِكَ كانَ بينَ قَبائِلِ العَرَبِ وشُعُوبِها، عَلَى اخْتِلافِ أَنْواعِها وَضُرُوبِها، وَأَمَّا أنْ يُفَاضَلَ بَيْنَ العَجَمِ والعُرْبِ، أو يُقْرَعَ النَّبعُ بالغَرْبِ، فلا كَيْدَ ولا

---

(١) في الأصل: غير عجاب. والمثبت هو الصواب.

(٢) في الأصل: العجم والعرب. والمثبت هو الصواب.

(٣) خزمَ البعيرَ: ثقب أنفه وجعل في جانب منخره الخزامة، وهي حلقة من الشعر توضع في ثقب أنف البعير يشد بها الزمام. اللسان (خزم).

(٤) في الأصل: بالنقير. والمثبت هو الراجح عندي، لماءمته للفقرة السابقة. وإن صح المراد "النقير"، فمعناه من (نقرَ ونقَّر) أي: بحث وفتش.

(٥) زيادة يتم بها الكلام.

(٦) هو قاسم بن محمد، العالم الفاضل، المولى شاه قاسم، الشيخ شهاب الدين الحنفي، الشهير بمنلا زاده، أصله من هراة، وكان هو وأبوه واعظَين، وكان مستوطناً بتبريز، ولما دخلها السلطان سليم بن بايزيد أخذه معه إلى بلاد الرم، وعين له كل يوم خمسين درهماً، وكان عالماً فاضلاً، أديباً، بليغاً له حظٌّ من علم التصوف، وخط حسن، ومهارة بالإنشاء، أنشأ تواريخ آل عثمان، فمات قبل إكمالها سنة ثمان أو تسع وثلاثين وتسعمائة. الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، للنجم الغزي: ٣٣٧/١.

(٧) السِّنْخُ: الأصل من كل شيء. اللسان (سنخ).

كرَامَةَ، ولا بلَغَ رَائمُ ذلِكَ مَرامَهُ، وأنَّى وَكَيْفَ، ورَأْسُهُ بيْنَ النَّطْعِ والسَّيْفِ؟ وَمَن تُحدِّثُهُ نفسُهُ بذلِكَ فَمَا هُوَ إلاّ هالِكٌ وابْنُ هالِكٍ، كَيْفَ وَقَدْ وردَ عَمَّنِ الصَّلاةُ عَليهِ مِن أفْضَلِ القُرَبِ: أنَّ اللّهَ اخْتَارَ مِن خَلْقِهِ العَرَبَ[1]، وَكَفى العَرَبَ شَرَفاً وَمَلجأً وذُخْراً أنْ كانَ مِنْهُم خَاتَمُ الأنْبِيَاءِ وخُلاصَةُ الأصْفِياءِ، وسيِّدُ البَشَرِ الَّذِيْ جاءَ بالنُّذُرِ والبِشرِ، صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ، ما عَانَدَ عَنِيْدٌ أوْ سلَّمَ، فهَلْ بَعْدَ هذا مَقَال، إلاَّ مِمَّنْ يَحتَاجُ إلَى الشَّدِّ والاعْتِقال، وقَدْ قالَ الزَّمَخْشَرِيُّ الإمَامُ، ونَاهِيْكَ مِن حَبْرٍ هُمامٍ: فَضْلُ العَرَبِ عَلَى العَجَمِ كفَضْلِ الزَّبِيبِ عَلَى العَجَمِ[2]، وقالَ الصَّاحِبُ بنُ عَبَّادٍ، وهُوَ رئيسُ المَشْرِقِ الَّذِيْ لا يُفَضَّلُ عَلَيْهِ: لا تَجِدُ رَجُلاً يُفَضِّلُ العَجَمَ عَلَى العَرَبِ إلاَّ وفِيْهِ عِرْقٌ مِنَ المَجُوْسِيَّةِ يَرْجِعُ إلَيْهِ[3]. وَلَيْتَ هذا الَّذِيْ شَمَخَ بأنْفِهِ ولَمْ يَخْتَصِرْ مِن تكَبُّرِهِ وجَنَفِهِ[4] اقتَصَرَ عَلَى المُفاضَلَةِ ولَمْ يُبْرِزْ نفْسَهُ لِلمُناضَلَةِ، بلْ عثرَ بِلِسانِهِ عَثْرَةً لا تُقالُ، ولا يُنْجِيْهِ مِنْها مَقَالٌ، أوْقَعَهُ فيهَا تَزَايُدُ تِيهِهِ وكِبْرِهِ، وما يُرِيدُهُ اللّهُ سُبحانَهُ مِن إظْهارِ خَبَايا خَبائثِ خُبْرِهِ. فقلتُ: وما الَّذِيْ بِهِ تَفَوَّهَ حتَّى صرْتَ منهُ تَتَأَوَّهُ؟ قالَ: هيَ كلِمَةٌ لا تَخُصُّ أحَداً عَلَى الانْفِرادِ، ولا تَتَنَاوَلُ بَعْضَ الأفْرادِ، تَقْشَعِرُّ مِن سَمَاعِها الأبْدَانُ، وَيَنْفِرُ مِنْها طَبْعُ كُلِّ قاصٍ وَدَانٍ، وَتَأْبَاهَا نُفُوسُ العُلَماءِ، وَتُنْكِرُها عُقُولُ الحُكَمَاءِ، وَلا تُصْغِي لَها الأسْمَاعُ، إذْ كانَتْ مِن خَرْقِ الإجْمَاعِ، وَمِمَّا لا تَقْبَلُهُ الطِّبَاعُ وَلا تتَطَاوَلُ إليهِ الأطْمَاعُ، وتُوقِعُ قَائلَها في الكُفْرِ، ولا يُقْبَلُ منهُ في الافْتِداءِ بِيْضٌ ولا صُفْرٌ. فقلتُ: لِمَ لا تُصَرِّحُ بِها ولا تُكَنِّي، وتُرِيحُ القَلْبَ مِنَ التَّعَنِّي؟ فقَدْ تَشَوَّقَتِ النَّفْسُ لِمَعرفَتِها وتَشَوَّفَتْ، وتطاولَتْ لِلإحاطَةِ بِها واستَشرَفَتْ، فَعَدِّ عَنِ الكِنايَةِ

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم). المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تلعليقات الذهبي في التلخيص: ٤/٨٣. قال الهيتمي في مبلغ الأرب: حديث سنده لا بأس به، وإن تكلم الجمهور في غير واحد من رواته. وقد أورد الألباني هذا الحديث في سلسلة الأحاديث الضعيفة، حيث ضعف بعض صيغه، وقال: ومما ينبغي أن يعلم أن القطعة الأخيرة من الحديث المتضمنة فضل العرب وفضل الرسول صلى الله عليه وسلم ثابتة في أحاديث صحيحة، وانظر سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني: ١/٥١٢.

(٢) قال الزمخشري: فرقك بين الرُّطب والعجم، فرق ما بين العرب والعجم. والعَجَم هنا هو العُجَام: نوَى كل شيء كالزبيب والرُّمَّان والبلح. (المعجم الوسيط: عجم).

(٣) ورد هذا القول في معاهد التنصيص عَلَى شواهد التلخيص ١/٤٠١، من قصة آخرُها: "... قال: فلما أجبته بهذه الأبيات نظر الصاحب بن عباد إلَى الرجل فقال: كيف ترى؟ فقال: لو سمعت به ما صدقت، قال: فإذا جائزتك إن وجدتك بعدها في مملكتي أمرت بضرب عنقك، ثم قال: لا ترون رجلاً يفضّل العجم عَلَى العرب إلاّ وفيه عرقٌ من المجوسية يرجع إليها". كما ورد في بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي: ١/١٤.

(٤) الجَنَفُ: المَيْلُ والجَوْرُ. اللسان (جنف).

إِلَى الصَّرِيحِ، واعْدِلْ بِي عنِ الرَّغوَةِ إِلَى الصَّرِيحِ، واشْرَحْ ما وقعَ بِنَصِّهِ، وانقُلِ الحَدِيثَ بِفَصِّهِ، فَرُبَّما تَستَعظِمُ قَلِيلاً، وتَستَسمِنُ هَزِيلاً. فتأوَّهَ وتَوَجَّعَ، وحَوْقَلَ واستَرْجَعَ، وقال: أتظُنُّ أنِّي أنْفُخُ في غَيْرِ ضَرَمٍ؟ أوْ أستَسمِنُ ذا وَرَمٍ[1]؟ كلاّ واللهِ، بلْ هِيَ كَلِمةٌ قائلُهَا بِها مَأخُوذٌ، وفي الجَحِيمِ مَنبُوذٌ. سأقُصُّ عليْكَ القَصَصَ، ولا أدَعُكَ تَتَجرَّعُ الغُصَصَ، وأسُوقُ لكَ الخَبَرَ مِن ابتدائِهِ، لتَعرِفَ كُنْهَ ظُلْمِهِ واعتدائِهِ، وهُوَ أنَّهُ أتَى بيتاً مِن بُيوتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِسُرعةٍ وعَجَلٍ وقَد غَصَّ بأهْلِهِ، وجَلسَ كُلُّ واحِدٍ في مَحَلِّهِ، فتَخطَّى رِقَابَ الجَمْعِ، وقَدْ غَطَّى كِبْرُهُ عَلَى البَصَرِ مِنْهُ والسَّمْعِ، وأقْدَمَ بعَقْلِهِ السَّخِيفِ عَلَى رَجُلٍ شَرِيفٍ، وطلَبَ مِنْهُ أنْ يُجلِسَهُ مكانَهُ، قاصِداً انتِقاصَهُ وامْتِهانَهُ، فتَأبَّى عَلَيهِ، ولَم يَلْتَفِتْ إلَيهِ، وَعَرَّفَهُ ما وردَ فِيهِ مِنَ النَّهْيِ وأنَّ عَقْلَ مَن يَقْصِدُهُ في غايةِ الوَهَنِ وَالوَهْيِ، وأنَّ النَّهْيَ فيهِ للتَّحْرِيمِ لا للتَّنْزِيهِ، يَدرِي كُلُّ نَبِيلٍ نَبِيهٍ، فلَمْ يُجِبْ إلاّ بِبَذاءةٍ وقَذَعٍ، ولسَعَ بِحُمَّةٍ لِسانِهِ ولَذَعَ، وأرْخَى عِنانَ اللِّسانِ في حَقِّ ذلِكَ الإنْسَانِ، ثُمَّ انتقَلَ مِنْهُ إلَى الدَّاهِيَةِ الدَّهْيَاءِ، والمُصِيبَةِ العَمْيَاءِ، وفاقِرَةِ الظَّهْرِ، وجالِبَةِ الغَبْنِ والقَهرِ، والمُرْدِيَةِ في هَوِيَّةِ التَّبَابِ[2] لِمَا اشتَمَلتْ عليهِ مِن الفُحشِ والسِّبَابِ، بأنْ قالَ بأَلْفَاظٍ شَنِيعَةٍ: إنَّ طائفَةَ العَرَبِ نَجِسَةُ الطَّبِيعةِ، فَشَمَلَ هذا اللَّفْظُ كُلَّ عَربيٍّ وكُلَّ وَلِيٍّ مِنْهُم ونَبِيٍّ، وقَدْ أفادَ العُلَمَاءُ بِمَواقِعِ الأَلْفَاظِ، والَّذِينَ هُم لِوِرَاثَةِ العِلْمِ النَّبَوِيِّ حُرَّاسٌ وَحُفَّاظٌ، وأنَّ اللَّفْظَ لِكُلِّ عَرَبِيٍّ شامِلٌ، وقَد صَرَّحَ بِهِ مَن لا يُحَابِي في الشَّرِيعَةِ وَلا يُجَامِلُ، فمَا الظَّنُّ بِخَاطِرٍ يَصْدُرُ عنهُ مِثلُ هذا الكلامِ وَلا يَحْجُبُهُ عَنه فِطْرَةُ الإسْلامِ؟ وهَل يَبْدُو ذلِكَ إلاَّ مِن قَلبٍ دَرِبٍ[3] عَلَى بُغْضِ العَرَبِ، وما كُنْتُ إخَالُ أنَّ الحُقُوقَ القَدِيمَةَ تُمْطِرُ لَها مِن القُلُوبِ السَّلِيمَةِ دِيمَةً. فقالَ: حيثُ وَصَفْتَ القُلُوبَ بِالسَّلامَةِ، ووَسَمْتَها بِهذِهِ العَلامَةِ، / فمَن صَدَرَ عنهُ هذا القَوْلُ عَدِمَ القُوَّةَ والحَوْلَ، [٢٠/ب] خارِجٌ عنْ هذِهِ السِّمَةِ، غَيْرُ مُبرَأٍ مِن التُّهْمَةِ، غارِقٌ في بِحَارِ الوَبَالِ مَغْمُوسٌ في طِينَةِ الخَبَالِ[4]، وجُرْحُهُ جُبَارٌ[5]، واللهُ مِن ورائِهِ جَبَّارٌ، يُمْهِلُهُ ولا يُهمِلُهُ ويُقاصِصُهُ بِما يَقْتَرِفُهُ ويَعْمَلُهُ، والرأيُ أن نَكُفَّ غَرْبَ اللِّسانِ عنْ هذا الَّذِيْ هُوَ في صُوْرَةِ إنسَانٍ، وَنَكِلَهُ إلَى عَوائِرِ الجُدُودِ

---

(١) هذا من الأمثال السائرة كما جاء في خزانة الأدب وغاية الأرب، خزانة الأدب وغاية الأرب، لأبي بكر علي بن محمد بن حجة الحموي، دار مكتبة الهلال للنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م، ١/٢١٤.

(٢) الهوية: البئر البعيدة القعر. والتَّبابُ: الخُسْرانُ والهَلاكُ. اللسان (تبب).

(٣) دربَ: اعتاد الشيء وأولع به.

(٤) طينة الخَبَال عُصارة أهل النار، والخَبَال في الأصل: الفساد، ويكون في الأفعال والأبدان والعقول، وطينة الخَبَال: ما سالَ من جلود أهل النار. اللسان (خبل).

(٥) الجُبَار: الهدَر، وهو ما لا قصاص فيه ولا غرم، يقال: ذهب دمه جُباراً، وحربٌ جبار: لا دية فيها ولا قصاص. اللسان (جبر).

وبُلوغِهِ الوَقتَ المَحْدُودَ، وَقد قُلتُ قَدِيماً فِيمَنْ لَم أقدِرْ أنْ أعْرُكَ لهُ أديماً[1]:

إذا مَا تَصَدَّى ظَالِمٌ لِلأذَى فَكُنْ ... عَلَى مَا تَبدَّى مِنْهُ أصْبَرَ صَابِرِ
وَدَعْهُ وَمَا يَلْقَاهُ مِن شُؤْمِ بَغْيِهِ ... وَكِلْهُ إِلَى فِعْلِ الجُدُودِ العَوَاثِرِ

وإلاَّ فإنَّ الإنصافَ مِن صاحِبِ هذِهِ الأوْصافِ عَزِيزُ الوُجُودِ، وَلا تَجِدُ مَن بِهِ يَجُودُ، فَرُضْ نَفْسَكَ عَلَى الصَّبرِ المُرِّ إِلَى أنْ تَمْضِيَ أيَّامُ مُهلَتِهِ وتَمُرَّ، فَحَرَكاتُ الأفْلاكِ ما دامَتْ مُنْتَظِمةَ الأسْلاكِ لا تَبْقى مَعَها الشُّؤونَ عَلَى حالٍ، ولا يَدُومُ بِها خِصْبٌ ولا إمْحالٌ، فالعَاقِلُ مَن يَكِلُ الأُمُورَ إِلَى ما تَجْرِي بِهِ الأقْدَارُ وَيَدُورُ بوُقُوعِهِ الفَلَكُ المُدَارُ. فقالَ: إنَّ هذا الرَّأيَ حَسَنٌ، ولَيْسَ مِنْهُ لا أجْوَدُ ولا أحْسَنُ، غَيْرَ أنِّي تَنَفَّسْتُ بأبياتٍ، حَالِيَةِ الشِّيَاتِ، أجْعَلُها لأوْصافِهِ خاتِمَةً، وأدَعُ أعْباءَهَا عَلَيهِ مَدَى الدَّهْرِ جاثِمَةً، فَاسْمَعْها مِنِّي واروِها عَنِّي[2]. فقلتُ: هاتِ يا أخَا التُّرَّهاتِ[3]، فأنْشَدَ هذِهِ الأبْياتَ[4]:

شَابَ وَجَهْلُ الشَّبابِ فِيهِ ... يُعْرِبُ عَن ذاكَ لَفْظُ فِيهِ
شَيخٌ حَمَاقاتُهُ تُنَادِي ... بأنَّهُ فَاقِدُ الشَّبِيهِ
وَا عَجَباً لِلزَّمَانِ يُبْدِي ... سَخَافَةَ العَقْلِ مِن بَنِيهِ
أمَا دَرَى أنَّ الابْنَ يُعْزَى ... فِي كُلِّ حالٍ إِلَى أبِيهِ
صَبْراً أخَا النَّائِبَاتِ صَبْراً ... عَلَى أذَى طَعْمِهَا الكَرِيهِ
وَكُن حَلِيماً إذا اللَّيَالِي ... جَهِلْنَ قَدْرَ الفَتَى النَّبِيهِ
واغْضِ إذا مَا بَدَتْ سَفَاهاً ... تَرْفَعُ قَدْرَ الغَبِيِّ السَّفِيهِ
فَكُلُّ أمْرٍ لَهُ انْقِضَاءٌ ... بِمَا المَقَادِيرُ تَقْتَضِيهِ
لَم يَبْقَ حَالٌ عَلَى شِفَاءٍ ... وَلا نَعِيمٌ يَدُومُ فِيهِ
تَدُورُ الأفْلاكُ بِانْقِيادٍ ... لِقَادِرٍ جَلَّ عَن شَبِيهِ
فَدَورُها كُلَّ لَمْحِ طَرْفٍ ... يُبِيدُ أمْراً وَيَبْتَدِيهِ
وَاهاً لِمَن غَرَّهُ زَمَانٌ ... بِزُخْرُفٍ ظَلَّ يَجْتَلِيهِ
يَظُنُّ مِن نَفْسِهِ كَمَالاً ... وَالنَّقْصُ مَا زَالَ يَعْتَرِيهِ
فَآفَةُ العُجْبِ تَنْتَحِي مَن ... بِهِ تَحَلَّى، وَتَزْدَرِيهِ

وَدَارَةَ القَولِ واسِعَةُ المَجَالِ، معَ التَّفَكُّرِ والارْتِجالِ، ومَاذَا عَسَى تُغْنِي نَفْثَةُ المَصْدُورِ إذا لَم يُسَاعِدْهَا المَقْدُورُ، عَلَى أنَّنِي أسْتَغفِرُ اللهَ سُبحانَهُ مِمَّا في ذلِكَ نَثَرْتُ وَنَظَمْتُ، وَوَشَّيْتُ بِهِ

---

(١) من البحر الطويل.

(٢) في الأصل: وأوردوها. وقد أثبت ما رأيته صواباً.

(٣) التُّرّهات: الأباطيل، واحدتها: تُرَّهة. اللسان (تره).

(٤) من مخلع البسيط.

بَيَاضَ الطُّرُوسِ وَرَقَمْتُ، وَاللهُ يغْفِرُ لِي ولَهُ، وَيَمْحُوْ زَلَلِي وَزَلَلَهُ بِكَرَمِهِ وَمَنِّهِ.

المَقَامَةُ العاشِرَةُ:

حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِن أَعْيانِ البَصْرَةِ قدْ حَبَاهُ اللهُ تَوْفِيقَهُ وَنَصْرَهُ، وَجَمَّلَ بِهِ وَقْتَهُ وعَصْرَهُ، وكانَ حَسَنَ الأَخْلاقِ آثِيرَ الخَلاقِ[1]، مُطِيعاً لِلمَلِكِ الخَلَّاقِ، لا تُعْرَفُ لَهُ صَبْوَةٌ وَلا تُعَدُّ لهُ هَفْوَةٌ ولا يُؤْثَرُ عَلَيهِ كَبْوَةٌ، يأخُذُ بِيَدِ المَظْلُومِ ويَأْسُو بِمَراهِمِ جُودِهِ المَكْلُومَ، سَواءٌ في ذلِكَ المَجهُولُ عندَهُ والمَعْلُومُ، فَهُوَ في أُفُقِ ذلِكَ القُطْرِ شَمْسُهُ وَبَدْرُهُ، وَياقُوتُهُ النَّفِيسُ وَدُرُّهُ، وَكُلُّ مَن يَعْرِفُهُ يقولُ للهِ دَرُّهُ، وكانَ قَد دَارَتِ الأَفْلاكُ / بِسَعْدِهِ، وَآنْجَزَ لَهُ الدَّهْرُ صادِقَ وَعْدِهِ، ورُزِقَ [ا/٢١] حُسنَ الثَّناءِ في قُرْبِهِ وَبُعْدِهِ.

شِعرٌ[2]:

وَإذا الحَـظُّ تَعـالَى وَسَـمَا	جَبْهَـةَ المَحظُـوظِ سَـعْداً وَسَـمَا
وَإذا قَطَّـبَ دَهْـرٌ لامْـرِئٍ	لا يُـرَى المَحْظُـوظُ إلاَّ بَـسَمَا
قِـسَمٌ بَـيْنَ البَرَايَـا بَـرَزَتْ	وَلَهـا اللهُ تعـالَى قَـسَمَا
لا تَـرَى حَظّـا كحَـظٍّ أَبَـداً	وَلَـئِنْ كـانُوا تَـسَاوَوْا نَـسَمَا
وَاحِـدٌ يَـسْأَمُ مِـن وَفْـرِ اللُّهَـى	وَفَقِيـرٌ يَتَمَنَّـى دَسَـمَا
وَعَلِيـلٌ ظَـلَّ فـي أَدْوائِـهِ	وَصَـحِيحٌ عِنْـدَ ذاكَ انْحَـسَمَا
حِكَـمٌ أَحْكَمَهـا بَارِئُهَـا	وَنُفُـوذُ الحُكْـمِ فِيهـا ارْتَـسَمَا

وكانَ مِن قَضاءِ اللهِ المَحْتُومِ، وسِرِّ غَيْبِهِ المَكْتُومِ، أنْ قَوَّى في عَقْلِهِ الرَّصِينِ السَّفَرَ إلَى الهِندِ أوِ الصِّينِ، لِنُفُوذِ الأَقْدَارِ، وما يَجْرِي بِهِ الفَلَكُ المُدَارُ، فَشَحَنَ الفُلْكَ بِأَنْوَاعِ التِّجارَةِ، وفَارَقَ وَطَنَهُ وَجِوَارَهُ، وركِبَ ثَبَجَ البَحْرِ الزَّخَّارِ، بَعْدَ أنِ استَجازَ[3] واستَخَارَ، واستَمَرَّ بِهِ السَّيرُ والرِّيْحُ رُخَاءٌ، والوَقْتُ رَخَاءٌ، والأَمْواجُ تَحمِلُ الفُلْكَ وتَضَعُهُ، والهَوَاءُ يَخْفِضُهُ ويَرفَعُهُ، إلَى أنْ قَرُبُوا مِن بَرِّ مُدُنِ الهِندِ المَعْهُودَةِ، وأجلِّ أقَالِيمِهِ المَشْهُودَةِ، فَهَاجَتْ رِيحٌ أقْلَقَتْ[4] وَرَوَّعَتْ، وَاشْتَدَّتْ ودَامَتْ فأزْعَجَتْ وأفْزَعَتْ، وجَاءهمُ المَوجُ مِن كُلِّ مَكانٍ، وخَرَجَ الصَّبْرُ عن حَدِّ الإمْكَانِ، وهَمَى الغَمَامُ، واستُشْعِرَ الحِمَامُ، فلَمْ يَكُنْ إلاَّ كَغَمْضِ الأَجْفانِ، أوْ سَلِّ السُّيُوفِ مِنَ الأَجْفانِ، حتَّى ألْجَمَهُ الغَرَقُ، وَعمَّ الفَرَقُ تِلْكَ الفِرَقَ، فَرَكِبَ مَن نَجَا مِنهُم ألْوَاحَ السَّفِينَةِ،

---

(١) الخَلاق: الحظ والنصيب.

(٢) من البحر الرمَل.

(٣) استجاز: طلب الإذن. ويحتمل أن تكون الكلمة "استجار" أي: بالله.

(٤) في الأصل: أقلقلت. وهو خطأ.

وقَصدَ واجهَةَ المَدِيْنَةِ، وكَانُوا بِمَقْرُبَةٍ مِنَ السَّاحِلِ فَطَلَعُوا إِلَيْهِ حُفَاةً عُرَاةً، وكُلٌّ مَشْغُولٌ بِما دَهَاهُ وعَرَاهُ، وَطَلَعَ صاحِبُ السَّفِينَةِ فَقِيراً، لا يَملِكُ فَتِيلاً ولا نَقِيراً، ومَعَهُ مِن خَدَمِهِ مَن كُتِبَتْ لَهُ السَّلامَةُ، وقَدْ نَشَرَ الإدْبَارُ علَيهِمْ أعْلامَهُ، فَدخلَ المدِينَةِ مَدْهُوشاً مَذْهُولاً، وكانَ[1] قدْ عَايَنَ مَرْأًى فَظِيعاً وأمْراً مَهُوْلاً، وقالَ في المَعْنَى[2]:

حَيْرانُ لا يَدْرِي لِفَرْطِ ذُهولِهِ ... أَلمَغْرِبٍ أمْ مَشْرِقٍ يَتَوَجَّهُ

فَأَخَذَ يَتَخَلَّلُ سِكَكَ المَدِينَةِ، وَيَتَعجَّبُ مِن مَحَاسِنِها المُسْتَبِينَةِ، وَوُضُوحِ قِدَمِها، ورَسُوخِ قَدَمِها، وَبَهْجَتِها وانفِراجِها، وَسُمُوِّ قُلَلِها وأبْراجِها، وَرَوْنَقِ رِيَاضِها، وَتَذَلُّلِ الهُمُومِ لِفُرَجِها وارْتِيَاضِها، واتِّساعِ جَنَباتِها وأفنائِها، وكَمَالِها في البِلادِ البَحْرِيَّةِ وغَنائِها، وَإِيْنَاعِ حَدائِقِهَا المُجددات، وإحْرَامِ حَجِيجِ الأُنْسِ مِن ذلِكَ الميْقَاتِ، فَبَيْنَا هُوَ يَدُورُ في تِلْكَ المَحَالِّ، وَقَدِ استعَانَ بشَدِيدِ المِحَالِ، وَيُفَكِّرُ في ذلِكَ الحالِ، وكيفَ تغيَّرَ واسْتَحَالَ، مَرَّ بِدارٍ وَاسِعَةِ الفِنَاءِ، عَالِيَةِ البِنَاءِ، وَعلَى بابِها رَجُلٌ نَبِيلٌ، كَبِيرٌ جَلِيلٌ، لَهُ خَدَمٌ وَأَتْبَاعٌ، تَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ الهِمَّةِ وَطُولِ البَاعِ، فَحِيْنَ وَقَعَ عَلَيهِ بَصَرُهُ لاحَ لَهُ ضُرُّهُ وَحَصْرُهُ، وَعَلِمَ مِن سِيمَاهُ أَنَّهُ مِن بَنِي النَّعِيمِ وإِنْ كان ما بِهِ مِنَ الخَصَاصَةِ قدْ غَمَّ وَعَمَّ، والفِرَاسَةُ الصَّادِقَةُ تَرَى العَشِيْرَةَ والقَبِيلَةَ، وإنِ اشْتَبَهَتْ شُعُوبُ طَرائِقِها، وَالهَيْئَةُ النَّبِيلَةُ تُومِئُ إِلَى شرَفِ العَشِيرَةِ والقَبِيلَةِ، وَلا تُغَيِّرُها اسْتِحالَةُ حالٍ وَلا جَدْبٌ وَإِمْحَالٌ، فقَامَ إِلَيْهِ مُستَقبِلاً، وَعانَقَهُ مُقْبِلاً، وَأَجلَسَهُ مُكَرَّماً، ومُبَجِّلاً مُحْتَرِماً، وَسَأَلَهُ عَن هذهِ الحَالَةِ وَمَا الَّذِيْ صَيَّرَها إِلَى الاسْتِحالَةِ، فَقَصَّ عَلَيهِ القَصَصَ وَمَا تَجَرَّعَهُ مِن الغُصَصِ، فَتَأَلَّمَ لَهُ وتَوَجَّعَ، وحَوْقَلَ واسْتَرجَعَ، وأَخَذَ يُسَلِّيهِ في مُصابِهِ، ويُوَاسِيهِ بِمَن شارَكَهُ – قَبْلُ – فِي مِثْلِ أَوْصابِهِ، ولِسَانُ حالِهِ يُنْشِدُ فِي أَهْوالِهِ[3]:

قَـالَ خَلِـيٌّ لِـشَجِيٍّ: اصْـطَبِرْ
عَلَـى شُـجُونٍ مُرُّهـا فَـوْقَ الـصَّبِرْ
وَأَمِـنْ بِمَـنْ لاقَتْـهُ قَبْـلُ وَاعْتَبِـرْ
وَاسْـبُرْ بِهـا عَقْـلَ الرِّجَـالِ، واخْتَبِـرْ
/ فَقَـالَ فِـي الجَـوَابِ قَـولَ مُعْتَبِـرْ: [٢١/ب]
مَا حَالُ مَن عَاشَ كَحَالِ مَنْ قُبِرْ؟
هَـانَ عَلَـى الأَمْلَسِ مـا لاقَـى الـدَّبِرْ[4]

---

(١) في الأصل: وقال، وهو خطأ.

(٢) من البحر الكامل.

(٣) من مشطور الرجز.

(٤) هانَ على الأملَسِ ما لاقى الدَّبِر: مثَلٌ يضرب في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه. مجمع الأمثال: ٣/ ٤٧٩.

ثُمّ قالَ لهُ: لقَدْ ساقَتْكَ الأَقْدَارُ إِلَى هذِهِ الدَّارِ، لِحِكَمٍ لا يَظْهَرُ أَثَرُهَا إلاَّ في أَوَانِهِ، وَلا يُعلَمُ خَبَرُها إلاّ في مَجِيءِ زمَانِهِ، والطَّبِيْبُ الحاذِقُ مِنَ النَّبْضِ يَعْرِفُ المرَضَ، ويفرّقُ بَيْنَ الجَوْهَرِ والعَرَضِ، فَسلِّمِ الأُمُورَ إِلَى مُقَدِّرِها، ومُحْكِمِها ومُدَبِّرِها، فلَسْتَ تَدْرِي مَا تدُورُ بِهِ الأَفْلاكُ، مِن إِقْبَالِ السَّعادَةِ وإِدْبَارِ الإِفْلاكِ[1]، فاسْكُنْ إِلَى أنْ يَتَحَرَّكَ السَّعْدُ وَيُنْجِزَ لكَ اللّهُ ما سبَقَ بِهِ الوَعْدُ، وأنْتَ مُحَكَّمٌ في هذِهِ الدَّارِ بِما حاك في نَفْسِكَ ودَارَ، مِن دَقِيقِ الأُمُورِ وَجَلِيلِها، وَكَثِيرِها وقَلِيلِها، لا تَرَى لِعَيْشِكَ مُكَدِّراً، وَلا لِمَا تَشْتَهِيهِ مُقَتِّراً ولاَ مُقَدِّراً، وقَدْرُ أَنَّكَ تَبَدَّلْتَ بِدارِكَ وَأَهْلِكَ داراً وَأَهْلاً، واللّهُ يَجْعَلُ ما أنتَ فيهِ منَ الحَزْنِ سَهْلاً، واعلَمْ أنَّ مِحْنَتَكَ ما دَامَتْ فَجَّةٌ لا تَجِدُ مِن عِقالِها فُرْجَةً، وَإِذا حانَ نجْزانها[2]، وانْطَفَتْ نِيرانُها، آذَنَتِ الكُرُوبُ بالانْفِراجِ، وتَفَتَّحَتِ السُّبُلُ والفِجَاجُ. ونَاوَلَهُ كِيْساً مُتْرَعاً بِالنَّقْدِ، وقالَ لَهُ: قَدْ أَمِنْتَ الفقرَ والفَقْدَ. وأَفْرَدَ لهُ داراً مُتَّصِلَةً بِدارِهِ، وَأَرَاهُ صُورَةَ تَمكُّنِهِ مِنْ فِعلِ الجَمِيلِ واقتِدارِهِ، فَشَكَرَ لهُ ذلِكَ الصَّنِيعَ، وأَوَى إِلَى جَنَابِهِ المَنِيعِ، وكانَ هذا الرَّجُلُ صَاحِبَ دَوْلَةٍ في ذلِكَ القُطْرِ وسَعَادَةٍ، وقَدْ أَمِنَ إِبْراقَ الدَّهْرِ وإِرعَادَهُ، فعاشَ في كَنَفِهِ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ لا يَجِدُ مسَّ كَرْبٍ ولا قهْرٍ، غَيْرَ أنَّ عِندَهُ تَشَوُّقاً إِلَى الوَطَنِ، وتَشَوُّفاً إِلَى العَطَنِ، ويَنْظُرُ أَحْوالَهُ إِلَى ما وصَلَتْ، وكَيْفَ فارَقَتْهُ نِعْمَتُهُ وانْفَصَلَتْ، فَتَرَدَّدُ زَفَرَاتٍ، ويَتَزَايَدُ حَسَرَاتٍ، وَيَئِنُّ أَنِينَ الثَّكْلَى، وَلا يَستَطِيبُ شُرْباً ولا أَكْلاً[3] وقَدْ وقَعَ فِيما يُذهِلُ العُقُولَ، ولِسانُ حالِهِ يَقُولُ[4]:

طَالَ نَأْيِي عَنِ الدِّيَارِ وبُعْدِي ... واشْتِياقِي إِلَى سُعَادٍ وَدَعْدِ
لَسْتُ أَدْرِي أَحْوالَ أَهْلِي وما جَا ... ءَتْ إِلَيْهِمْ بِهِ الحَوَادِثُ بَعْدِي
وَبِقَلْبِي تَوارَدَتْ[5] حَسَرَاتٌ ... لَسْتُ أَقْوَى لَها بِحَصْرٍ وَعَدِّ
واسْتَهَلَّتْ سَحَائِبُ الكربِ نَحْوِي ... بِهُمُومٍ تَهْمِي بِبَرقٍ وَرَعْدِ
كِدْتُ أَقْضِي لَوْلا تَدارَكَنِي اللّهُ ... بِشَهْمٍ يَدْعُونَهُ مِن مَعَدِّ
مُفْرَدٍ بالكَمَالِ طَلْقِ المُحَيَّا ... سَبِطِ الكَفِّ بالنَّدَى غَيْرِ جَعْدِ
راشَنِي بَعْدَما بَرَتْنِي اللَّيَالِي ... وَحَمَانِي مِنَ النُّحُوسِ بِسَعْدِ
رَبِّ جَازِهْ عَنِّي بِخَيرٍ، وَأَنْجِزْ ... بِرُجُوعِي إِلَى الأَحِبَّةِ وَعْدِي

---

(١) في الأصل: الفلك. وهو خطأ. أثبتُّ ما رأيته صواباً. وقد سبق شرح الفلاكة والإفلاك.

(٢) في الأصل: نجرانها. ولعل المثبت هو الصواب، من نجز الشيءُ نَجْزاً: تمّ وقضي.

(٣) في الأصل: "أكلاً ولا شرباً"، والمنهج الّذِي سار عليه المؤلف يقتضي سياقُه: "ولا يستطيب شرباً ولا أكلاً" ليتوافق مع جرس جملة: وئن أنين الثكلى.

(٤) من البحر الخفيف.

(٥) في الأصل: توارت. والصواب ما أثبته لموافقته للوزن.

وَبَيْنا هُوَ ذاتَ يومٍ وَقَدْ ضاقَتْ حَضِيرَتُهُ مِنَ الأَلْبابِ، وتقَطَّعَتْ بِهِ الأَسْبَابُ، وأيِسَ مِنِ انْفِراجَةِ الكُربَةِ والخُلُوصِ مِن شَرَكِ هذِهِ الغُربَةِ، إذْ دَخَلَ عَلَيهِ صاحِبُ الدَّارِ، ورَأى ما في وَجْهِهِ مِن شُحُوبِ الأَكْدَارِ، فَقالَ لهُ: وقَعَ في نَفْسِي أنْ نَسِيرَ جَمِيعاً إِلَى السَّاحِلِ، ونَنْظُرَ إِلَى صُنْعِ اللهِ في المُخْصِبِ مِن رِياضِهِ والمَاحِلِ، فلَعَلَّ وعَسَى أنْ يَلِينَ مِن قَلْبِكَ ما عَسَا، وتَرَى ما يُوْجِبُ ارتِيَاحَكَ، وَيُوقِدُ مِصباحَكَ، ويُطْلِعُ مِن لَيلِ الكَرْبِ صَبَاحَكَ. فَإنَّ رُؤيَةَ البَحْرِ وَالرِّياضِ، والأَدْواحِ والغِيَاضِ، تُحْدِثُ الارتِيَاضَ، وَتُسَهِّلُ عَنِ الأَوطانِ الاعْتِياضَ. فقالَ: لَعَمْرِي لقَدْ صَدَقْتَ فِيما بِهِ نَطَقْتَ وأَتَيْتَ بِمَحْضِ الحَقِّ، الَّذِي هُوَ بالاتِّباعِ أَوْلَى وأَحَقُّ[1]. شعر:

وَلكِنْ بِلا قَلْبٍ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ[2] ... وَلَمْ يَبْقَ لِي فِي كُلِّ مَا رُمْتُ مَذْهَبُ
وَلِي أَدْمُعٌ كالسُّحْبِ يَهْطِلُ وَبْلُهَا ... وَفِي كَبِدِي نَارُ الهَوَى تَتَلَهَّبُ
وقَدْ كُنتُ قَبْلَ اليَوْمِ لا أَخْتَشِي الأَسَى ... ولاَ مِن أَرَاجِيفِ الجَفَا كُنتُ أَرْهَبُ/[٢٢/أ]
وَأَصْبَحْتُ كالمَأْسُورِ تُقِّفَ قَيْدُهُ ... وَمُهْجَتُهُ أَيْدِي الحَوَادِثِ تَنْهَبُ
وأَظْلَمَتِ الدُّنْيا علَيَّ بأَسْرِهَا ... بِحَيْثُ اسْتَوى فِي العَيْنِ صُبحٌ وغَيْهَبُ
وقَدْ كَانَ فَوْدِي أَسْوَدَ اللَّونِ حالِكاً ... فأَمْسَى بأَحْكَامِ النَّوَى وَهْوَ أَشْهَبُ
عَسَى رَحْمَةُ الرَّحْمنِ تَأْتِي بِغَوْثِها ... فأَحْيَا بِما يَمْحُو الشَّقَاءَ وأُوْهَبُ

ثمَّ إنَّهُ أَبْرَمَ عَلَيهِ في المُرافَقَةِ، فلَمْ يَسَعْهُ غَيْرُ المُوافَقَةِ، وعِندَما وصَلَ إِلَى السِّيْفِ، وهوَ في حالَةِ الحَزِينِ الأَسِيفِ، رأى سَفِينةً عَظِيمةً وهيَ مَشْحُونَةٌ بِنِعَمٍ جَسِيمَةٍ، وبِها عِدٌّ[3] عَدِيدٌ مِن المَمَالِيكِ والعَبِيدِ، وقَدْ رَفَعُوا للسَّفَرِ الشِّرَاعَ، وهُم عَلَى غايَةِ الإِسْراعِ، فتَمَنَّى أنْ يكُونُوا لهُ قَبِيلاً، وأنْ يتَّخِذَ معَهُمْ إِلَى الوَطَنِ سَبِيلاً، فَهُوَ في هذا الفِكْرِ الَّذِي خَطَرَ، ودُمُوعُهُ تتساقَطُ كالمَطَرِ، إذ قال لهُ صاحِبُهُ: هلْ يَحْسُنُ بِالِكَ أنْ تكُونَ لِهؤلاءِ رَفِيقاً، وأنْ يُسَهِّلَ اللهُ لكَ معَهُمْ طَرِيقاً؟ فقالَ: مَن لِي بِذاكَ - جُعِلْتُ فِداكَ -؟ فقالَ: إنَّ اللهَ تعالَى قدْ أذِنَ وَسَهَّلَ، وما كانَ أَحْزَنَه فقَدْ أَسْهَلَ، فإنَّ هذِهِ السَّفِينَةَ وما فِيهَا، مِن قَوَادِمِها إِلَى خَوَافِيها جارِيَةٌ في مُلْكِكَ، مُنْتَظِمةٌ في سِلْكِكَ. وَنَاوَلَهُ دَفْتراً بِما حَوَتْهُ مِن أَمْرِ التِّجارَةِ المُختَلِفَةِ الأَنْوَاعِ والأَجْنَاسِ، النافِقَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وكانَ قدْ سألَهُ عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَيهِ ووُفُودِهِ علَيهِ، عنْ أَمْوَالِهِ الَّتي استَوْلَى عَلَيْهَا الغَرَقُ فأَوْرَثَهُ الحُرَقَ، فذَكَرَها لَهُ مُفصَّلَةً، فأَضْعَفَها لهُ أَضْعَافاً كثِيْرةً بِهذِهِ

---

(١) من البحر الطويل.

(٢) هذا المطلع مضمن من بيت نسب لأكثر من شخص، ومنهم عمرو بن مسعدة الكاتب الرسائلي. انظر: معجم الشعراء ١١/١.

(٣) العِدّ: الكثرة في الشيء.

الصِّلَةِ، وحِيْنَ سَمِعَ مَقالَتَهُ ووَعَاها، وعَلِمَ ما أكْرَمَ بِهِ نَفْسَهُ ورَعَاها، رجَفَ جَنَانُهُ، وجَفَّ عنِ الشُّكْرِ لِسانُهُ، وعَلِمَ أنَّهُ عاجِزٌ عنْ أدَاءِ شُكْرِ أدْنَاهَا، ولَوِ اجْتَهدَ واحْتَشدَ لَما قارَبَ مُجازاةَ أقلِّها ولا دَاناهَا، وقالَ: لا تُكَلِّفْنِي شُكْرَ صَنِيعِكَ فإنِّي لا أسْتَطِيعُهُ، ولَو ذَهَبَ فيهِ عُمْرِيْ جَمِيعُهُ، غَيْرَ أنِّي أكِلُ شُكْرَكَ إلَى مَنْ ألْهَمَكَ فِعلَ الجَمِيلِ، وهُوَ الكَفِيلُ بذلِكَ والحَمِيلُ، وأوْدَعَهُ مغْبُوطاً مَحْبُوراً، وانقلَبَ إلَى أهْلِهِ مَسرُوراً، وكَتَبَ اللّهُ لَهُ بالسَّلامَةِ، ولَم يَرَ في طَرِيقِهِ مَلالَةً ولا مَلامَةً، ووَصَلَ إلَى البَلَدِ، واجْتَمعَ بالأهْلِ والوَلَدِ، وجعَلَ يَقُولُ[1]:

كَأنْ لَمْ يَكُنْ كَرْبٌ ولَم تَكُ غُربةٌ ... ولَمْ يَكُ فَقْدٌ قَدْ عَراهُ ولا فَقْرُ
وعَادَ إلَى ما كانَ فِيهِ مِنَ الغِنَى ... وأوْقَرَ سَمْعَ الشامِتِينَ بِهِ الوَقْرُ
وذَلُّوا بِعِزٍّ قَدْ أتَاهُ ودَولَةٍ ... فكَانُوا بُغاثاً وَهْوَ مِن فَوْقِهِمْ صَقْرُ
بِذَا قَضَتِ الأيَّامُ ما بَيْنَ أهْلِهَا[2] ... فَفَرْدٌ لَهُ نَسْلٌ وفَرْدٌ لَهُ عُقْرُ
ومَا عَظَّمَ الرَّحْمنُ جَلَّ جَلالُهُ ... فلَيسَ لِعَبدٍ فيهِ هَضْمٌ ولا حَقْرُ

ثُمَّ إنَّهُ مَضَى لهُ عَدَدٌ مِنَ السِّنِيْنَ، وَهُوَ مِنَ الوادِعِينَ الآمِنِينَ، وكانَ مِنْ قَضائِهِ المَحْتُومِ وسِرِّ غَيْبِهِ المَكتُومِ، أنَّ صاحِبَ ذلِكَ الصَّنِيعِ كانَ مِن جَلالَتِهِ في حِصْنٍ مَنِيعٍ، وكانَ رَئِيسَ مِصْرِهِ، والمُشارَ إلَيهِ في عَصْرِهِ، فدَارَتِ الأفْلاكُ بِعَكْسِهِ، وجاءَ التَّقْدِيرُ بِخَفْضِهِ ونَكْسِهِ، فانْقلَبَتْ رُخاؤُهُ إعْصَاراً، وارْتَدَّ رَخاؤُهُ شِدَّةً وانْحِصاراً، ولَمْ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ أنْصَاراً، غَضِبَ علَيهِ مَلِكُ قُطْرِهِ، وضَنَّ عَلَيهِ غمَامُ العِنايَةِ بِسَحِّهِ وقَطْرِهِ، فَأحِيطَ[3] بأمْوَالِهِ وذَخَائِرِهِ، وأهْلِهِ وعَشَائِرِهِ، وسُلِبَتْ تلكَ النِّعَمُ الجَسِيمَةُ، وتَغيَّرَتْ تلكَ الهَيْئَاتُ الوَسِيمَةُ، وللدَّهرِ إقْبالٌ وإدْبَارٌ، وللنَّاسِ في ذلِكَ أمْثالٌ وأخْبارٌ، فلا يَدُومُ نَعِيمٌ وَلا بُؤْسٌ، ولا ضَحِكٌ وَلا عُبُوسٌ، فخَرَجَ عن المدِينَةِ خَائِفاً يَترَقَّبُ، ويَظُنُّ أنَّ كُلَّ أحَدٍ لهُ بِمَرْقَبٍ، وَلا زالَ يَتنقَّلُ مِن مَكانٍ إلَى مَكانٍ، وقَدْ خضَعَ لِلحَوادِثِ واسْتَكَانَ، إلَى أنْ دَخلَ البَصْرَةَ، فَأيْقنَ أنَّ اللّهَ تعالَى قَدْ وضَعَ عَنْهُ إصْرَهُ، اعتِماداً / مِنْهُ عَلَى ذلكَ الصَّاحِبِ ومُكَافَأتِهِ، ومُجَازاتِهِ علَى حُسنِ صَنِيعِهِ ومُوَافاتِهِ، فَأخَذَ يَتَخلَّلُ [٢٢/ب]

---

(١) من البحر الطويل.

(٢) الشطر مضمّن من بيت المتنبي:

بِذا قضتِ الأيّامُ ما بيْنَ أهلِها ... مَصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

انظر: ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه وصنع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ٢٧٦/١.

(٣) في الأصل: فاحتبط، أثبتّ ما رأيته أقرب إلى الصواب. ويمكن أن تُقرأ الكلمة "فاختُبط" أي وقعت فيها الفتن ولحقت بها الغارات، وهو معنى بعيد.

الأسْواقَ وهوَ إلَى لِقائِهِ في غَايَةِ الأشْوَاقِ، فَأَوْقَعَ اللّهُ بصَرَهُ عَلَيهِ وَهوَ جَالِسٌ في حَانُوتٍ رَحْبِ الفِنَاءِ، عَالِيْ البِناءِ، مَمْلُوءٍ مِنَ الأمْتِعَةِ الثَّمِينَةِ الّتي هيَ في الدُّنيَا فَخَارٌ وَزِينَةٌ، وفي خِدْمَتِهِ غِلْمانٌ وولْدانٌ، وحَوْلَهُ إخْوَانٌ وأخْدَانٌ، فَتَرَاءَى لَهُ فلَمْ يُعِرْهُ طَرْفاً، وأرَاهُ نُكْراً لا عُرْفاً، فقالَ: لَعَلَّهُ ما حَقَّقَ مَعْرِفَتِي، ولا أثْبَتَ صِفَتِي. فتَراءَى لهُ مِن غَيْرِ ذلِكَ الجانِبِ، وهوَ يَحِيْدُ عَنْهُ وَيُجانِبُ، فقالَ: لَعَلَّ بُعْدَ العَهْدِ بِالائتِلافِ أوْجَبَ هذا الصَّدَّ والإخْلافَ. فَوَقَفَ أمَامَهُ راجِياً ذِمامَهُ، فتشَاغَلَ عَنْهُ بِغَيْرِهِ، وآيَأسَهُ مِن بِرِّهِ وخَيْرِهِ، فَوَلَّى عَنْهُ وَرَجَعَ بَعْدَ أنْ حَوقَلَ واسْتَرْجَعَ، نادِماً عَلَى وَضْعِ الجَمِيلِ في غَيْرِ مَحَلِّهِ، سَادِماً[1] عَلَى إخْصابِهِ رَبْعَ سَعادَتِهِ بَعْدَ مَحْلِهِ، ثُمَّ يقُولُ في نَفْسِهِ: لَعَلَّهُ اشْتَبَهَ عَلَيَّ، وخيَّلَهُ الفِكْرُ الفاسِدُ إلَيَّ. ثُمَّ يَرْجِعُ إلَى حِسِّهِ ويقُولُ: إنَّهُ هُوَ وَإعراضُهُ بعَكْسِ الطالِعِ إلَى خَوافِيْهِ، فَبَيْنَما هُوَ مُفَكِّرٌ فِيمَا وصَلَ إلَيْهِ الحَالُ، وَكَيْفَ تَغيَّرَ حالُهُ واسْتَحالَ، وَدُمُوعُهُ تَساقَطُ تَساقُطَ المَطَرِ، وقَدْ أيِسَ مِن إدراكِ ما أمَّلَ مِن ذلِكَ الوَطَرِ، إذْ دخَلَ المَسْجِدَ امْرَأةٌ ذاتُ هَيْئَةٍ وَسِيمَةٍ تَدُلُّ عَلَى أنَّ وَرَاءَها نِعَماً، فَبدأتْهُ بالسَّلامِ، ثُمَّ قالتْ لهُ بلَطِيفِ الكَلامِ: هلْ تُحْسِنُ قِراءَةَ القُرآنِ؟ قالَ: نَعَمْ وأفُوقُ فِيهَا الأقْرَانَ. فقالَتْ: قُمْ مَعِي إلَى البَيْتِ، ودَعْ قَوْلَ لوٍّ ولَيْتَ، لِتَقْرَأ لَنا ما تَيسَّرَ عَسَى يَذْهَبُ عنَّا مِنَ الكَرْبِ ما تَعسَّرَ، وأنْتَ تَرْبَحُ الأجْرَةَ والأجْرَ، وتَفُوزُ بِنِعْمَ التَّجْرِ. وكانَ الرَّجُلُ قدْ جَوَّدَ القُرْآنَ الكَرِيْمَ، فَهوَ لا يَبْرَحُ عَن مُلازَمَةِ تِلاوَتِهِ ولا يَرِيْمُ، فقامَ مَعَهَا إلَى أنْ وَصَلَتْ إلَى دَارٍ عَالِيةِ البِناءِ، واسِعَةِ الفِنَاءِ، تُؤْذِنُ شَوامِخُ مَبانِيْهَا بِعُلُوٍّ قَدْرِ بَانِيها[2]، ثُمَّ إنَّها غَابَتْ عَنْهُ بِقَدْرِ ما اسْتَأذَنَتْ، ورَجَعَتْ إلَيهِ وبِالدُّخُولِ أذِنَتْ، فَحِينَ دخَلَ رأى داراً ذَاتَ فُرُشٍ وَثِيْرَةٍ ونِعَمٍ كَثِيرَةٍ، وخَدَمٍ وجَوَارٍي[3]، كالكُنَّسِ الجَوَارِي، فَجَلَسَ عَلَى حَافَةِ الإيْوَانِ، وقرأ الصَّحِيفَةَ مِنَ العُنْوانِ، واسْتَفْتَحَ، وقَرأ ما سَنَحَ، وعَرَّفَهُمْ ما فَتَحَ اللّهُ بِهِ عَلَيهِ وَمَنَحَ، فَترجَّبُوا[4] بِهِ وازْدَادُوا في إكْرَامِهِ، وأفْرَطُوا في تَعْظِيمِهِ واحترامِهِ، وخَرَجُوا به إلَى دَارٍ لَطِيفَةٍ مِن جُمْلَةِ تلكَ الدَّارِ، وَهو لا يَشْعُرُ بِما تَأتِي بِهِ الأقْدَارُ، وقَدَّمُوا لَهُ مِنَ المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ مَا تُقْضَى بِهِ وَبِمِثْلِهِ المَآرِبُ، ثُمَّ إنَّ المَرْأةَ عادَتْ ومَعَها ثِيَابٌ أثِيْرَةٌ، وَدَنَانِيْرُ كَثِيرَةٌ وقَالَتْ لَهُ: أنْتَ غَرِيبٌ، وهذِهِ الدَّارُ تَكُونُ لكَ مَسْكَناً إلَى أن يُهيِّئَ اللّهُ لكَ سَكَناً. فشكَرَ نِعْمَتَها، وحَمِدَ رأفَتَها وَرَحْمَتَهَا، وأخذَ يَعْجَبُ مِن لُطفِ اللّهِ في الغُرْبَةِ، وكَيْفَ فَرَّجَ

---

(١) سادماً: مهموماً حزيناً. اللسان (سدم).

(٢) في الأصل: مبانيها. أثبت ما رأيته صواباً.

(٣) هنا خطأ نحوي اضطره إليه السجع.

(٤) رجّبوه: عظموه وهابوه.

عنهُ ما كانَ فيهِ مِنَ الكُرْبَةِ، وسَخَّرَ لَهُ مَن جَبَرَ كَسْرَهُ وَفَكَّ مِن قَيدِ الفَلاكَةِ أَسْرَهُ، وَعَوَّضَهُ عَن ذلِكَ الضَّدِّ[1] بِما لَم يَكُنْ لهُ بِمَرْصَدٍ، ثُمَّ عادَتْ إِلَيْهِ في اليَومِ الثّانِي وقالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي بِنتاً ماتَ أَبُوها وأَكابِرُ النّاسِ قدْ خَطَبُوها، وقَدْ رَأَيْتُ إِيثارَكَ بِها قُرْبَةً أَتَقَرَّبُ بِها إِلَى رَبِّ الأَرْبابِ، وأَنْ تَكُونَ لِي في حُصولِ الرَّحْمَةِ مِن أَعْظَمِ الأَسْبابِ. فقالَ لَها: كيفَ تَرغَبِينَ في ضُلِّ بْنِ ضُلٍّ[2] وَمَنْ لَيسَ معهُ كُثْرٌ ولا قُلٌّ؟ فقالَتْ: لا علَيكَ، ولَيْسَ ذلِكَ إِلَيكَ، هذِهِ أَلْفُ دِينارٍ ادْفَعْها إِلَيْنا بِمَحْضَرٍ مِنَ الشُّهُودِ عَلَى الرَّسمِ المَعْهُودِ، وَيَعْقِدُ لكَ عَلَيها العَقْدَ، وقَدْ بَرِئْتَ مِن المُطالَبَةِ بالنَّقْدِ، ولا تُكَلَّفُ إِنفاقاً، وَلا تَزْدادُ عِندَنا إِلاَّ رَغْبَةً وَنَفاقاً، فَامْتَثَلَ ما بِهِ أَمَرَتْ، وَلاحَ لهُ أَنَّ رِياضَ سَعْدِهِ قدْ أَزْهَرَتْ وأَثْمَرَتْ، ثُمَّ عَمِلُوا لهُ مِن مَفاخِرِ الثِّيابِ ما مَلأَ العِيابَ، واهْتَمُّوا للعُرْسِ بعَمَلِ الوَلائِمِ، وأَتَوا فيهِ بِكُلِّ مُناسِبٍ وَمُلائِمٍ، إِلَى أَنِ انْقَضَى أَمْرُ الزِّفافِ، وحَصَلَ الإِعْفافُ، ثُمَّ قالَتْ لهُ أُمُّ زَوْجَتِهِ أَنَّ لابْنَتِها أَمْوالاً كَثِيرَةً، وبَضائِعَ أَثِيرَةً، وَهِيَ تُعْرَضُ لِلبَيعِ فَلا تَدَعْ مِنْها شَيْئاً يَخْرُجُ عَن مُلْكِكَ بَلِ انْتَظِمْهُ في سِلْكِكَ، وَلَنا الأَصْلُ المُباحُ، ولكَ المَكاسِبُ والأَرْباحُ، والثَّمَنُ لا نَطْلُبُهُ إِلاَّ بَعْدَ النَّفاقِ، بِالتَّأَنِّي والارْتِفاقِ. فازْدادَ تَعَجُّبُهُ مِن لَطِيفِ صُنْعِ اللهِ سُبْحانَهُ، وشَكَرَ / لُطْفَهُ إِذْ ذَهَبَ عَنهُ بلاؤُهُ وامْتِحانُهُ، وغَدَا في اليَومِ المَوْعُودِ لإِنْجازِ تلكَ الوُعُودِ، وَإِذا بِصَنادِيقَ عَدِيدَةٍ، عَتِيقَةٍ وجَدِيدَةٍ، قدْ وُضِعَتْ في سُوقِ المَدِينَةِ وهِيَ مَمْلُوءَةٌ بِالبَضائِعِ الثَّمِينَةِ، فاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيها، وازْدَلَفُوا مِن كُلِّ فَجٍّ إِلَيْها فَفُتِحَتْ تِلكَ الأَغْلاقُ عَن نفائسِ الأَعْلاقِ، وَتَزايَدَ التُّجَّارُ في أَثْمانِها إِلَى انتِهاءِ الرَّغباتِ وانْقِضاءِ الطَّلَباتِ، فاشْتَراها هُوَ بِأَزْيَدَ مِن زِيادَاتِهِمْ، وأَبْطَلَ جَمِيعَ مُرَاداتِهِمْ، فانْفَضُّوا مُتَعَجِّبِينَ، وَبِما صَدَرَ مِنهُ مُعْجَبِينَ، وَعَيَّنُوا لهُ حَوَاصِلَ نُقِلَتْ تِلكَ الأَمْوَالُ إِلَيها، ثُمَّ وَضَعُوا وَثِيقَ الأَقْفالِ علَيْها، وسَلَّمُوهُ مَفاتِيحَ تِلكَ الأَقْفالِ، فكانَتْ لَهُ كالغَنائِمِ والأَنْفالِ، وعَمِلَ دَفْتَراً لذلِكَ المالِ، وحَسَبَهُ بالتَّفْصِيلِ والإِجْمالِ، فإذا هُوَ يَزِيدُ عَلَى ما ذَهَبَ لَهُ مِن أَمْوالِهِ المَنْهُوبَةِ، فَرأَى ذلِكَ نِعَماً مِنَ اللهِ مَوْهُوبَةً، ودَخَلَ إِلَى دارِهِ فَرِحاً مَحْبُوراً مَسْرُوراً مَجْبُوراً، وَعِنْدَما فَرَغَ مِنَ العَشاءِ، وَصَلَّى فَرْضَ العِشاءِ، إِذَا هُوَ بِبابٍ صَغِيرٍ فُتِحَ مِن جانِبِ الدَّارِ، ودَخَلَ مِنْهُ رَجُلٌ جَلِيلُ المِقْدارِ، فَقامَ إِلَيهِ حَرَمُهُ مُتَعَجِّلِينَ، وَهَرْوَلُوا نَحْوَهُ مُعَظِّمِينَ وَمُبَجِّلِينَ، فَحَقَّقَ النَّظَرَ فِيهِ، وَإِذَا بِهِ ضَيْفُهُ الَّذِي أَظْهَرَ لَهُ تَجافِيهِ، فقامَ إِلَيهِ مُقْبِلاً، وعانَقَهُ مُقَبِّلاً، فقالَ لهُ: يا أَخِي إِنِّي لَمْ أُعْرِضْ عَنْكَ حِينَ رَأَيْتُكَ لِجَفْوَةٍ، فَلا تَعُدَّها عَلَيَّ هَفْوَةً، [٢٣/أ]

---

(١) في الأصل: الضد. وهو محتمل، ولكن المثبت هو الأقرب إلى الصواب.

(٢) ضُلُّ بنُ ضُلٍّ: أي مُنْهَمِكٌ في الضَّلال، أو الذي لا يُعْرَف ولا يُعْرَف أبوه. اللسان (ضلل).

وَلكِنِّي ما أحْبَبتُ أنْ أرَاكَ إلاَّ عَلَى حَالَتِكَ المَعْهُودَةِ، وَهَيْئَتِكَ الحَسَنَةِ المَشْهُودَةِ، فَأرْسَلتُ وَرَاكَ مَن عرَفَ مَثْوَاكَ، والمَكانَ الَّذِي آوَاكَ، وَوجَّهْتُ إليكَ الوَالِدَةَ ففعَلَتْ مَا فَعَلَتْ، وقَدِ التَهَبَتْ نارُ أشْوَاقِي إلَيْكَ وَاشْتَعَلَتْ، وَصَبَّرتُ نَفْسِي عنْ لِقائكَ إلَى أنْ عُدتَّ إلَى سُمُوِّكَ وَارْتِقائِكَ، وَهذِهِ الدَّارُ بِمَا فِيهَا، مِن قَوادِمِها إلَى خَوَافِيْها، وَتِلكَ الأمْوَالُ والأعْلاقُ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيها الأغْلاقُ مُلْكٌ لكَ دُوْنَ مُشارِكٍ، وَلا مُنازِعٍ ولا مُعَارِكٍ، وَلا أقُولُ إنِّي وَفَّيْتُ بَعْضَ حُقُوقِكَ، وَلا خَرَجْتُ بِهذَا البِرِّ مِن عُقُوقِكَ، لأنَّكَ ابْتَدأتَ بِالجَمِيلِ، وَكُنتَ الكَفِيلَ لِدَفْعِ ضُرِّي والحَمِيلَ، فأيُّ فِعلٍ لِفِعْلِكَ يُوَازِي؟ وأيُّ جَزَاءٍ لَهُ يُجَازِي؟ وَلكِنِّي آكِلُ جَزَاءَكَ إلَى مَن يَعْلَمُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى وَيَكْشِفُ الضُّرَّ والبَلْوَى. ثُمَّ سألَهُ عَنِ الحالِ، وكَيْفَ تَغيَّرَ واسْتَحالَ، فَأخْبَرَهُ بِأنْبائِهِ وَمَا حَلَّ بِهِ مِن حَوْبائِهِ، فَتَوَجَّعَ وتألَّمَ، وإلَى اللهِ سَلَّمَ، ثُمَّ أقَامَا راتِعَينِ في تِلْكَ النِّعَمِ الجَسِيْمَةِ والخَيْرَاتِ الوَسِيْمَةِ، إلَى أنْ أتَاهُما هاذِمُ اللَّذَاتِ[1] والمُفرِّقُ بَيْنَ الرُّوحِ والذَّاتِ، فَلَمْ يُسْمَعْ بأعجبَ مِن خَبَرِهِما، وَلا أغْرَبَ مِن سَمَرِهِما، وَلَعَمْرِي إنَّهُما لأحَقُّ بِقَوْلِ مَن أنْشَدَ، وهَدَى إلَى فِعلِ المَعْرُوفِ وَأرْشَدَ[2]:

قُلْ لِبَنِي الدُّنْيا: ألاَ هكَذَا ... فَلْيَفْعَلِ النَّاسُ مَعَ النَّاسِ[3]

وَلْيَكُنْ هذا آخِرَ المقَامَاتِ العَشْرِ، لا بَرِحَتْ بِثَنَاءِ مَن أنْشِئَتْ بِاسْمِهِ الشَّرِيفِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ، وَصُبْحُ سَعْدِها بِسَعْدِهِ دَائِمُ الحَشْرِ، وقَدْ قَدَّمَها الفَقِيرُ إلَى حَضْرَتِهِ الكَرِيْمَةِ راجِياً لَهَا حُسْنَ القَبُولِ، وأنْ تُعَدَّ لَدَى سُدَّتِهِ العَظِيْمَةِ مِن جِنسِ الكَلامِ المَقْبُولِ، إذْ هُوَ جِهْبِذُ الأقْوالِ ونَقَّادُهَا، وَإلَيْهِ يَرْجِعُ أبِيُّهَا وَمُنْقَادُها، وَكَيْفَ لا يَكُونُ كذلِكَ مَنِ اخْتَارَهُ لِخِلافَةِ رَسُولِهِ علَيهِ أفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَنَصَّبَهُ لِتَبْلِيغِ أوَامِرِهِ ونَوَاهِيهِ كالعَلَمِ الشَّاهِقِ بَينَ الأعْلامِ، وَأرْغَمَ بِسِيادَتِهِ

---

(١) هاذِم (بالذال): قاطع، وهاذم اللذات: الموت.

(٢) من البحر السريع، وقصة البيت أنّ ابن حيوس قد أثرى وحصلت له نعمة ضخمة من بني مرداس، فبنى داراً بمدينة حلب وكتب علَى بابها من شعره:

دارٌ بنيناهـــا وعـــشنا بهـــا ... فـــي نعمـــة مـــن آل مـــرداسِ

قـــوم نفـــوا بؤســـي ولـــم يتركـــوا ... علـــيّ للأيـــام مـــن بـــاسِ

قـــل لبنـــي الـــدنيا ألا هكـــذا ... فليفعـــل النـــاس مـــع النـــاسِ

وقيل إن الأبيات لابن أبي حصينة الحلبي وهو الصحيح. معاهد التنصيص ٢/٢٨٠.

(٣) مقامة رائعة في الوفاء، تحمل خصائص تربوية وقيماً فاضلة تعزز مكارم الأخلاق وهي من أعجب ما مر علي من صور الوفاء.

أُنوفاً صارَتْ فِي رَغَامِ الحَسَدِ مُرْغَمَةً، وَمَلأَ مَن عَمَّهُمْ بِمَعَاليه[1] قُلُوباً كانَت... [2] مِنَ النُّهى مُفْرَغَةً، وَفَوَّقُوا إِلَيهِ سِهامَ بَغْيٍ جَعَلَ اللهُ تعالَى دُونَها حِصْنَ تَأْييدِهِ وَسُوْرَهُ، يُرِيدُونَ لِيُطفِئُوا نُورَ اللهِ بِأفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إلاَّ أنْ يُتِمَّ نُوْرَهُ[3]. لاَ بَرِحَتْ سَعَادَتُهُ دَوْرِيَّةً، وَسِيادَتُهُ أَبَدِيَّةً دهرِيَّةً، ولَهُ مِن لُطْفِ اللهِ – سُبحَانَهُ – وعِنَايَتِهِ الأَعْوانُ والأَنْصَارُ، مَا تَعاقَبَتِ الدُّهُورُ والأَعْصَارُ، بِكَرَمِهِ وَمَنِّهِ، وَلُطْفِهِ وَيُمْنِهِ:

آمِينَ آمِينَ، لا أَرْضَى بِواحِدَةٍ حتَّى أُضِيفَ إِلَيها أَلْفَ آمِينَا[4]

والحمدُ للهِ وَحْدَهُ، وصَلَّى اللهُ عَلَى مَن لا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

* * *

(١)في الأصل: بما عاليه. والمثبت هو الصواب.

(٢) في الأصل: روسها. ولا معنى للرؤوس هنا عند عود الضمير إلى القلوب.

(٣) اقتباس من قوله تعالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. سورة التوبة، الآية ٣٢.

(٤) ورد هذا البيت أكثر من مرة في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقَّري، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ، بدون نسبته إِلَى قائل. انظر: ١/ ١٧٥، ٢/ ٤٥٩، ٦/ ٤٠٥.

فهرس المصادر والمراجع:

١- **أبو العتاهية أشعاره وأخباره**، تحقيق د. شكري فيصل، د.ط، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م، ص ٤٤٨.

٢- **الأعلام**، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

٣- **الأنساب**، للسمعاني، تحقيق عبد الله البارودي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤- **البخلاء**، للجاحظ، ضبطه وشرحه وصححه أحمد العوامري وعلي الجارم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ.

٥- **بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية**، للدكتور مصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٦- **تاريخ سلاطين آل عثمان**، ليوسف آصاف، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي. دار البصائر، دمشق، ط٣ / ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٧- **التصور الأدبي عند عبدالرحيم العباسي من خلال كتابه معاهد التنصيص**، للدكتور محمد بركات حمدي، دار الفكر، عمان ١٩٨٤م.

٨- **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر.

٩- **خزانة الأدب وغاية الأرب**، لأبي بكر علي بن محمد بن حجة الحموي، دار مكتبة الهلال للنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م.

١٠- **ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري**، ضبطه وصححه وصنع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

١١- **ديوان رؤبة بن العجاج (ضمن مجموع أشعار العرب)**، تحقيق وليم بن الورد، منشورات دار الآفاق الحديثة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١٢- **الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم**، مشروع قراءة شعرية، للدكتور / صالح بن رمضان، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٧م.

١٣- **ريحانة الألبا**، للشهاب الخفاجي، تحقيق عبدالفتاح الحلو، طبعة عيسى الحلبي، الطبعة

الأولى ١٩٧٦م.

١٤- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ.

١٥- **شروح سقط الزند**، لأبي العلاء المعري، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين، بإشراف طه حسين، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م.

١٦- **شعر عبدالرحيم العباسي**، دراسة وتحقيق الدكتور/ عبدالرازق حويزي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ: ٩-٢٨.

١٧- **الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية**، لطاشكبري زادة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

١٨- **الشواهد في العربية**، لمحمد اليعلاوي، منشورات كلية الآداب، منّوبة، تونس، ١٩٩٠م.

١٩- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، شمس الدين السخاوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

٢٠- **العاشق العفيف**، للدكتور/ مسعد العطوي، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٢١- **فن المقامات في الأدب العربي**، للدكتور عبدالملك مرتاض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٨م: ٤٧٣-٤٧٩.

٢٢- **القاموس المحيط**، للفيروزآبادي، تحقيق محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٤هـ.

٢٣- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، لحاجي خليفة، طبعة دار الفكر، ١٩٤٨م.

٢٤- **الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة**، لنجم الدين الغزي، تحقيق: جبرائيل جبور، مطبعة المرسلين، لبنان، ١٩٤٩م

٢٥- **لسان العرب**، لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف، مصر، د.ت.

٢٦- **مجمع الأمثال**، للميداني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.

٢٧- **مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي**، لأحمد قبش، دار الرشيد، دمشق، ط٣، ١٩٨٥م

٢٨- **مصارع العشاق**، لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي، عناية كرم البستاني، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

٢٩- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، لعبدالرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار عالم الكتب، بيروت – لبنان، ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م.مصورة عن طبعة مصر.

٣٠- **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، لمحمد أحمد دهمان. دار الفكر، دمشق، ط١/ ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

٣١- **معجم البلدان**، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.

٣٢- **معجم الشعراء**، محمد بن عمران المرزباني، تحقيق فريتس كرنكو، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ.

٣٣- **معجم المؤلفين**، تراجم مصنفي الكتب العربية ، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.

٣٤- **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، ليوسف سركيس، مطبعة سركيس، مصر، ١٩٢٨م.

٣٥- **المعجم الوسيط**، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية – الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، ط٢، تركيا – إستانبول، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٦- **المقامات المشرقية (٥٥٠ – ١٢٠٠هـ)**، للدكتور/ خالد الجديع، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٣٧- **المنامات الأيوبية: روافد التلقي – الرؤية الفكرية – البنية السردية**، للدكتور خالد الجديع، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مجلة الحكمة – جامعة مؤتة، الأردن، المجلد ٣، العدد ٣، جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ، تموز ٢٠٠٧م.

٣٨- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، لأحمد بن محمد المقّري. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ.

٣٩- **هدية العارفين**، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل البغدادي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، مصورة من طبعة وكالة المعارف الحلبية، باسطنبول، تركيا، ١٩٥١م.

٤٠- **الوافي بالوفيات**، لصلاح الدين الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.

- **رسائل جامعية، غير منشورة:**

١- **الإسعاف في شرح شواهد القاضي والكشاف لخضر بن عطاء الله الموصلي**، تحقيقاً وموازنة مع كتاب معاهد التنصيص، لعبدالرحيم العباسي، إعداد الدكتور عبدالرحمن الداغري، رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم الأدب بكلية اللغة العربية بالرياض، عام ١٤٢٤هـ/ ١٤٢٥هـ (غير منشور).

٢- **منح رب البرية في فتح رودس الأبية**، لعبدالرحيم العباسي، تحقيق الدكتور فيصل الكندري حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ١٤١٧-١٤١٨هـ/ ١٩٩٧-١٩٩٨م.

* * *